الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي كلية الآداب والفنون.

جامعة عبد الحميد ابن باديس مستغانم

قسم الأدب العربي

مشروع ماجستير : "النقد المغاربي: التراث والحداثة"

عنوان الرسالة:

" جهود عبد الله كنون في النقد المغاربي "

لجنة المناقشة:

الدكتور: السعيد بوطاجين رئيسا.

الدكتور: محمد لطروش عضوا.

الدكتور: عبد القادر مزاري عضوا.

إعداد الطالب :

عيسات قدور سعد

إشراف الدكتور :

حمودي محمد

السنة الجامعية : 2014 - 2015 م

إهــــــداء

إلى الذين عرفوا كيف تُجَلِّي الثقافة خصائص الأمة فقاموا بالإسهام.

إلى أولئك السَّاعين لعودة الأدب العربي لأمجاده بالجِدِّ والإقدام.

إلى من أحبوا النقد الجميل كي تُبَدِّدَ أنواره سُدُفَ الظلام.

إلى الباكين على ليالينا في الأندلس بكاء العاشقين على الدَّوام.

إليهم فقط أهدي هذا العمل.

سعد

تصدير

بيانًا للخطوط العريضة التي يتناولها النقد من موضوعات وقضايا؛ أقول [الكامل]:

يا مَـن تريـد دراسَةَ النَّقــد انتَبه *** عرِّج على هذي الأمـور لتحظى به .

اللَّفــظ والمعنــى ومَـن أربــابُه *** مفهــوم شعــر والبنـــاء لقالَبـه .

عمليَّـة الإبـداع مــا مضمونُها ؟ *** فامـزج قـديمًا بالجـديد لطالِبــه .

سرقــاتُ أفكــارٍ ونَصٍّ بعـــدَها *** طبــعٌ تزينُـه صنعَـةٌ في مشرَبـه .

واجمــع بعلـمِ بلاغَةٍ نقــدا علا *** وادرس فنون الشعر واحظ بأضرُبِه .

والنقـد أصنــافُ فـذوقٌ معتَبــط *** ميـزانُ خُـلْقٌ, علــمُ نفـسٍ فانتَبِـه .

حَرِّر مناهـج نقدِ مَن قد غربَلُـوا *** أنــواعِ نَـصٍّ, فالأديــبُ بمــذهَبه .

للشعـر في ساح الجمــال مراتِبٌ *** فاكشِـف عن القيَـمِ الجميلَةِ تَجتَبـه .

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله, والصلاة والسلام على رسول الله, وعلى آله وصحبه ومن والاه, إلى يوم أن نلقاه, أمَّا بعد:
فإنَّ شرف العلم بشرف المعلوم , ولاسيما إذا تصدَّى لهذا العلم نابغةٌ نحرير, وأديب بصير, وبخاصَّة إذا كانت له اليد الطولى بحثا وموسوعيَّةً وتحقيقا, لأنَّ مما يُعاني منه التأليفُ اليوم؛ قلَّة الكفاءة , وضحالة الاطلاع, وضعف الأهليَّة, ولكن ما يفعلُ الباحث الأكاديمي وقد انتشر القلم , دون أن ينتشر فنُّ الكتابة ؟!

لقد بدأت حركةُ الأدب العربي بحماسَةٍ وفاعِلِيَّة ؛ فلم تنطفئ جذوَتُها إلاَّ في هذه الأعصار, بيدَ أنَّها في بعض الأمصار شهدَت تأثيرا وحيويَّة , بما أُتيحَ لها من أفذاذ ذوي اقتدارٍ أقالوا عثرتها , و أعلوا نبرَتها , وجاوزوا بها العقبة , وإن كانَ تجاوُزُ القنطرَةِ محتاجاً إلى جهود, وإلى مزيدِ مثابرةٍ ومدارَسَةٍ وامتداد عقود .

وهذا المغرب العربي بأقاليمه المختلفة قد شهِدَ في فتراتٍ متعاقبة أو متباعدَةٍ عُلُوًّا قارَن الحال عند المشارقَةِ بل رُبَّما فاقَه ـ ولا نقول تفوَّقَ عليه إذ ليست بينهما مغالبة مهما قد وُجِدَت بينَهُما حسَاسِيَّة ! ـ في جانب من الجوانب الأدبيَّة وحقولها المتنوعة .

إنَّ الأفذاذَ ـ أولئك المشارُ إليهم آنفا ـ هم العمدة طرا في نضج العلم وإحيائه, وعلى سواعدهم الفكرية يُبنى صرحه ترميما وتتميما وتجديدا, ومن هؤلاء العلامة الكبير, والكاتب المتأدِّبُ القدير عبد الله كنُّون المغربي (1326ـ 1409هـ)=(1908ـ1989م), فهذا الرَّجُل بقلمِه الفوَّار, وعطائه الموَّار, واطِّلاعه الواسع؛ قد أنجَزَ من صُمامَةِ قلبِه, وقريحَةِ لُبِه, ما عجز عنه الكثيرون من السَّابقين في حقل الأدب العربي الرَّحيب, وبالتحديد في فلسفَة تاريخ الأدب المغربي و نقده.

أ ـ أهميّة البحث وأساب اختياره:

ولئن كان النقد أبو العلوم لأنَّه يُجلِّي صورَتها , ويُعلي ثورَتها , وكان هذا الأديب الفحل العصري لم يحظَ بالاهتمام اللاَّئق بمقامه الرفيع , فإنَّ الأخلاق العلميَّة و الظروف الواقعيَّة

الآنيَّة ـ قبلَ أَيِّ شيءٍ آخر ـ ؛ تفرضُ علينا دراسَة آثاره , ونخلَ إنتاجه , وبعثه للناس في مشهدِ بارز وطَلْعَةٍ نَظِرَة.

ولكَم نتمَنَّى دائما أن يُفتَتَح في قسم اللُّغَةِ العربيَّة تخَصُّصٌ جمُّ النَّفع لمن عرف , كثير الفائدة والعائدة للمستبصرين , ذلك هو التَّخَصُّص الموسوم بـ : **"أديبٌ وآدابه"** , وهو الذي ـ بخصوص عبد الله كنُّون ـ نأخذ منه اليوم , ونعالجُ منه الحين ؛ شطرا كبيرا .

إنَّها معالجَةٌ توافقُ رغبَةً في النَّفس جامحة, وأمنِيَةً بالأمس لائحة , أردنا أن ينالها التجسيدُ في المكان دونَ تأخير, ضمنَ إجراءٍ يقوم على التحليل, مع إبراز مواقع الظِلِّ في الكتابة الأدَبيَّة لذلك القلم الرَّائد.

هذا من ناحيَة تصوير ملامح الشَّخصيَّة التي يتناولُها البحث, وهو من ناحيَةٍ أخرى استخراجٌ لمنهجها في تدوين الأدب ونقده.

لقد وَسَم أمير البيان, شكيب أرسلان العلامة عبد الله كنُّون بأنَّه صاحب تأليفٍ لا يَستغنى عنه دارسٌ للأَدَبِ المغاربي بحال , مقارنا له بالمُقري صاحب "نفح الطيب" الذي قيلَ عنه: "من لم يقرأ نفح الطيب فليس بأديب", ولئن كانَ " النَّفح " قد يُستغنى عن الكثير من فصوله بما هو موجودٌ في غيره ؛ فإنَّ كتاب " النبوغ المغربي في الأدب العربي " لكنُّون لا يمكِنُ تجاوُزُه عندَ الذي خَبَرَ خُبْرَه , وسَبَرَ غورَه , خاصَّةً وقد عُدَّ : " محطة فارقة في تاريخ النقد المغربي , بحيث يعدُّ بداية تشكل النقد المغربي الحديث , إضافة إلى بعض كتبه كـ: "شرح الشمقمقية" سنة 1935 م, وشرح مقصورة المكودي سنة 1938م, وغيرهما. ونحن نذكر هاهنا كلامه في نقده لتضييعنا وعتبه علينا نحن المغاربة –كما قال هو عن إهمال الناس لابن الونان- مشنِّعا علينا في "إهمالنا لنبغائنا وعدم إنصافنا لهم حتى بعد مماتهم؟، وهل آن لنا أن نتخلَّص من هذا الإهمال الذي قضى على جل مآثر أسلافنا، وبالتالي على أحسابنا الموروثة، وهي لقاح الأحساب المكتسبة التي نسعى لإيجادها وتهيئة أسبابها؟ " ([1]).

[1]- عبد الله كنون "شرح الشمقمقية" دار الكتاب اللبناني، بيروت ، لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط 5، سنة 1979م، ص4 .

فعلى حسب تتبُّعي واطِّلاعي لم أجد لا في دراسَةٍ عصامِيَّة , ولا في بحوثٍ أكاديميَّة ؛ مَن كَتَبَ عن "جهود عبد الله كنُّون في النَّقد المغاربي" رغمَ أن المتأثرين به كثير, وتأثيرُه فيمن بعدَه كبير؛ إلاَّ ما كانَ من بعض المقالات في أجزاء متفرِّقَةٍ لا رابط بينها في حقل النقد الأدبي, ويؤخذُ عليها أنَّها غيرُ مركَّزَة من جهة ككتاب أحمد الشايب "الدراسة الأدبية في المغرب الأستاذ عبد الله كنون نموذجا" فقد ركز فيها على الجانب التاريخي للأدب أكثر من الجانب النقدي البحت, وككتاب إبراهيم الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح" فقد انصرف قليلا عن الجانب الأدبي عموما لكنه تجانفا كثيرا عن النقد بالخصوص، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ تلك الكتب والمقالات تبتعِدُ نوعا ما عن التحليل لتقترب مِنَ مجرَّد الوصف!

ونحن إذ نُعِدُّ هذه الدِّراسَة إنَّما نعتمِدُ فيها على منهج الوصف القائم على المقارنَة في سياقِها التَّاريخي, مع إجراءٍ تحليليٍّ نتوخَّى أن يكونَ عميقا بالقدر الذي نستطيعه .

** والنَّملُ يُعذَرُ في القدر الذي حملا **

بيدَ أنَّ البحثَ يجُرُّ معه تنقيبا الكثير من التَّساؤلات , ويسوقُ في ركابه تقليبا الكثير من وُجهات النَّظر مُقَيِّدا في الأخير و في الأثناء عديدا من الفوائد , ومُبَدِّدا جُمْلَةً من المغاليط والشُّبُهات , مُحاولا إعطاء التَّصَوُّر الصَّحيح دونَ منهجٍ أَفْيَحٍ , أو إقناعٍ متحامل, أو تدليلٍ فيه غُبْنٌ, أو عرضٍ كليل .

ب ـ منهجيَّة البحث:

اعتمدت في دراستي على المنهج التاريخي الوصفي القائم على التحليل, دون أن أقتصر على مجرَّد النقل والتوصيف بل جعلت من حضوري النقدي وبروزي الإبداعي خلال البحث هدفي الأسمى في عمليَّة التدوين, ابتعادا عن الرؤية المكرورة العقيمة, والنظرات المبتورة السَّقيمَة, التي تخلُقُ في الباحث جبنا علميا كبيرا, يختفي وراء أفكار الآخرين, ويتوارى خلف سطورهم, كيف والبحثُ برمَّته يقومُ على التَّحذير من أن يُلغِيَ المرءُ عقلَه ويُفَكِّرَ بعقول النَّاس؟

لقد كان من منهجيَّتي في الرِّسالَة أن أُبَيِّنَ مدى قناعتي بأفكاره, لكن لا على الوجه المألوف عند الكُتَّاب حيثُ يُصرِّحون بالموافَقَة إن وافقوا, ويكثرون من نقل نصوص صاحب الفكرة ويُغرقُوا؛ بل بسلوك طريقةٍ أخرى هيَ أن أشرَح الفكرة بقلمي وأستدلَّ لها بما يجعلني أقترب من إقناع القارئ بما أنثُرُهُ عليه عبر دفعات مرَتَّبات على بساط المعلومات, ليعيَ رأيي و يفهمَ من خلاله رأي الأستاذ كنُّون, ويعلمُ أنَّ ذلك هو رأيُه ومذهبُه, ومن مزايا هذا العرض أنَّه يستفيد النَّاظر له من أشياء لم ترد في كلام الأستاذ فأورِدُها له مزيدَةً كزيادَة القلادة على العقد, وإنَّني لا أبرح قضِيَّة إلاَّ وقد تصَوَّر المطالع لها وجهة الأستاذ فيما تبَنَّاه, وقرأ له في ذلك نصًّا أو أكثر مِمَّا نقلناه, مدَعَّما بذكر المصادر مع قسط مناسبٍ من التَّعليق والتَّوضيح.

فهذه هيَ طريقتي التي يستشِفُّها القارئ حين يرى الباحث ينوب عن المبحوث عنه في الكلام إزاء أيِّ فكرةٍ أو مذهبٍ أو مسأَلَة, حينما يكون المقام مستدعيًا ذلك, دافعا إليه.

أمَّا عن بيان جهوده فلم أسردها سردا شأنَ السَّيل الهادر, بل جعلتها درجاتٍ يَمُرُّ فيها القارئ صعودا, واضعا بينَ كُلِّ درجَةٍ منها محطَّةً وحدودا, كيما يعي ويفهم ويتصَوَّر, ويُدرك حجم الجهد المبذول الذي قدَّمه الأستاذ حينَ سعى وفَكَّر, وسهِرَ وبَكَّر, وسَخَّرَ مطايا قلمِه للتَّقدُّمِ والتَّرَنُّمِ والامتداح, وحلَّقَ بأجنحته في سماء الجِدِّ والنَّقد والكفاح, علما وعملا وحراكا, وتصحيحا وتصويبا واستدراكا, وفنًّا وبيانا وطربا, ونثرا وشعرا وأدبا, ممَّا كُلُّه مشدود على أوتار تنشُدُ التَّكامُل, وترفُضُ التَّداخُل, ولا تبغي القطيعَة والميوعَة والانحلال, ولا تَقبَلُ الاختلاط والانحطاط والذَّوبان.

ج ـ خطّة البحث:

قسّمت البحث إلى مقدّمة, ومدخلٍ وثلاثة فصولٍ, وخاتمة.

تحدّثت في المقدّمة عن أهمّية البحث, وسبب اختياري له، وتحدّثت أيضاً عن منهجي في البحث, وخطتي فيه، وعرضت للصّعوبات الّتي واجهتني في كتابته, وتحدّثت عن أهمّ المصادر والمراجع الّتي اعتمدت عليها في دراستي.

وكانت المقدمة بمنزلة فتح الباب على مصراعيه بعد أن أدارت مفتاح في القفل، كيما

نخطو خطوات معدودة في رواق الرسالة قبل الشروع في التعرف على غرفها التي تمثَّلت في الفصول، فجاء الفصل الأوّل وهو مصادر المعرفة النقدية عند كنون من خلال سيرته؛ متألفا من ثلاثة مباحث, تحدّثت في أوَّلها عن عصر الأستاذ عبد الله كنُّون مصورا الخلفية الثقافية والسياسية والاجتماعية لمصادر تكوينه العلمي والمعرفي، وبيان هيئة القالب الزماني الذي ترعرع فيه بيئيا وأدبيا، ولدى ترجمته تركنا جوانب لنجعلها في موضع متناسب مع الحيثيَّة المُرادَة, والتعليق الملائم الذي نعرضُ له، وأدلفنا من بعدُ إلى بيان أخلاقه وعلمه وتأثراته, مقدِّما الأخلاق على العلم لأنَّها الأصل في الإنسان السَّوي, فكيف بالعالم القدير والنَّاقد القوي, واضعا النِّقاط على الحروف, مجلِّيا ذلك الحال وتلك الظُّروف, ذاكرا مرجعيات فعله القرائي من خلال سيرته قطوفا بعدَ قطوف, على وجهٍ مختصر, وبيانٍ معتَصَر جامع.

وتكلمنا عند ذلك عن المطبعة ودورها في الحركة النقدية لا في ما عتدناه من كلام الكتاب عن مجرد دورها في الحركة الثّقافيّة بوجه عام, وتحدّثت أيضاً عن جهده النقدي في الكتب الّتي ألّفها, والمصنفات والدواوين التي حققها.

ونَنَبِّهُ إلى أنَّنا لدى تناوُلنا لسيرته بصفة عامة لم نشأ أن نسردها كما يفعل المؤرخون, وإنَّما فرَّقناها على مواطنها من البحث, بحيث نأخذ منها في كُلِّ جزئيَّةٍ ما يناسبُها، وفي كُلِّ سياق ما يلائمه من أحداث سواء ما كان من تآليف ورحلات أو من وظائف وأعمال, كيما نستغرق حياته العلميَّة والعملِيَّة معا, وتلك طريقةٌ قرآنِيَّة مفيدَةٌ فريدَةٌ في عرض صفحات الأشخاص وتناوُلِ تاريخهم بما فيه من أحداث جليلة وأعمالٍ نبيلَةٍ أو غير نبيلَة, وهي النَّظريَّة التي بدأَت في الأخذ بها أجهزةُ الإعلام من زمانٍ, إذ أبصروا فائدَتَها, واستثمروا عائدتها، وللحديث عن ذلك محلٌّ آخَر.

وقد تقَصَّدنا ذكر طبعات مؤلَّفاته بسنواتها, ليعرف القارئ قيمة تلك الكتب بمعرفة تعدُّد طبعاتها, ومقدار ما عليها من الطَّلب, واقتصرنا على ما يمُسُّ موضوعنا منها فيما غلب، مع ذكرنا بعض الأعمال التي كتبت عن الأستاذ.

وكان المبحث الثَّاني مُوَضِّحا لجهوده النَّقدِيَة من خلال أعماله، وماذا أسدى للأدب العربي نقديا من خدمات, مبتغين في ذلك الاستقلال الفكري في الأحكام, والموضوعيَّة في التَّوصيف, والحيادِيَّة في الطَّرح, بكُلِّ تحَرُّزٍ, ودون تحَيُّزٍ ولا تقليد.

وفي المبحث الثالث تكلمنا عن أفكارُه النَّقدِيَة وتطوُرُها من خلال أحكامه وقراءاته. هذا؛ وقد قمنا بنقل كلام غيره فيما قد قال مثله حتَّى ندفع عنه شذوذِيَة الرَّأي وتهوُّر الفكرة وانعزاليَّة الموقف.وقد أيدنا آراءه المعروضة بآراء غيره من الأدباء حتَّى ننفي عنه الانفرادِيَّة التي تعني شُذوذ الرَّأي، وتَدُلُّ على الادِّعاء, والانعزاليَّة العمياء.

وأمَّا الفصل الثَّاني من البحث, فخصّصته للحديث عن الفكر النَّقدي في حد ذاته عند الأستاذ كنون مقدِّما إيَّاه على الفصل الثالث الخاص بمنهجه في النقد لأنَّ الفكر مادَّة خام فتخضع للدراسة أوَّلا، وبعد ذلك يمكن الكشف عن هويَّتها وقيمتها ووجهتها وماذا هو منهجه المستلهم فيها من وحي أفكاره وطرائق تعامله مع القضايا والآراء, وأيضا، لأجلِ أن ينسجم البحث ولا يتقدَّم فصلٌ حقُّه التَّأخير على فصلٍ حقُّه التَّقديم.

وقد قسّمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث, قمت بالحديث في أوَّلها التجليات التي يتمظهر فيها الفكر النقدي للأستاذ والتَّأثيرات التي كان هو رائدها، وفي المبحث الثاني جاء دور الكلام عن أدبيات الخطاب الكنُّوني وكيف كانت وإلى أي وجهةٍ أخذت, لنعرض في المبحث الثالث لإجراءاته القرائية، مبينين السبيل الذي جرت فيه أدواته العلمية والمذهبيَّة النَّظريَة في تحليل النُصوص, لاسيما في المجال الشعري على وجه الخصوص.

ثم كان الفصل الثالث, وهو المنهج النقدي لدى عبد الله كنون، بدأناه بمبحث تعرضنا فيه لتحديد معايير النقد وسمات المنهج النقدي عند الأستاذ، لنتكلم في المبحث الموالي عن المناهج النقدية والمنهج الكنوني الذي اختار فيه الجمع بينها بدل إقصاء منهج على حساب آخر، وكان ثالث المباحث وآخرها مختَصًّا ببيان منهجه في الرواية مع تجلية أسلوبه الكتابي، وموقفه من المذهب الرَّمزي الذي خاض فيه الكثيرون إطلالا، مختلفين عليه ومن حوله.

وقد جعلت الفصول كشجرات في بستان تشترك في نوعٍ من الثمار, وأنزلت المباحثَ منزلة الأغصان المتفرِّعة جاعلا لها عناوين فرعيَّةً تجمعُ المسائل كما يجمعُ الغصنُ الأوراق.

ثمَّ أنجزتُ الخاتمة، وهيَ تختصرُ ما توَصَّلنا إليه وجُلنا فيه, وطُفنا حواليه؛ من خلال وأطلال وأعمال وظلال هذه الورَقَة وهذا البحث, مع بيان ما تستشرفه دراستنا من آفاق, وما تفتحُه من أبواب, وما تطرحه من تساؤلات, مبَيِّنينَ أهمّ نتائج البحث, وما يمكن أن نستفيده من مثل هذه الدّراسة.

وقمنا في الأخير بوضع قائمة للمصادر والمراجع الّتي اعتمدت عليها مع فهرسة البحث.

لذلك لم يكُن من عملي أن أردِّدَ كلَّ ما قاله الأستاذ كنُّون, فإنَّ كتُبَه كفيلة بذلك, لكن هذا لا يعفينا من التَّمثل بما قال لإثبات ما ننسبه إليه من الأفكار والآراء, غير أنَّ مرامنا أن نقدِّمه إلى القارئ في صورة من نفسه قريبة من الكمال لا في صورة من بعض أقواله, فإنَّها لا تغني في إدراك كُنهِ الرَّجُل, إلاَّ إذا قرأ جميع ما كتبته يداه, وحبَّرته أنامله, وليس ذلك ممكنا ولو تلخيصا في رسالة كهذه, وإلاَّ إذا درس حياته وما كتبه الباحثون عنه, ومع ذلك على القارئ استعمال قدر واسع من الخيال حتَّى يستطيع تصوُّر هذه الشَّخصيَّة, ويدرك قيمَة وزنها, وتنوُّع جوانِبِها, وحدودَ أبعادها.

د ـ الصّعوبات الّتي واجهتني أثناء البحث:

واجهتني في مضمار البحث ومنعرجاته أمور نذكر منها:

1 - تشَعُّبُ المادَّة العلمية وتناثرها، وعسر استخلاصها من عناصرها وتخليصها من علائقها في كلام الأستاذ كنُّون, لأنَّه كان ذا قلمٍ سيَّال فأنَّى للجاري خلفَه أن يلحَقَهُ أو يُدرك مُنتهاه.

2 – تعسر الحصول على بعض مؤلفات الأستاذ كنون لنفاذ طبعاتها وعدم تجدد الطبع مرة أخرى.

هـ ـ أبرز مصادر البحث:

اعتمدت في هذا البحث على مجموعة متنوّعة من المصادر والمراجع, كان أهمّها كتُب الأستاذ عبد الله كنُّون, وكتب الآخرين ممَّا دار حولها واتَّصَل بها من تآليف غيره التي تصبُّ في حقل هذه الدراسة.

1 - أحمد الشايب: الدراسة الأدبية في المغرب، عبدالله كنون نموذجًا - مطبعة اسبارتيل- طنجة 1991م.

2- إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح" نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث, الرباط, المغرب, ط 1, سنة: 1434هـ-2013م.

3 - مصطفى ناصف: "النَّقد العربي: نحو نظريَّة ثانِيَة",نشر عالم المعرفة, مارس 2000م.

4- عبد الله كنون " النبوغ المغربي في الأدب العربي" ط 2, بدون.

5- "ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة" قدم له واعتنى به د.محمد بن عزوز، دار ابن حزم- بيروت، ط 1، 1430هـ/2010م.

6- عبد الله كنُّون: "أحاديث عن الأدَب المغربي الحديث" دار الثَّقافة, الدار البيضاء, المغرب, ط 4, 1405هـ/1984م.

7- "أشداء وأنداء" مطبعة البوغاز, طنجة- المغرب, سنة 1986م.

ولا يفوتُنا أن نشكُرَ اللَّجنَةَ الموقَّرَة في المجلس العلمي جزيلَ الشُّكر , على ما حبتنا به من تقديم فائدَة النَّظر إلى هذا العرض, وحسن إهدائنا إلى ما ينبغي أن يكونَ فيه, ليَحُلَّ القَبُولُ عليه, وإعطائنا فرصَةً للاستزادَة من العلم ومعرفة الاعلام, لاسيما والموضوع جديرٌ بالاهتمام, أبقاها المولى في المقام الأرقى, وأولاها عنايته, وأغدقَ عليها رعايته, لما تقدِّمُه من خدماتٍ علميَّة, وما تبذُلُه من جهودٍ توجيهيَّة مع فضل التسديد والتيسير.

ونُردِفُ بالشُّكر العميم للأستاذ الدكتور حمودي محمد المشرف على هذا البحث, والذي يشَرِّفُني أن يكونَ موجِّهي ورائدي في مسالك البحث ومنعرجاته , فلقد أتحفنا كثيرا من خلال تدريسه لنا وإشرافه علينا طيلة العام؛ بغيثه المترادف, وما فيه من الفوائد والمعلومات واللَّطائف, إذ عهِدْنا فيه وتعوَّدنا منه كَرَم العناية , ولُطْفَ المعامَلَة , وجميل النُّصح, ودقَّة التَّوجيه.

وبعدُ؛ فإنَّنا نتوخَّى الإجادَة والإحسان, ونستعيذ بالله من الخلل و القصور ومن شرِّ الهوى

والشيطان, مع الإقرار سلفا بالنُّقصان, { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82] . { وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود : 88]

وكتب الطَّالب : عيسات قدور سعد

مشروع ماجستير: "النقد المغاربي: التراث والحداثة ".

الفصل الأول : مصادر المعرفة النقدية عند عبد الله كنون .

المبحث الأوَّل: المرجعِيَّات المعرفيَّة والعلمِيَّة من خلال سيرَته.

المبحث الثاني: جهوده النَّقدِيَة من خلال أعماله.

المبحث الثالث: أفكارُه النَّقدِيَة وتطوُرُها من خلال أحكامه وقراءاته.

الفصل الأول : مصادر المعرفة النقدية عند عبد الله كنون .

المبحث الأول : المرجعِيَّات المعرفيَّة والعلمِيَّة من خلال سيرَته.

ازدهر القرن العشرين بنفائس المطبوعات والكتب، وكان الكثير منها قد ظهر لحينه منذ دخول المطابع إلى البلاد العربية، وكان المصَنَّفُ لقلَّة نسخه يُقرأ وتشتدُّ الرغبة فيه، واغتدت المجلات العلمية والأدبيَّة هي المنتظر الوحيد الذي يترقَّبُ العلماء والأدباء صدور العدد منه بعد الآخر، متابعين جديده، مطالعين مزيدَه، متحركين حيث تحركت الأقلام ومتوجهين توجَّهت ركبان المحابر؛ دون أن يتأخروا عن الإسهام في دفع عجلات النشاط إلى الأمام, بيدَ أنَّ الكثرة الكاثرة من سواد الناس لم تكن لتشارك في ذلك قراءة فضلا عن التدوين، إذ كان العصر لا تستنشق فيه عبير العلم وعطر الأدب سوى القلَّة القليلة، والواحد بعد الواحد، وبرُغم ذلك نبتت العماليق في تلك الفترة، إلاَّ أنَّها على العموم لم تكن لتَبعثَ بالبشائر.

عصره وماذا قرأ فيه ([2]):

إنَّ عصر الأستاذ كنُّون كان عصر تدَنٍ وانحطاط, قد أحكمت فيه القوى الاستعماريَّة قبضَتَها –باسم التَّدخُّل والتغوُّل والحماية- على الأوطان العربيَّة مشرقا ومغربا, واحتلَّت فرنسا من ذلك أكثر ربوع الشَّمال الإفريقي بعنفٍ وهمجِيَّةٍ واستيطان, فعملت جاهدة – بكثرَةِ استخدامها, ووفرَة خُدَّامِها -؛ على وأد كُلُّ تنوير يبعثُ بالشُّعور القومي والانتماء العربي, فضلا عن الحِسِّ الأدبي, لأجل ما أمدَّها به خبراء الاستشراق من أنَّ الحامي لبيضتها العنقائيَّة في البلاد هو جهل سكَّانها وضعف تكوينهم, بالإضافَةِ إلى إفلاسِهم وبلادة حِسِّهم, فكان أن سَخَّرَت جميع طاقاتها لذلك, وهي تعلم تمام العلم أنَّ القضاء المبرم على كُلِّ ما يبعث بالحياة من أبناء الوطن شيء مستحيل, فلم تنل يدُها بعضا من حَمَلَة مشاعل النُّور إلى الأجيال التي دخلها الإحساس قبل أن يُرفَع عنها الالتباس, فضلا عن أن تستقِلَّ وتتزَيَّن من أثواب الحريَّة بأفخر لباس, إذ النَّهضَةُ الأدبيَّة هيَ أساس كُلِّ نهضَةٍ علميَّة وهي سابقة

[2]- لأجل أسبقيَّة العصر على النَّشأة إذ تكون هي الحالَّةً فيه من غير عكس فقد قدَّمنا الكلام عليه ثُمَّ جعلناها بعده.

لها من البدء, ومتوازيَةٌ معها في الحرث والزرع والسِّقايَة, ومشتركةٌ وإيَّاها في حصد الزُّروع وجني الثمار.

ولا شَكَّ أنَّ أوَّلَ إنسان اتَّخذَ البُيُوت, ما بنى بيتا فبدأ بحفر الأساس, حتَّى تمكَّن منه الإحساس, وشعر بلفحات البرد تقرصه, وبالدِّفء ينقُصُه, ودَع بعد هذا ما أمكن لقريحته أن تخترعه من كيفيات البناء والعمران, ولحاجته أن تبدِعه من صورٍ وألوان, جاءت عبر مستوياتٍ تعلو – بالجُهد والنَّقد - كُلَّما كثرت التجارب, وتلاقحت الآراءُ والمشارب؛ وتقدَّمت الأزمان.

أمَّا روح العصر في المغرب إبَّان فترة القرن العشرين, فإنَّ المناخ السِّياسي آنذاك كان باعثا بالدُخان الكثيف الذي لا يرى من ورائه شاخص, ولا قارئ فاحص, ولا هَبَّة, أو صاحبُ وثبَةٍ وتقدُّم, ليس-فقط- في ميدان العلم والأدب والصِّناعات, بل في جميع ما يزيد في ثقافة العقل ويضُخُّ في النَّفس برودَ النَّسمات.

إنَّه إذن, الحرُّ والرُّكود والسُّبات, ومعاينة الحروب والنَّكبات, يقول الأستاذ كنُّون "كانت سني ست سنوات حين انتقلت مع والدي رحمه الله إلى طنجة ، وكان ينوي هو وعمي العلامة المرحوم محمد الهجرة إلى الشام ، ولكن إعلان الحرب العظمى الأولى حال دون ذلك" ([3]).

بيدَ أنَّ عراقة هذه الأمَّة لم تَدَع صَدرَ أبنائها فارغا حتَّى تجذُبَ إليه بن الحين والآخر أنفاسا طويلَة من نقِيِّ الهواء, بمَّا يدُلَ على أنَّها جسدٌ لا تزالُ الرُّوحُ ساكنَةً في أعضائه, سائحَةً في أرجائه, ذلك؛ في الوقت الذي تدُلُّ فيه الجذبةُ الطَّويلة على الأسى المدمِّر المغتال لحقائق العزَّة والشَّرف, الرَّاكض بالصِيَّال الخائض بالاحتيال لإسقاط هامات الإبداع.

لم تكن في ربوع الديَّار المغربيَّة معاهد للتربيَّة ولا كليَّاتٍ للتعليم والدِّراسَة, سوى ما كان تابعا للإدارة الاستعماريَّة, دُونَ ما خفِيَ وندر, وأصبحت المساجدُ تقوم بدورها على أضعَفِ وجه, مقدِّمَةً من المطلوب أدناه, ومن الثَّمر ممزوجا بالمرارةِ أحلاه, فصنعت من الأطفال رجالا بحيثُ يحتاج الواحدُ منهم إلى سكاكر رجولَةٍ إضافيَّةٍ حتَّى ينضُج ويستقيم, فيصهَلَ بالحقِّ جوادُه, ويعمُرَ بالرُّوحِ الأدَبيَّة فؤاده, بكُلِّ بحثٍ وفتش, ورباطَةِ جأشٍ وثبات.

---

[3]- عبد الله كنُّون "ترجمة حياتي" مقالة صغيرة منشورة في موقع المحجة: *www.mahaja.com* .

فبينَ جُدران البيت حيثُ ينعدِمُ الرَّقيب الإنساني الجسمي, والحسيب القانوني الرَّسمي؛ كان الطفل كنُّون يزاول دراسته على والده الشَّيخ عبد الصَّمد, فقد كان أكثر من درس على يده رغم مزاولته العلمَ على مشائخ كثرٍ العدد بعد العدد, حتَّى تمكَّن من مفاتيح الكتب وانحلَّت له مغاليقُها, وحسبُ من بلغ هذه المنزلة أن يذهبَ إلى المكتبة ويشتغل, وأن يُلهبَ مشاعره وينفعل, وبالموازاة مع ذلك أن يسعى لتكوين مكتبة عامرة.

فهو قد "تلقى مبادئ العلوم على يد والده وعمه، وبعض علماء طنجة [وغيرهم, وفي مقدمتهم أبو الهدى أحمد أبو العيش، القاضي عبد السلام بن عبد النبي غازي ([4]), ومن "شيوخه الذين تأثر بهم أبو شعيب الدكالي" ([5])]، ثم اعتمد على تكوين نفسه بالقراءة المستمرة، فاطلع على الكتب والمجلات الواردة من المشرق العربي (مصر وغيرها)، واطلع على الأدب الغربي منقولاً إلى العربية، وأسس لنفسه منذ طفولته" ([6]) رفوفا مزدانةً ومكتبةً ملآنة بذخائر التَّآليف, ونفائس المصَنَّفات.

بيدَ أنَّهُ لم يكن متكَثِّرا بطلب الكتب, وإن كان يلتهمُ منها التهاما, فإنَّها بحرٌ لا ساحل له؛ وإنَّما كان يأخُذُ أكثَر ما يأخُذُ عُيونها, متأسِّيا بما قيل من أنَّ: "معرفَة الكُتُب نصفُ العلم", رافضا في الآن نفسه الغرور بتضاعف أعداد ما طالع من مصنَّفات إذ العبرة ها هنا بالكيف لا بالكَمِّ, فالحكيم ينظُرُ ماذا يقرأ ولمن يقرأ, قبل أن يلتفتَ إلى كم قرأ, خلافا لمن يهتَمُّ بالعدد فيصير أمرُه إلى قلَّة, إذا كانت الكتب التي طالعها لا تغني طالبا, ولا تروي غليلا, على نحو ما قال الشَّاعر:

طلَبتَ لكَ التَّكثيرَ فازددتَ قِلَّةً *** وقد يَخسَرُ الإنسانُ في طلَبِ الرِّبح !

والحقُّ أَنَّ قراءاته كانت "متنوعة، ونَهِمَة، وموصولة الأسباب، وبجهده الخاص تعلم الإسبانية والفرنسية، فكان يقرأ بهما، ويتابع الجديد الذي يصدر بطنجة وهي يومئذ خاضعة للإدارة الاستعمارية الدولية، حتى صار من قادة الفكر والعلم والعمل الوطني لما انتظم في إطار الحركة الوطنية، من كتلة العمل الوطني في عام 1934، إلى الحزب الوطني في عام

---

[4]- أشوخي نور"قراءة في كتاب النبوغ المغربي لعبد الله كنُّون" مقالة منشورة في الرابط: *www.alukah.net* .

[5]- أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي "موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية" نشر المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش – المغرب, ط 1, بدون, (ج10/ ص160).

[6]- ينظر منتديات واتا الحضارية.

1937. ولكنون مواقف مشرفة في هذه المجالات جميعا" ([7]).
ولا غرو فهذا الشِّبل من ذاك الأسد, فقد "كان والده عالما ضليعا، متبحرا، مشاركا، له قدم راسخة في العلوم والمعارف المتنوعة. كما تلقى العلم في صباه المبكر ويفاعته على علماء طنجة في بعض المساجد التي كانت بمثابة جامعات مفتوحة تعج بالعلم والعلماء وشداة المعرفة من كل الأعمار والفئات، وكان أحيانا يختلف إلى بيوت بعض العلماء ليتلقى دروسا خصوصية في علوم معينة. ثم ما لبث أن أغرق نفسه في قراءات حرة يلتهم ما يصل إلى طنجة في مطالع هذا القرن من كتب ومجلات وصحف، التهاما شديدا" ([8]).
فقد كوَّن الأستاذ مكتبةً وهو في سنِّ الطفولة الزَّاهرة, وتنوَّعت دراساته وقراءاته المثمرة حتَّى قال:

"كان مجال دراستي ينحصر في علوم العربية والفقه والحديث والتفسير ، وأما الأدب فقد تعاطيته هواية" ([9]).

وأنا لا أظُنُّ أنه يخفى على أحدٍ عشقَ وأحبَّ ومرَّ بتجربةٍ عاطِفِيَّة اتجاه شيءٍ ما أي يجهلَ الأثر الفعَّال للهوايَة في خلقِ البراعة العاليَة في الإلمام بالشيء المحبوب, إذ قوَّة التَّمكُن والتَّسَلُّق على حسب قوَّة التَّعلُّق, ومن أحبَّ أمرا ما تمكَّن منه, لأنَّ الإتقان على قدر الاهتمام, وهوما ظهر جليا في آثار كنُّون الجليلة,وأعماله النَّبيلَة. بل هوايَة الشَّيء هي نوعٌ من أنواع الموهِبَة على التحقيق, وحسبُ الأستاذ هذا فإنَّ الجوَّ آنذاك لم يكن مساعدا على أكثَر من ذلك.

بيدَ أنَّ مِمَّا لطَّفَ ذاك الجوَّ الخانق؛ تلك الفلتات التي تجود بها يدُ الزَّمان, فسنحت للكثير من المحظوظين بالنَّجاة من هواجر العصر ونيرانه, فلم ينطبعوا بطابع أبناء الوقت, ولم تقابلهم الأسباب المادِيَّة والمعنويَّة بجميع المقت, فاجتازوا قطعا من البلاء, وأخطأتهم شُهُب الخذلان فمَضوا راشدين, فعلى هؤلاء قام أكثَرُ بنيان الاستقلال الفكري والجغرافي, وتمَّ لهم ولمن بعدهم مواصلة الدَّرب في سبيل النَّهضَةِ والتَّمكين.

فالأستاذ كنُّون قد نضج بسرعةٍ حتَّى قال عن نفسه "اشتغلت بالتدريس في سن العشرين،

[7] المرجع نفسه.
[8] - المرجع نفسه.
[9]- عبد الله كنُّون "ترجمة حياتي" مقالة صغيرة منشورة في موقع المحجة: www.mahaja.com

وكتبت في الصحف ونظمت الشعر قبل ذلك، وأسست مدرسة حرة تخرج بها الكثير من المثقفين"([10]).

ولقد أجاز الكثير من الطُّلاب داخل المغرب وخارجه, فمن أولئك؛ الدُّكتور محمد عبد الغفَّار الشَّريف من أهل الكويت وغيره كثير.

إنَّ مولدَه غدا خيرا على المغرب كُلِّه, وعلى البحث وعلومه, فقد صار الأستاذ فقيها وكاتبا, وناقدا أديبا لغويًّا, ومؤرِّخا وصحافيا, وشاعرا وأكاديميًّا, و "أحدَ الرواد الكبار في إرساء قواعد النهضة الأدبية والثقافية والعلمية في المغرب، منذ منتصف العشرينيّات إلى أن توفي" ([11]).

نشأته ومعارفه:

عبد الله كنُّون الحَسَني (1326 - 1409 هـ) (1908 - 1989 م):

هو "كنون. بفتح الكاف المعقودة وتشديد النون المضمومة. اسم بربري معناه: القمر" ([12]). وكنُّون لقبٌ من الألقاب, وإلاَّ فالأستاذ عربيٌّ من العرب وينحدر نسلُه من بيت آل النبُوَّة, فهو الحسني نسبَةً وأصلا, وينتمي إلى أسرة أولاد كنون, و "بيت الأدارسة الكنونيين المعروفين بالزَوَّاقين ([13]), وهو بيتُ رفيع العماد, أصيل التلاد, [ينتهي إلى] المولى الحَسَن السِّبط, ابن الإمام علي, وفاطمة الزَّهراء بيت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم" ([14]).

ولدَ بمدينة فاس يوم السبت 30 شعبان 1326هـ ، الموافق لشهر سبتمبر سنة 1908م, حفظ الأستاذ "القرآن على يد أبيه وعلى يد الشيخ أحمد بن محمد الوسيني, وحفظ الأحاديث النبوية" ([15]).

وأتقن حفظ المتون، وأجاد رواية الحديث ورواية الشعر، ثم لحق بالقرويين ليتلقى علوم عصره على كبار المشايخ يومئذ"([16]), وبرع حتَّى "أصبح عالما بالشريعة وباللغة العربية

---

[10]- المرجع نفسهsaad.

[11] - ينظر منتديات واتا الحضارية.

[12] - بكر بن عبد الله أبو زيد "طبقات النَّسَّابين" بدون، ص33.

[13]- من قبيلة بني مسارة بنواحي مدينة وزان.

[14]- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح" نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث, الرباط, المغرب, ط 1, سنة: 1434هـ-2013م, ص33.

[15] - ينظر منتديات واتا الحضارية.

في وقت قصير" ([17]).

- 1932- تزوج من كريمة الفقيه محمد بن تاويت من أعيان طنجة.
- 1936- (فاتح ذي القعدة 1355) أنشأ مدرسة إسلامية للبنين والبنات بطنجة.
- 1938- أصدر كتابه الشهير (النبوغ المغربي في الأدب العربي)
- 1939- نال الدكتوراه الفخرية من جامعة مدريد المركزية.
- 1945- أنشأ المعهد الإسلامي بطنجة وتولى إدارته إلى سنة 1953م.

بيدَ أنَّ الأستاذ العشَّاب نصَّ على أنَّ سنة الإنشاء للمعهد كانت في 1947م ([18]).

- 1948- عين مديرا لمعهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان.
- 1949- عين أستاذا بالمعهد الديني العالي بتطوان.
- 1953- التحق للإقامة بتطوان على أثر أحداث 53/8/20
- 1955- عين وزيرا للعدل في الحكومة الخليفية بمنطقة شمال المغرب (تطوان) (21/ 1/ 55)

فهو يقول عن هذين السَّنتين "عملت على إنشاء المعهد الديني بطنجة ، ووليت إدارته إلى يوم 20 أوت 1953 حين استقلت منها احتجاجا على الحادث الشنيع الذي جرى في ذلك اليوم، ولجأت حالا إلى تطوان لعدم المشاركة في البيعة الباطلة ، وأسندت إلي هناك وزارة العدل في يناير 1955 ، ثم استقلت منها في يناير 1956 بعد رجوع السلطان واعتراف فرنسا باستقلال المغرب" ([19]).

- 1955- عين عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق.
- 1955- قدم استقالته من الوزارة على إثر عودة الملك محمد الخامس إلى أرض الوطن في 1955/11/16.
- 1956- عين عاملا على طنجة وقام بتصفية النظام الدولي بها.

16- محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف "تَكملَة مُعجم المُؤلفين" وَفيات (1397- 1415هـ) = (1977- 1995م) نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان, ط 1, سنة: 1418 هـ - 1997م,ص 341 .

17- ينظر منتديات واتا الحضارية.

18 - عبد الصَّمد العشاب "مائة سنة من تاريخ المنشآت الحبسية بطنجة نماذج من أحباس مدينة طنجة منذ القرن الثاني عشر الهجري", "مجلَّة التَّاريخ العربي" ملف مضغوط في الشاملة ص 12044.

19- عبد الله كنُّون "ترجمة حياتي" مقالة صغيرة منشورة في موقع المحجة: *www.mahaja.com*.

• 1957- ترأس وفد الحج المغربي الرسمي.

• 1960- عين وكيلا لمجلس الدستور.

وفي العام نفسِه " 1960م صدر قرار جمهوري بتوحيد مجمعي القاهرة ودمشق، بعد قيام الوحدة بين مصر وسورية، واعتبارهما فرعين لمجمع واحد مقره القاهرة, ... صدر في القرار السابق تعيين أحد عشر عضوًا من البلاد العربية [منهم]:الأستاذ عبد الله كنون من المغرب" ([20]).

• 1961- انتخب أمينا عاما لرابطة علماء المغرب وبقي في هذا المنصب إلى وفاته.

• 1961- انتخب عضوا عاملا ممثلا للمغرب في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

• 1969- نال وسام الكفاءة الفكرية الكبرى [من الدرجة الممتازة] من جلالة الملك الحسن الثاني.

• 1969- ترأس وفد الحج المغربي الرسمي (للمرة الثانية في سابقة لم تتكرر).

• 1970- اختير للمشاركة في تأليف كتاب تاريخ الأدب العربي لجامعة كمبردج بإنجلترا إلى جانب جماعة من أساتذة هذه الجامعة.

• 1974- عين عضوا بالمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

• 1975- عين عضوا في لجنة تحرير (الموسوعة العربية للقرن العشرين) ببيروت.

• 1981- عين عضوا عاملا في أكاديمية المملكة المغربية.

• 1981- عين رئيسا للمجلس العلمي الإقليمي بطنجة.

• 1981- عين عضوا بالمجلس العلمي الأعلى الذي يرأسه جلالة الملك الحسن الثاني.

• 1983-عين عضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية "مؤسسة آل البيت بعمان- الأردن" ([21]).

وبالإضافَة إلى هذا كُلِّه "شارك في تأسيس الجمعية الوطنية الأولى بقيادة محمد عبد الكريم

---

[20] - د. محمود حافظ "مجمع اللغة العربية.. موجز عن تاريخه وإنجازاته" ص58

[21] - ينظر مجلة دعوة الحق، على موقع: www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item .

الخطابي، عُيِّن ... سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة [1963م] عضوا في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، واختير أيضا عضوا بالمجمع العلمي العراقي، وشارك في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، أسندت إليه رئاسة صحيفة الميثاق لسان رابطة العلماء"([22]).

كما أنَّه قال عن نفسه "اشتغلت أيضا ... عضوا في لجنة الأبحاث العلمية المشتركة بالرباط" ([23]).

هذا وقد "أسهم في تأسيس كتلة العمل الوطني التي انبثقت منها الأحزاب السياسية" ([24]).

وفي الجانب الاجتماعي كان الأستاذ رئيسًا لجمعية مكافحة داء السل بطنجة (1946)، ومديرًا لمجلة لسان الدين بتطوان [والتي أنشأَها مع صديقه الحميم المثالي,محمد تقي الدِّين الهلالي] (1945م)، ومجلة الإحياء (1980م)، ورئيسًا لتحرير مجلة الأنوار، كما كان من مؤسسي الجمعية الوطنية لحركة تحرير المغرب، ورئيسًا لفرع كتلة العمل الوطني بطنجة.

و قد "حصل على وسام العرش من درجة - ضابط - المغرب (1963)، ووسام الحمالة الكبرى للجمهورية التونسية (1969)، ووسام رئيس الجمهورية بمصر للعلوم والفنون من الدرجة الأولى" ([25]).

وفي الخامس من شهر ذي الحجة 1409للهجرة والذي يوافق 9 يوليو1989م, قضى الأستاذ نحبه, وانتقل إلى الرَّفيق الاعلى ([26]), "وكان قد قرر قبل ذلك بخمس سنوات إهداء مكتبته الزاخرة بالآلاف من الكتب النادرة والقيمة إلى مدينة طنجة" ([27]).

أخلاقه:

فلقد "جمع بين خصال الشُّيوخ من سعَة العلم والأدب, وكمال العقل والمروءة, وبعد النَّظر, وسداد الرَّأي والحلم والوقار, إلى خلال الشَّباب من النَّشاط والحزم, وفكاهَةِ الحديث,

---

22 - أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي "موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية" نشر المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش – المغرب, ط 1, بدون, (ج10/ ص160).

23- عبد الله كنُّون "ترجمة حياتي" مقالة صغيرة منشورة في موقع المحجة: *www.mahaja.com*

24- محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف "تَكمِلَة مُعجم المُؤلفين" وَفيات (1397- 1415هـ) = (1977-1995م) نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان, ط 1, سنة: 1418 هـ - 1997م, ص 341.

25- موقع المجلس العلمي لعمالة طنجة، *majlisilmi-tanger.ma* .

26 يُنظر محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف "تَكمِلَة مُعجم المُؤلفين" وَفيات (1397- 1415هـ) = (1977-1995م) نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان, ط 1, سنة: 1418 هـ - 1997م, ص 341.

27- ينظر منتديات واتا الحضارية.

وحُسن المحاضرة, وطرافَة النُّكتة, مع صحَّة العقيدَة والكرم والشَّهامة الوطَنِيَّة الموزونة بميزان الشرع" ([28]).

ولئن كان صحيحا إلى حدٍّ ما القول أنَّ أدباء المغرب وعلماءه وأكادميُّوه برعوا أكثر من البلدان المجاورة لأنَّ النَّشاط الحزبي عندهم مغلق فلا تجد الباحث منهم متطلعا إلى رئاسات, ولا مادًّا عينيه إلى قيادات, إلاَّ ما جاء من خلال جهوده البحثِيَّة, وآثاره العلمِيَّة, من تكريمات وترقيات خارجةٍ عن نطاق السِيَاسَة وما إليها, بخلاف أقرانهم في الدُّول التي فتح فيها المجال الحزبي والتعدُّدِيَة السِياسة, وشرعت سُبُل المعارضَة والمناقَضَة للحكم وأدواته, ورجاله وأساليبه, فإنَّ بريق الكرسي يأخذ الأديب والعالم من تلابيبه, حتَّى تجده يجهر بالخطابات في الشَّوارع, ويطمحُ بالانتخابات إلى الوظائف والمنافع, ويلجأُ إلى المناورات كسبا للمادّة كي يضع يده على ما بقيَ لها من منابع, حتَّى إذا جئت إلى ما في يده من قلم, وما في جعبته من علمٍ لم تجد إلاَّ ما كان حبَّره قديما قبل أن يروم الطُفُوَّ على السَّطح وركوب الموج, واعتلاء المناصب, ومغالبة الحزبيين على الأصوات والمكاسب, ثُمَّ إذا قُدِّرَ له أن يستوزر في وزارة مناسبةٍ لتخصُّصه, يجدُ أنَّ النزاهة ذهبت عنه لجشعه وميوعته وتلصُّصِه, وأنَّ النجابَة قضت عليها مضيعةُ الأوقات فإذا به يستمعُ إلى نقصِه, وهو يُخبره بنَصِّه وفَصِّه أنَّه لا أهليَة له كاملة, ولا مكنةً ماثلَة ولا اقتدار, بالإضافَة إلى مراعاته رضا المسئولين ممَّن أنعموا عليه بالاستوزار, مراعاةً مطلقَة في الغالب حتَّى لكأنَّهم وظَّفوه ووضعوه في ذلك المكان (ولا نقول في تلك المكانة بل هي المهانَة!) دونَ الأقدار!!

أمَّا الأستاذ كنُّون فقد كان بمنزلة الاستثناء الذي يؤكِّدُ القاعدة, فهو رُغم إسناد وزارة العدل إليه, لم يصبه العمى ولم ينلهُ التِّيه, ولا رام بوظائفه الكثيرة أن يجمع الثَّروة بين يديه على حساب العلم والحقيقة والأخلاق, بل ظَلَّ قانعا عفيفا, ساطعا شريفا, وفيًّا لمبادئه غنِيًّا بعلمه سالكا ما يراه لا ما يمليه عليه هواه ولا هوى الحاكمين, فتجده قد استقال وتلك دلالة المبدأ والشُّموخ, وثبت على ما قال وتلك علامَةُ الرُّسوخ, ودأبَ يُفدي ولا يستجدي, ويُعلِم ولا يُجمجم, ولم يجعل من نفسِه دميَةً تُحَرَّكُ وتَلبَسُ القناع, وسلعةً تُشترى وتُباع, فتصير أهون

---

[28]- أنور الجندي "الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا" الدَّار القومِيَة, ط./1965م, ص238 .

من سقط المتاع الرَّخيس.

قُل ذلك في الآراء والمشورات, وفي الأفكار والقناعات, وفي المذاهب والتَّوجُّهات.

وكأنَّما كان يعني نفسَه في قصيدَته "عربِيٌّ حُر", حينَ قال [الرَّمل]:

عَدِّ عن تنمِيـــقِ ألفـــاظٍ لـه ** لستَ تلقى منه ضعفا أو ليانا.

لا تُســاوِمْهُ على إخلاصِــه ** إنَّـــهُ لله بالإخـــــلاصِ دانــا.

فلقد كان يمتازُ "بسمت العلماء, وطابع المصلحين, وأنتَ حينَ تلقاهُ تُحِسُ كأنَّما قد انفَتَل من الصَّلاة سماحَةً وإشراقا" ([29]).

فقد عاشَ حامدا مولاه الأجل فيما أتى وما كان يذر, مسخِّرا قلمه في كلِّ مسألَةٍ تحتاجُ إلى فهمٍ وعلمٍ ونظر, رانيا بعينيه إلى المنعم قبل النعمة, نظر الكريم إلى المطعم قبل اللُّقمة, فالمنة دائما لله الوهَّاب القادر, فمثَّلَ بحقٍّ قول الشَّاعر:

وما عملت يدي عندي ** تطيشُ بوزنها الأصفَر! ([30]).

وما يوما أصِل قصدي ** ولـكــن رَبُّـنـــا قــدَّر ([31]).

وها هو الأستاذ نفسُه يقول بعدَ ذكره بعض أعماله:

"وقمت بأعمال أخرى اجتماعية وأدبية، وأصدرت مجلة دينية شهرية هي مجلة "لسان الدين" ([32]).

وبذلك كانَ خلاصَة أفكارٌ واستشرافات, وعصارَة خواطر وأمنيات, وثمَرَة كتب ومؤلفات, ومجموع أعمالٍ وإبداعات.

تآليفُه:

يقول الأستاذ كنُّون في ترجمته المختصرة لنفسه "أما تآليفي المطبوعة فقد تنوعت ما بين الفقه والفكر والأدب والسياسة والتاريخ" ([33]).

وقد كتب في مجالات أخرى متنوعة كالتفسير والنَّقد والفلسفة, والتي تجمعها الأقطاب الثَّلاثَة: الفكر والأدب والثَّقافَة.

---

[29]- أنور الجندي "الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا" الدَّار القومِيَة, ط./1965م, ص238 .

[30]- أشَرب الشَّاعر هاهنا الصفرة معنى الصِّفر والعدَمِيَّة على جهة التَّضمين.

[31] - عيسات قدور سعد "أعولي يا جراح" ديوان شعري, مخطوط, ص 33.

[32]- عبد الله كنُّون "ترجمة حياتي" مقالة منشورة في موقع المحجة: *www.mahaja.com*

[33] المرجع نفسه.

إنَّ تآليفه المنشورة ربت على الخمسين مؤلَّفا من أَهمِّها:

"أحاديث عن الأدب المغربي الحديث [محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدِّراسات الأدبيَّة واللُّغويَّة بمعهد الدِّراسات العربيَّة العالية, التَّابع لجامعة الدُّوَل العربيَّة ([34])], - ط 2 - الدار البيضاء: دار الثقافة، 1398 هـ، 206 ص. ثم ط 3، 1402 هـ، ثم ط 4, 1405 هـ.

- الإسلام أهدى - ط 2 - الدار البيضاء: دار الثقافة، 1405 هـ، 135 ص.

- إيقاعات الهموم: ديوان شعر - د. م. د. ن. 1390 هـ، 128 ص.

- التعاشيب - ط 2 - بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1395 هـ، 158 ص.

- تفسير سور المفصل من القرآن الكريم - الدار البيضاء: دار الثقافة, 1401 هـ، 429 ص (معه تفسير سورة الفاتحة).

- التيسير في صناعة التفسير/للإشبيلي (تحقيق).

- جولات في الفكر الإسلامي - تطوان: مطبعة الشويخ، 1400 هـ، 154 ص.

- الرد القرآني على كتيب "هل يمكن الاعتقاد بالقرآن؟ " - مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، 1401 هـ، 137 ص (والكتاب المذكور من تأليف م. ر. رحماتوف).

بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1402 هـ، 167 ص.

- شرح الشمقمقية - ط 5 - بيروت: دار الكتاب اللبناني؛ القاهرة: دار الكتاب المصري.

- شرح مقصورة المكودي [وهو عبد الرحمن بن علي ت 807 هـ]- القاهرة: المكتبة التجارية، 1356 هـ، 92 ص.

- عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب/محمد بن موسى الحازمي الهمداني (ت 584 هـ) (تحقيق وتعليق وفهرسة) - القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1384 هـ، 155 ص.

- ط 2 - القاهرة: مجمع اللغة العربية 1393 هـ، 157 ص.

- على درب الإسلام - ط 2 - الدار البيضاء: دار الثقافة، 1403 هـ، 173 ص.

- فضيحة المبشرين في احتجاجهم بالقرآن المبين - تطوان: المطبعة المهدية، 1365 هـ.

---

[34]- 34- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح" نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث, الرباط, المغرب, ط 1, سنة: 1434هـ-2013م, ص159 حتَّى 160.

- القاضي عياض بين العلم والأدب - الرياض: دار الرفاعي، 1403 هـ، 64 ص - (المكتبة الصغيرة؛ 42).

- القدوة السامية للناشئة الإسلامية.

- لقمان الحكيم - القاهرة: دار المعارف، 1389 هـ، 83 ص.

- محاذي الزقاقية (في التشريع الإسلامي بالمغرب).

- مدخل إلى تاريخ المغرب - ط 3، منقحة ومزيدة - تطوان: مكتبة الطالب، 1378 هـ، 147 ص.

- معارك - تطوان: مطبعة ديسبريس، - 139 هـ، 292 ص.

- مفاهيم إسلامية - الدار البيضاء: دار الثقافة، 1405 هـ، 151 ص.

- ملتقى ابن منظور الإفريقي: دراسات الملتقى الثاني 1392 هـ في اللغة والأدب والتاريخ (مع آخرين) - تونس: دار المغرب العربي.

- المنتخب من شعر ابن زاكور [وهو محمد بن قاسم ت 1120 هـ]- القاهرة: دار المعارف، 1386 هـ 146 ص - (ذخائر العرب؛ 39).

- منطلقات إسلامية - طنجة. مطبعة سوريا، - 139 هـ، 188 ص.

- النبوغ المغربي في الأدب العربي - ط 3، مزيدة ومنقحة - بيروت: مكتبة المدرسة: دار الكتاب اللبناني، 1395 هـ" ([35]).

- "أزهار بريَّة (مقالات في الأدب والنَقد), مطبعة ديسبريس بتطوان سنة 1971م, في (196ص).

- إسلامٌ رائد (مقالات في الدعوة), الطبعة الأولى بمطبعة كريماديس, بتطوان سنة 1971م, والطبعة الثانية بالمطبعة الملكية بالرباط سنة1978م، [111ص].

- أشداء وأنداء (مقالات في الأدب والنَّقد), مطبعة البوغاز بطنجة سنة 1986م, في (202ص).

35- محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف "تَكملَة مُعجم المُؤلفين" وَفيات (1397- 1415هـ) = (1977-1995م) نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان, ط 1, سنة: 1418 هـ - 1997م, ص 341-342 -343 .

- أمراؤنا الشعراء (منتخبات من عهد الأدارسَة إلى العلويِّين), المطبعة المهدِيَة بتطوان سنة 1361هـ/1941م.

- تفسير سورة يسن, مطبعة لويس- الشركة الجديدة بالدَّار البيضاء, سنة 1401هـ/1981م.

- أنجُم السِّياسَة وقصائد أخرى, (دراسات أدبيَّة عن نماذِجَ مِن الشِّعر المغربي النَّادر), مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة1401هـ/ 1989م.

- حارس الكنيسة, منشور ضمن مجموع مقالاته "أشداء وأنداء" (ص118).

- حب الرسول صلى الله عليه وسلَّم للنِّساء, مطبوعات الجمعيَّة المغربيَّة للتَّضامُن الإسلامي, مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة 1988م.

- حول وقعة وادي المخازن.

- خلٌّ وبقل (دراسات أدبيَّة ونقدِيَة), المطبعة المهدية بتطوان, في (279ص).

- دينُ الرحمة.

- ذكريات مشاهير رجال المغرب [سلسلة ترجم فيها كُنون لشخصيات مغربية من ميادين الأدب والسياسة والعلم؛ صدر منها الجزء الأول عن معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان سنة 1949، وصدر جزؤها الثاني عن دار الكتاب اللبناني ببيروت سنة 1974م].

- شرح الشمقمقية لابن الونان, الطبعة الأولى مطبعة مصطفى محمد – المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة, سنة 1454هـ/ 1934م, ... والطبعة الخامسة بدار الكتاب اللبناني ببيروت سمة 1979م.

- شؤون إسلامية , دار الطباعة الحديثة بالدار البيضاء, سنة 1979م.

- العصف والرَّيحان (مقالات في الأدب والنَّقد) مطبعة كريماديس بتطوان سنة 1969م.

- مدخل إلى تاريخ المغرب (كتاب مدرسي),الطبعة الاولى عن مطبعة الوحدة المغربيَّة, بتطوان سنة 1363هـ/1944م, والطبعة الثَّانية عن مطبعة كريماديس بتطوان سنة 1378هـ/ 1958م.

- مذكَّرات غير شخصِيَة (عرض تاريخي واجتماعي وسياسي لما مَرَّ به المؤلِّف أو شارك فيه من أحداثٍ ومواقف).

- معسكر الإيمان يتحَدَّى (مقالات) مطابع البوغاز بطنجة سنة 1989م.
- من أدَبِنا الشَّعبي.
- مورد الشَّاعرين.
- نوادر وملح أدبيَّة (كتبه سنة 1359هـ/1940م).
- واحة الفكر (إبداعٌ ونقد), منشورات معهد مولاي الحسن للأبحاث, الطبعة المهدية بتطوان, سنة 1948م" ([36]).

وننبِّهُ إلى أنَّ كتُبه حتَّى ما كان من غير الأدب منها, قد اختار لها عناوين شاعريَّة, وهذا يُذكِّرُنا بمحمد الهادي الحسني الجزائري حين جمع مقالاته في جريدة الشُّروق في كتاب جعل اسمه في أوَّلِ الأمر "أحاديث الشُّروق" لكنَّ أحد أصحاب القلوب الرقيقة, والألفاظ الرشيقة, أشار عليها بأن يغيِّر عنوانه إلى "أشِعَّة الشُّروق", والقارئ يدرك ولو بذوقه العام فرق ما بين العنوانين, وأنَّ بينهما البون الشَّاسع, كالبون بين الغادة الحسناء والعجوز الشَّمطاء, وبين الحدائق الباسقة والصَّحاري الحارقة, هذا بغظِّ النَّظر عن المحتوى, وإنَّما الكلام في مجَرَّد العنوان,وما يستحسن أن يكون عليه من اسمٍ جذَّاب, ولقب خلاَّب, وهو الأمر الذي راعاه الأستاذ كنُّون في غير ما مؤلَّفٍ وغير ما كتاب على وجه العموم.

وإنتاجُهُ كما ترى يتوزع إنتاجه بين الكتابة الشعرية، القصصية، الدبية والكتابة التاريخية, فهو لم يكن كشأن من لهم في حياتهم فترات, فيمُرُّونَ بفترة التَّثقيف, ثُمَّ فترة التوظيف, ثُمَّ فترة التَّأليف؛ كلاَّ, لم يَمُرَّ كما مَرَّ غيرُه هكذا أبداً؛ بل كانت حياته كُلُّها مرتبطةً بالقراءة والقلم, فقد كتب الشِّعر وهو لم يبلُغ الحُلُم, وزاول الكتابة إلى أن أخرج للنَّاس كتابه "النبوغ" الذي لم يُنسَج على منوالٍ سابق, وكان حدثا خطيرا جليلا في تاريخ المغرب, وهو بعدُ لم يُكمِل العِقدَ الثَّالثَ مِن عُمره, ولم يزل كذلك تأليفا وتصنيفا, وتحقيقا للكُتُب التّراثيّة, والمقاومة بالكلمة؛ إلى أن حضَرَهُ الأجل, وأُسدِلَ السِّتار على حياةٍ حافلة بالعلمِ والعمَل.

36- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح" نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث, الرباط, المغرب, ط 1, سنة: 1434هـ-2013م, ص159 حتَّى 170.

شُهرته:

لقد كتب الأستاذ أنور الجندي عن تسع وثلاثين شخصِيَّة فكريَّة وأدبيَّة من بلدان شتَّى بدءا من العراق إلى المغرب, فذكر منهم العلاَّمة عبد الله كنُّون, على أنَّه علمٌ من الأعلام, ومعلمةٌ من المعالم, ونَبَّه قائلا:

"ولا بأس أن نشير هنا إلى أن "موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر" التي صدر منها حتى الآن 18 مجلدا قد استطاعت أن تجري مسحا شاملا قريبا من الكمال للأدب العربي في العالم العربي منذ أوائل الحرب العالمية الثانية، وإنَّ هذه الدراسة التي بين يدي القارئ اليوم هي أول عمل فيما بعد الموسوعة" ([37]).

فرغم أنَّ كتابه ليس موسوعة بل ميدان انتقاء إلاَّ أنَّ اختياره الذَّكي لم يسمح له بنسيان الأستاذ أو بتجاوزه و إغفاله, فقامته العلميَّة السَّامقة وأشجاره الأدبيَّة الباسقَة تتراءى للنَّاظر من بعيد.

فالواقع أنَّ الأستاذ كان كبيرا في علمه وكبيرا في أخلاقه, حتَّى اكتست شُهرتُه بالكبر, وصار إذا جال في مختلف بلاد الدُّنيا يقابلُ بالحفاوة والتَّرحيب, ومِمَّا كتبه من الأدب الإخواني الدَّاخل في حَيِّز ما يُسَمَّى "الرَّسائل الإخوانِيَّة"([38])؛ رسالتهُ إلى رئيس تحرير مجلَّة البحوث الإسلامِيَّة عثمان الصالح ردًّا على رسالته التي حَيَّا فيها وفد علماء المغرب الذي زاد المملكة العربيَّة السَّعودِيَّة؛ فقالَ له:

لقد "تأثرت بالغ التأثر بما تضمنته من المشاعر النبيلة نحو إخوانكم وبلدكم الثاني، وقدرت هذا الاهتمام الذي جعلكم تتبعون خطواتنا وتعيشون بفكركم معنا أينما توجهنا، ولا غرو فالأديب يحن إلى الأديب، كما تحن النيب ([39]) إلى النيب" ([40]).

---

[37] - أنور الجُندي « مفكرون وأدباء من خلال آثارهم » دار الإرشاد ، ط1, بدون، ص8.

[38] يُنظر أبو القاسم سعد الله "تجارب في الأدب والرحلة" عالم المعرفة, باب الزوار, الجزائر, ط3, 1430هـ/ 2009م, ص103.

[39] - أخذا من المثل "لا أفعل ذلك ما حنَّتِ النِّيبُ" , وهي جمع ناب, وتعني النَّاقَة المُسِنَّة, ينظر, ابن منظور, محمد بن مكرم الإفريقي المصري "لسان العرب" دار صادر, بيروت, ط1, بدون, مادَّة (نيب), ج1/ص776-777 .

[40] - "مجلة البحوث الإسلامية" نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – الرياض, السَّعوديَّة, بدون, (362/4).

فمجال ذكر الأستاذ على الألسنة واشتهاره بالفكر والأدب ليس قليلا, بحيث لم يقتصر ذكره عند من كتبوا الموسوعات, بل حتَّى عند من انتقوا واختاروا, وأوقدوا فأناروا.

وهذا ما شهد به البحاثة محمد المنوني حين قال: "يتبوَّأ الأستاذ المرحوم عبد الله كنُّون بين جيله درجةً مرموقة كوجهٍ بارز من وجوه المغرب, وعالم باحث مقتدر, وأديبٌ ناقد موهوب, وقد ساهم بأوضاعه التَّأليفيَّة في شتَّى المجلات المعرفيَّة, مِمَّا خلَّفَ له صيتا بالمغرب وذكرا طيِّبا ببلاد العروبَة, فضلا عن تمثيله لهدي الإسلام في سلوكه وغيرته وتعامله, صفاتٍ جعلت منه العالم الملتزم, والمؤرِّخ الباحث, والأديب النَّاقد" ([41]).

ثُمَّ إنَّ آل كنون بصفَةٍ عامَّة عوائل مشتهرة بالعلم والفقه والأدب منذ زمن بعيد, فمن بين أفرادها رجالٌ كثيرون كانوا علماء وشعراء وأدباء ذوي جدارة, وأهل سياسَة وكياسَة وإمارَة ([42]), مِمَّا جعلَ بيوتاتهم زاخِرَةً بشخصيَّاتٍ متعددة أسهمت في إنارة سُبُل المعرفة في مختلف ميادينها.

وهم كما قال الشَّاعر الجزائري الطاهر العبيدي في آل باديس مادحا الحفيد عبد الحميد مؤسِّس الجمعِيَّة :

فحاصلُكم إمَّــا مليــكٌ مظَفَّرٌ ** يهُزُّ لــواءَ العــدلِ يبسُطُهُ نَشـــرا.

وإمَّا عليمٌ يبعثُ الناسَ علمُه ** يحوطُ مشيدَ الدِّينِ مِن شُبَهٍ تطرا ([43]).

من العائلة الكنونيَّة:

- محمد بن المدني بن علي بن عبد الله كنون (ت1302هـ) الذي نُعت بمجدد المائة الثالثة عشرة.

---

[41]- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح" نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث, الرباط, المغرب, ط 1, سنة: 1434هـ-2013م, ص39.

[42] - كعبد كنون أبو بكر بن شبرين محمد الغرناطي (697 - 760 هـ) , قال رضا كحَّالة "أديب، ناظم، نحوي.ولد بسبتة .. حكم، ودرس، وتوفي بغرناطة" يُنظَرُ "معجم المؤلِّفين"مكتبة المثنى - بيروت دار إحياء التراث العربي بيروت(317/8)

[43] أبو القاسم سعد الله "تجارب في الأدب والرحلة" عالم المعرفة, باب الزوار, الجزائر, ط3, 1430هـ/ 2009م, ص104.

- محمد (فتحا) بن محمد بن عبد السَّلام كنون (ت1326هـ) اشتُهِرَ بـ"كُنَيْوِنْ" بالتَّصغير,تخَرَّجت عليه أجيال, وكان من أركان النَّهضَة العلمية في عصره.
محمد بن التُّهامي بن المدني كنُّون (ت1333هـ)وهوعمَّ الأستاذعبد الله كنُّون المباشر وله تآليف مفيدة.
- عبد الصَّمد بنمحمد التهامي بن المدني كنُّون (ت1352هـ) والد الأستاذ عبد الله كنُّون وشيخُه في العلم,كان علامَةً مشاركا في العديد من العلوم والفنون,مولعا بالتدريس والبحث والتقييد والتَّأليف.
- محمد بن عبد الصَّمد كنُّون شقيق عبد الله كنون وهوعلامة شاعر أديب, توفي في أوائل سنة 1410هـ موافق 12 يوليوز 1990م.
- عبد الحفيظ بن عبد الصَّمد كنُّون شقيق آخر لعبد الله كنون (ت10 ذي القعدة 1416هـ/ موافق فاتح أبريل1996م) عالم عامل وفقيه ناسك قضى معظمحياته في التدريس وكان خطيبا تضايق من خطبه الاستعمار وعزله فانكبَّ على التدريس والتَّأليف.
ثُمَّ بين هؤلاء جميعا كان الأستاذ عبد الله كنُّون بحقٍّ جوهرَة العقد ([44]).

تأثُّراته:

وأمَّا الشَّخصيَّات التي أثَّرت فيه فهي لا تحصى على العد, ولا تُستقصى بحد, لأنَّه كان

معتنيا بالأعلام من نشأته, وبالأفذاذ البارزين في وقت مبكِّرٍ من حياته, فقد عايشهم أمام عينيه, وفي بطون الكتب التي بين يديه, حتَّى أنَّه كان فريدا في باب الكتابة عنهم والترجمة لهم وذكر مآثرهم وآثارهم, وحسبُنا دليلا على ذلك أن نذكر كتابه "مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسِّياسَة", والذي ذكر فيه منتقيا من له وزن في نفسه, وثقل عندَه, فاختاره ليذكره في ثيايا كتابه, واستضافه ليقيمَ بين صفحاته حجابه, ولا تسأل عن الشخصيات التي طواها مؤلَّفه النبوغ المغربي فهي كثيرة عديدة, فقد كتب عن الكثير , والجمَّاء الغفير, منهم أبو بكر بن شبرين محمد الغرناطي, وابن الطيب العلمي, وابن غازي, والشريف الادريسي, وابن رشيد, وابن الحاج الفاسي, وابن تومرت, وابن الخطيب

44- يُنظر, د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح" نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياءالتراث, الرباط, المغرب, ط 1, سنة: 1434هـ-2013م, ص23 إلى 32, فمنه استفدت ذكري لبعض أعلام أسرة آل كنون العلميَّة.

الذي حبَّرَ عنه فصلَةً من مجلَّة البحث العلمي التي يُصدرُها المركز الجامعي للبحث العلمي بالرِّباط, في العدد الثَّاني, السَّنة الأولى (1384هـ/1964م), جعلها بعنوان يدُلُّ على ضخامة تلك الشَّخصية في نظره, وعظَمِها في مخَيِّلَته, وهو"لسان الدِّين ابن الخطيب الكاتب السَّاحر", وخلِّ عنك بعدُ, العشرات والمئات ما بين أديب وفقيه وناقد وفيلسوف, وشاعر وملك, وعالم وسيَّاسي, ومجاهدٍ ومفكر, ومثَقَّفٍ ومؤرِّخ, وعصاميٍّ وجامعي.

فقد كتب عن أدباء وعلماء كتَيِّبات منها:

- "أبو البقاء الرُّندي وكتابه الوافي في نظم القوافي" فضلَة من صحيفَة معهد الدِّراسات الإسلامِيَة في مدريد,المجلد السَّادس (1378هـ/1958م).

- "ابن البنَّاء المرَّاكشي" مطبعة فضالة, الطبعة الأولى 2005م.

ونحنُ إذا كنَّا لا نستطيع تبَيُّن من كان أشدَّها تأثيرا فيه ولا يمكننا ذكر الدَّرجات والمراتب في ذلك تفصيلا, إلاَّ أنَّنا لا نشكَّ أن تأثيرها عليه وإعجابه هو بها, ونسجُه على منوالها بصفَةٍ عامَّة كان بالغا كبيرا.

ولا يفوتنا أنَّ من "شيوخه الذين تأثر بهم أبو شعيب الدكالي"([45]), فقد بلغ من نفسه مبلغا عظيما.

فهو كأيٍّ أحد لا بُدَّ أن يتعلَّم على غيره, وما دام التَّأَثُّر تابعٌ للعلم فلا جرم أن يتأَثَّر بمن علَّمه, وبمن وضع في كيانه بصمات, وأسهم في تكوينه العقلي ولو بأقَلِّ المكوِّنات, شريطة أن يكون الأستاذ قد هوِيَ ذلك العالم أو الأديب فأحَبَّه, وأدناه من جنبِ فؤادِه وقرَّبَه, وجعله في المنزلة اللاَّئقَة من عواطفه الطَّيِّبَة.

ثناء الأدباء والعلماء عليه:

45- أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي "موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية" نشر المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش – المغرب, ط 1, بدون, (ج10/ ص160).

ربَّما يكون الأستاذ كنُّون من الشخصيات التي لا يفي ثناء الناس عليها بحقِّها توضيحا وتصويرا, بخلاف من يكونُ الثَّناءُ عليه أكبر منه, حتَّى لكأنَّ المثنون يُلبسونَه بالمدح ثيابا يتعثَّرُ فيه لطولها عنه, ثُمَّ هو فرحٌ بها نشوان وإن كان يُجرجرها على الأرض تجريرا !, ذلك هو الذي الثَّناء عليه غطًّى, فكيفَ إذا زاد من عنده رُغم زيادة الناس فيه فتشَبَّع بما لم يُعطى.

يقول محمد تقي الدين الهلالي العلاَّمة الأديب الذي كان محمد رشيد رضا وشكيب أرسلان يحتكمان إليه في مسائل اللغة إذا اختلفا على كلمة: "تم نقل عملي من جامعة بغداد إلى جامعة الرباط، والفضل في ذلك لله وحده ثم لنابغة المغرب العالم الأديب المتفنن ذي التآليف المفيدة والفضائل العديدة السيد عبد الله كنون أطال الله بقاءه وأدام في المعالي ارتقاءه" ([46]). ويذكر واصفا الأستاذ كنُّون بالعبقريَّة قائلا:

"وضعت حاشية على كتاب كشف الشبهات لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وطبعتها ونشرتها، ..... أما العلماء المحققون، كالأستاذ محمد الطنجي والأستاذ المجاهد عبد السلام المرابط والأستاذ العبقري عبد الله كنون فإنهم رحبوا بطبع هذا الكتاب وأثنوا عليه وعلى مؤلفه وناشره" ([47]).

لقد أثنى عليه الكثيرون وحسبنا في هذه العجالة أنَّ "نشير إلى تهافت كتَّاب المغرب وأدبائه وعلمائه على المشاركة في تكريمه والحديث عنه في الصحف والمجلاَّت" ([48]).

الدِّراسات التي صدرت عن الأستاذ كنُّون:

1 - أحمد الشايب: الدراسة الأدبية في المغرب ، عبدالله كنون نموذجًا - مطبعة اسبارتيل - طنجة 1991 .

2 - عبدالله كنون بين التكريم والتأبين - منشورات جمعية مكتبة عبدالله كنون - المطابع المغربية والدولية - طنجة 1991 .

46- د. محمد تقي الدين الهلالي "الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة" مكتبة الصَّحابة, الإمارات- الشَّارقة, ومكتبة التَّابعين,القاهرة- عين شمس, ط 1, سنة 1424هـ/2003م, ص267 .

47- د. محمد تقي الدين الهلالي "الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة" مكتبة الصَّحابة, الإمارات- الشَّارقة, ومكتبة التَّابعين, القاهرة- عين شمس, ط 1, سنة 1424هـ/2003م, ص57 .

48- د. إبراهيم بن أحمد الوافي، "عبد الله كنُّون العالم المصلح"، ص39-40 .

3 - عبدالله كنون شخصه وفكره وأعماله (أعمال ندوة بطنجة 1992) - منشورات وزارة الثقافة - الرباط 1994 .

مراجع للاستزادة:

- مجموعة كتاب: عبدالله كنون - سلسلة أعلام المغرب - مطبعة إيديال - مؤسسة أونا - المغرب 1997 .

- عبد الله كنون: سبعون عاماً من الجهاد المتواصل/عدنان الخطيب - دمشق: مجمع اللغة العربية، 1412 هـ.

- عبد الله كنون وموقعة في الفكر الإسلامي السياسي الحديث/عبد القادر الإدريسي - القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي" ([49]).

هذا وقد كتب الأستاذ الدُّكتور مصطفى بن عبد الرحمن الشليح, شاعر وناقد وأديب مغربي؛ كتابا بالاشتراك في باب النَّقد المغربي الحديث عن الأستاذ سمَّاه: "عبد الله كنون: شخصه وفكره".

من هنا تعددت مصادر ترجمته، فكانت للأستاذ تراجم كثيرة, منها جمة طويلة في كتاب شخصيات إسلامية معاصرة ص 287 – 318 , وأخرى في كتاب "شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث" 7/ 57 - 83، وأعلام القرن الرابع عشر الهجري 1/ 105 - 112، التراث المجمعي ص 191.

موسوعة أعلام المغرب العربي: تنسيق وتحقيق محمد حجِّي, دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1417:1هـ/1996م، ج7، ص:2501.

وأمَّا ما كتب عنه من مقالات فعدد لا يحصى منها:

ـ عبد الله كنون الباحث الأدبي مقالة لـ : محمد القاضي .

ـ علامة المغرب عبد الله كنون " مقالة بقلم : المستشار عبد الله العقيل .

ـ عبد الله كنون من خلال نبوغه " مقالة لـ : محمد دافر .

49- محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف "تَكملَة مُعجم المُؤلفين" وَفيات (1397- 1415هـ) = (1977- 1995م) نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان, ط 1, سنة: 1418 هـ - 1997م, ص 341.

ـ مفهوم التجريد عند العلامة عبد الله كنون " مقالة (1 و 2 مكونة من حلقتين) لـ: المصطفى المهنى.

ـ نشأة النقد الأدبي الحديث في المغرب " مقالة للدكتور عبد الواحد المرابط .

فكثيرون هم الذين كتبوا عن الأستاذ كنُّون, مثنين ومادحين, ناقدين موضحين, ونحن على إثرهم نكتب منَبِّهين وناصحين، محاولين استخراج الزّبدة النقدية ونحل المادَّة العلمية، ممَّا خفي أو بدا، والتوفيق -بَعدُ- بيد من خلق فسوَّى وقدَّر فهدى.

ومن جميل التقدير أنَّ الأستاذ عاش في عائلته بين المكاتب سواء في بيته أو عند أعمامه، أو مكان دراسته، أو في مسجده، ممَّا جعله يلمُّ بالكثير من المصنَّفات ويأتي عليها بحسب ما أمكنه جهدُه القرائي.

لأجل هذا؛ فإنَّ المصادر المعرفيَّة، والمدوَّنات النقدية التي تأثر بها, والتي أسهمت في تكوين فكره, وتطوير نظره، وصقل مواهبه, قد تنوَّعَت حسب التَّقسيم التاريخي؛ نوعين:

الأوَل - قديمة: وهي أمَّات الكتب القديمة كالخزانة والأغاني وكتب التذكرات والأمالي, ودواوين اللغة والشعر جاهليه وإسلاميه, وحتَّى كتب التاريخ, والحديث والتفسير.

فهو في مجَرَّد مجيليد متوسِّط في جزء من التفسير القرآني ذهبَ ينُصُّ على أغلب مصادره فيه قائلا: "وكان اعتمادُنا في الغالب على تفسير ابن جزي, وابن كثير, والجلالين مع الرجوع في بعض الأحيان إلى تفسير الطبري, والقرطبي, وابن عطيَّة, والفخر الرازي, والثَّعالبي, لاستجلاء المعنى وتبيين المراد حينَ يُشكِلُ الأمر, ويجِبُ تقديم الآيَة بما يوافق العقل والنَّقل" ([50]).

ومع ذلك يعتمد على البلاغيين كالزمخشري في كشَّافه, واللغويين كالسيوطي في درِّه المنثور, والثعلبي وآخرين, متنقلا في قطف رياحينه بين القدماء والمتأخرين, والمحدَثين والمعاصرين كمحمد عبده وعبد القادر المغربي وفريد وجدي, وقائما بالتجوال واختيار الأقوال واقتناص الفوائد والأمثال من متعددي التخصُّصات كالرَّازي, والمركزين على التخصص الواحد كالقرطبي فقهيا, والثعالبي أدبيًّا, والبغوي والصَّاوي والبضاوي.

[50] ـ عبد الله كنون "تفسير سور المفصَّل" ص7.

وأمَّا إذا أنت اطَّلَعت على مصادره في كتابه النبوغ المغربي لرأيت العجب العجاب, لاسيَّما إذا علمت أنَّ ما عرضه قد اختاره من كمٍّ هائلٍ من المراجع والمدوَّنات, وبخاصَة إذا عرفت أنَّ ذلك شمل كافة الحقول الأدبيَّة وأجناسها المتنوِّعة, بحيثُ لو أراد باحث تتبَّعه في مصادره تلك لخرج بكتابٍ على حدةٍ, ذلك أنَّ "النبوغ" هو "خلاصة منخولة، وزبدة ممخوضة، استخلصها صاحبها من مئات الكتب المصنفة، وألوف من الأحاديث التي لقفها من أفواه العلماء الذين أخذ عنهم" ([51]).

كما تنوعت حسب المكان إلى ثلاثَة أنواع, مغربيَّة وكان يحرص على تقديمها وإيلائها عنايته الخاصَّة, والتي نستشِفُ منها أنَّه يرى المصنَّفات الأندلسِيَة مغربيَّة الدمغة لأنَّ المغاربة هم الذين حلُّوا بالأندلس وارتحلوا إليها, فهو مثلا عند ذكر مصادره في تفسيره لسور المفصَّل قدَّم ذكر تفسير ابن جزي لكونه من أهل غرناطة, ولأنَّه ركَّز في تفسيره على التيسير الذي قصده الأستاذ كنُّون؛ حتَّى سمَّى تأليفه "التَّسهيل لعوم التَّنزيل", وهي فائدة تدُلُّنا على مبلغ الرؤيَة المنهجِيَة التي سرت كنفحات المسك, جرت كالدِّماء والهواء في كيان الروح المغربيَّة والأندلسيَّة على السَّواء حيث كانوا يرون قوام العلم والفن على السُّهولة واليسر, وينظرون إلى الحياة نظرة لا عسر فيها ولا تشديد,وهي الخلفيَة الفلسفيَة التي تبدأ بالاتجاه, مرتقيةً إلى المذهب والطريقة, لتستقِرَّ في القوانين والنَّظريات, صابغةً كُلَّ ذلك بصبغتها, لتُلهِمَهُ من روحها, وتطبَعَهُ بخصوصيَّتها.

ثانيا- أمَّا المصادر الحديثة والمعاصرة التي عوَّل عليها فلا يخفى ما ذكرناه منها، متنوعةً بين مشرقيَّة ومغربية.

ثالثا - وأمَّا الأجنبية فكثيرة بيد أنَّها ليست في حجم مصادر لغته وثقافة أمته والعلم برُمَّته، لكنَّ منهجه فيها ظلَّ دوما على ثبات، وهو أنَّه "يأخذ عن الآخر؛ لكنَّه لا يذوبَ في الآخر".

وحسبُ القارئ أن يعرفَ أمرين ليدرك مدى سعة مصادر كنون المعرفيَة ونوعيتها:

---

51 شكيب أرسلان " مقدمة النبوغ المغربي في الأدب العربي" لعبد الله كنون، بدون، ص18

الأوَّل: أنَّ الأستاذ كنُّون كان من الموسوعيين, ومن متعددي التخصُّصات, وذوي المُكنة والاقتدار على البحث في الكثير من العلوم والفنون.

الثَّاني: أنَّ هوى فؤاده يسيح في رحاب الثَّقافة العربيَّة والإسلاميَة, ويسير معها معاضدا ومعتمدا, ويجري في ركابها سامعا ومدافعا عبر تاريخها كله, معطيا إيَّاها زبدة حياته وأعماله, مانحا لها خلاصَة كتابته ونضاله.

لكنَّه لم يتعَصَّب يوما للعروبة بل انتقَد دعاة القومِيَة العربيَّة الذين كان مشروعهم الفكري هذا, يحملُ في طواياه ويُخفي في خلفيَّته وبين ثناياه سياسَةً غربيَّة دعمها أساطين المستشرقين العاملين لفائدة دوائر المخابرات العالمِيَّة, والسَّاعين في توجيه الدول الإمبريالية لإحكام قبضتها وإتمام سيطرتها على العالم العربي والإسلامي عن طريق تفتيته, وتزين النعرات العشائريَّة له وبثِّ العصبيَّات العرقية والقوميَة فيه لتشتيته, ومن ثَمَّ تفعلُ به ما تشاء.

ويومَ أن يتعجب ابن الأحمر في كتابه "نثير فرائد الجمان" من نبوغ أبي العباس أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي نسبة إلى قبيلة أجزناية من إقليم الريف في اللغة العربية والأدب مع أنه بربري الأصل, قال الأستاذ كنُّون:

"وهذا تعجب في غير محله، فالناس لا تتفاضل بالأصول وإنما تتفاضل بالجد والعمل، و ... كم من عجمي الأصل برع في الأدب واللغة والشعر بحيث فاق الكثير من العرب" ([52]).

وأمَّا بحسب لغة هذه المصادر فتنوعت إلى عربيَّة، وفرنسِيَّة، وإسبانِيَة، ومن عادته الحسنة أنَّه ما فتئ يقرأُ كل ما ترجم من ثقافات الأمم الأخرى وآدابها، ممَّا أمكن ليديه أن تصل إليه، وأسعفه الوقت لمطالعته، وهو شيء كثير.

وإذا أردنا تقسيمَ مصادره المعرفيَّة ومرجعيَّاته العلمِيَّة بعظ النَّظر عن تنوُّع حقولها وتعدد فنونها؛ تقسيمات يعتدُّ بشكلها الخارجي, وقالَبِها الذي تمَّ بناء هيكَلِها عليه؛ فإنَّنا نجد أنَّه لم يقتصر في إفادته من الكتب فقط, ومن المصنَّفات والرَّسائل, بل تعدَّاها إلى الصُّحف والمجلاَّت ومنشورات المؤتمرات والهيئات, ومقالات الكُتَّاب, ولذلك خرج إنتاجه في

52- عبد الله كنُّون "ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة" قدم له واعتنى به د. محمد بن عزوز، دار ابن حزم- بيروت، ط 1، 1430هـ/2010م، ج 2/ ص 1121

أشكاله متعدد الأبواب, يحاكي تماما -ولزوما- كُلَّ تلك القوالب المتنوِّعة المساعدَة لحمَلَة الأقلام على إفراغ مشحونهم الفكري فيها بأساليب مختلفة, وطرائق متنوِّعة, تأخذ شكل القالب فتأتي في حلَلٍ بديعة, تتغايَرُ ألوانُها, ولا تتعارض فنونها, بما يضفي على الفكر والإبداع إشراقاتٍ تضيق وتتَّسع فتسمح للقارئ بالإفادَة منها على نحو سهل, بحيث إذا لم يتمكَّن من قراءة كتاب لاسيما إن كان كبيرا, استطاع تحصيل خلاصَته في مقالَةٍ, أو استيعاب عصارته في بحث وجيزٍ ضمنَ مجَلَّة من المجَلاَّت.

هذا فيما يتعلَّق بالمرجعيَّات التي كوَّنت فكره برمَّته, أمَّا ما يتعلَّق بجهوده النَّقدية على وجه الخصوص، فنتناوله في المبحث الموالي.

المبحث الثَّاني: جهودُهُ النَّقدِيَّة:

إنَّ سعة الإطِّلاع الأستاذ وتنوع مشاربه دليل على عمق النَّظر لديه وقوَّة آرائه ونصاعتها, في الوقت الذي تدُلُّ على دقَّة البحث وتنوُّع المعارف والجِدِيَّة في استيعاب المادَّة العلمِيَّة جمعا عند التَّأليف ثُمَّ نظراً فيها ونخلها عند بدء عمليَّة الكتابَة والتَّدوين, وهذا هو الجهد الذي بذله، والمنهج العلمي الصَّحيح الذي التزمه في كافَّة مؤلَّفاته وأبحاثه, والذي تكَلَّم عنه الجادُّون أمثال محمود شاكر ومحمد محمد أبو موسى وأحمد الصَّقر وغيرهم ممَّن يقَدِّرون القلم حقَّ قدره ويعرفون أمانة العلم.

من هنا يأتي السُّؤال الحاسم كيف تعامل الأستاذ مع تلك المصادر والمدوَّنات على كثرتها وتنوع مشاربها, وإلى أيِّ مدى كان محسنا في جهوده التي استوحاها منها ؟

فالأستاذ في الحقيقة من المتقنين للكتابة، وهذا تأليفُه "ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسِّياسَة" الذي كان ينشره على حلقات، ثم جمعه الدكتور محمد بن عزوز في ثلاثة أجزاء متوسطة، فيها من الأدب والتاريخ والمتعة الكثير، قد استلهم فيه ما قرأه في المدوَّنات وساقه بطريقته البديعة, حتَّى إنَّ القارئَ ما إن يبدَأ في مطالعته حتَّى يأتي عليه كاملاً لجودة أسلوبه، وحسن تأليفه.

إنَّ جهدَ الأستاذ في مجرَّد تأليف صغير كتفسيره للمفصَّل على كثرة مراجعه فيه وكونه موضوعا شائكا؛ "ينُمُّ عن خبرَةٍ واسعَةٍ بالتَّأليف, فهو يعرفُ كيفَ يضَع الدهان على النقاب, ويُحكِمُ قبضته على مادَّة مصادره ويوجهها كيف يشاء, دونَ أن يترُكها توجِّهُه, أو تجعلُ منه حائرا في خضَمِّ المادَّة العلميَّة, فهو حكيم يعرفُ كيفَ يستقي مرادَه من المصادر, وكيفَ يوفِّقُ بين تلك الاستفادة والمنهج الذي رسمه لنفسه في تفسيره" ([53]), أو فيما شئت من كتبه وتآليفه.

فهو كثيرا ما كتب مقالات كانت خلاصاتٍ مركَّزة تختصر كتبا برمَّتها, بحيث يفيد منها المطالع والمستمع ما لا يفيده من كتاب مع رصانة العبارة وجودة العرض وحسن الإفهام,

وربح الوقت وسرعة الاستفادة.

---

[53] - إبراهيم الوافي "الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري" مطبعة النجاح الجديدة, الدار البيضاء, المغرب, ط 1, سنة: 1420هـ/1999م, ص 365-366.

ويوما كتب كنُّون في أحد المؤتمرات عن موضوعٍ يستدعي الوفرَة والتطويل, وكثرَة التحليل, فتعجَّبَ الأستاذ محمد رجب البيُّومي من كيفيَّة طرحه, وطريقة تناول الأستاذ كنُّون له بدقة فائقة وإحاطة جامعة, وامتلاء بحثِه بالمعلومات رُغمَ شدَّة اختصاره, ومحدودِيَّة أسطارِه, مع قوَّة إقناعه وكفايته, وحسبُك بالكفاية إن لم تجد سبيلا إلى النهاية, فإنَّها هي الكمال حينئذ.

إنَّ الأستاذ لا يشرَبُ حتَّى يُصفي, وإذا تناول أمرا لا يدعه حتَّى يكفي, ولا ناقصا حتَّى يزيده فيه ويُضفي, ذلك أنَّه متمكِّنٌ مِنَ التَّصَرُّفِ في مراجعه بإتقان آلياته وأدواته وحسن تسييره للأمور, وبراعته في التفكير والتحرير بما يعطيه خبرَةً متدَفِّقَةً تفور, ويعكسُ فيه قوَّة الظُّهور.

وخذ ما تشتهي من أبحاثه ومؤلَّفاته لن تجد أحداً يُخاطبُك غيره, رُغم تعدد المراجع المعتمدة فيما يكتب, وهذه الميزة الرائعة لمسها الأستاذ إبراهيم الوافي لمس اليد وذاقها ذوق العارف المحس, ثُمَّ شَهِدَ بها فيما تناوله من كتابات الأستاذ كنُّون في تفسيره, مبيِّنا أنَّ دليل هذا الشعور وذاك الإحساس وتلك البراعة في التحكم المعلوماتي المضاهي لتحكُّم السَّائق الخبير في مركبته؛ وتضَلُّع الهادي الخرِّيت بمعرفة طرق بلاده؛ وأحوالِ أولاده, أنَّ "لائحة المصادر الآنفة الذكر سواء التي ذكرها في مقدِّمَة تفسيره, أو التي جاءت في مواطن معيَّنةٍ من كتابه, على طولها النِّسبي وتنوُّعها, فإنَّك لن تجدَ لها أيَّ ظهور واضح يجعل منها حاجزا دونَ القارئ والمؤلِّف, فإذا فتحت كتاب الأستاذ كنُّون فإنَّك لن تجد مخاطبا آخر في التفسير, ومحلِّلاً ومناقشا ومبدِيا ما يراه سوى سيدي الشيخ عبد الله كنُّون, فهو يرافق القارئ كتابه ويحاول أن يَشُدَّهُ إليه ويُزيلَ أمامه الصِّعاب, ولن يتركَهُ لمفَسِّرٍ آخر يُحدِّثُه, وهذا في نظري نجاحٌ كبير في كيفيَّة التعامل مع المصادر, وحُسن الاستفادَة منها" ([54]).

لقد قادته العناية الفوقيَّة إلى تلَقِّي أشِعَّة البصيرة يقطِفُ من نورها, وترَقِّي بساتين الفهم

[54] - المرجع نفسه, ص 366.

يقطف من زهورها, حتَّى وقفت به عندَ حافَة المجد, بعدما بذل ما بذل من السَّعي الدَّءوب والجِد, وكان منتهى ما خَلَّف, ومجموع ما به النَّاسَ أتحف, ممَّا ألَّف؛ ما يُمكن أن نسمِّيه اليوم "معلمة" ([55]).

ومن حرصه الشديد على مصلحة الأمَّة والحضور الكتابي في قضايا راهنها, ومسائل عصرها التي تلوكها الأفواه بعد المصالح, و تقذف بها المطابع بعد القرائح؛ أنَّه كتب عن أحقيَّة الامتلاك ومداه وضوابطه للأشخاص الطبيعيين فيما كان يروج آنذاك من الصِّراع بين الاتجاه الحر والاتجاه الاشتراكي, فكان أن حرَّر بحثا نفيسا رصَّعه بدرر التحقيق النَّبيل, وغرر التدقيق العلمي الأثيل, الأدبي الجميل؛ محبِّرا إيَّاه بعنوان: "الملكية الفردية" [وهو البحث] المنشور مع بحوث المؤتمر الأول لمجمع البحوث في الأزهر: ص 186"([56]).

وبمقابل ذلك الحضور الكتابي كان حضورُه الخطابي, إذ الأستاذ كنُّون كان ذا مقدرة خطابيَّة عاليَة, فخطب الخُطَب الجمَّة, ودَرَّس الدُّروس المُهِمَّة, فأجاد وأفاد, لهذا اختير من بين الملقين للدُّروس الرَّمضانيَة التي تُلقى في مختلف الموضوعات بحضرة حاكم البلاد, بحيث تُعقَدُ مرَّةً في السَّنة برحاب القصر, ولا يُختار لها إلاَّ الأجلاَّء من الأكفاء وذوي المقدرة والتَّميُّز فيُستدعَونَ لها من داخل الوطن, ومِن مختلف دول العالم, وتُبَثُّ منذ بدايتِها مباشَرَة على أمواج التَّلفزة والإذاعة, ثُمَّ تقومُ وزراة الأوقاف بعمَل التَّرجمة والطِّباعة, فتُنشَرُ بالعربيَّة والإنجليزِيَّة والفرنسِيَّة.

55- "معلمة: هذا هو اللفظ الذي يعبر عن المراد منه بوضوح وسلامة مبنى، وقد لهج المعاصرون بلفظ "موسوعة" وهو اصطلاح قريب العهد في صدر القرن الثالث عشر. وقد وقع ذلك في قصة لطيفة على لسان أحد الأعجميين، كما في مجلة الأزهر: "لواء الإسلام 26 / 1158" بعنوان: الأدب والعلوم. ومما جاء فيه ما نصه (لطاش كبرى زاده كتاب باسم: موضوعات العلوم ولما كانت إحدى مكتبات القسطنطينية، تدون فهرساً لمحتوياتها. أملى أحد موظفيها اسم هذا الكتاب على أحد موظفي المكتبة بلفظ "موضوعات" العلوم، لأن الأعاجم يلفظون: الضاد بقريب من لفظ: الظاء. فسمع الكاتب الضاد: سيناً. فكتب اسم الكتاب "موسوعات العلوم". وسمع ... إبراهيم اليازجي صاحب مجلة "الضياء" باسم هذا الكتاب وموضوعه فخيل إليه أن كلمة "موسوعات" تؤدي معنى "دائرة معارف" فأعلن ذلك في مجلته. وأخذ به: أحمد زكي باشا وغيره. فشاعت كلمة موسوعة. وموسوعات. لهذا النوع من الكتب. وهي تسمية مبنية على الخطأ كما رأيت. وكان العلامة أحمد تيمور باشا. والكرملي، وغيرهما يرون تسمية دائرة المعارف باسم: معلمة لأنه أصح، وأرشق، وأدل على المراد منه ...) اهـ. بواسطة د. بكر بن عبد الله أبو زيد "فقه النوازل" لبكر أبو زيد, نشر مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى - 1416 هـ، 1996م, ص104- 105.

56 - وهبة الزحيلي "الفقه الإسلامي وأدِلَّته" نشر دار الفكر - سوريَّة – دمشق, ط 4, ج4579/6.

ونعم, لقد أحبَّ الأستاذ اللُّغات ولكنَّه فضَّل بالحُجَّة والبرهان اللُّغَة العربيَّة, لأنَّها لغة القرآن المُنَزَّل, وأحَبَّ الرَّعيل الأوَّل لما له من أمجاد ومفاخر, فأحبَّ القراءة عنه ودراسَة تاريخه الزَّاخر, ولاسيَّما المغاربيُّ منه ليبيا كان أو تونُسِيًّا ومن المغرب كانَ أو الجزائر, حتَّى صار من المتخَصِّصين فيه, المتعمِّقين في بحره لاستخراج خوافيه, والباحثين بجِدِّيَةٍ في طواياه.

إلاَّ أنَّ تخصصه في التَّاريخ لم يكُن ليَنفيَ عنه التَّخصص الأدبي, حتَّى وإن غلب هذا ذاك, أو ذاك هذا فليس أحدهما عنه بأجنبي, ومَثَلُه مثَلُ كثير من أهل زمانه كإحسان عبَّاس ومحمود علي مكي وحسين مؤنس ممَّن كانوا أدباء بإضافَة إلى عنايتهم وتضَلُّعهم في الدِّراسات التَّاريخِيَّة بحيث هم عند الباحثين في التاريخ مؤرخون ([57]), وعند دارسي الآداب من الأدباء, لاسيما هؤلاء الذين اشتهروا بمزيد عناية بالأندلس أحوالا وتاريخا, ومنهم بل في مقدِّمتهم الأستاذ كنُّون, دون أن ننسى لسان البيان شكيب أرسلان أو نغمطه حقَّه ونبخسَه أشياءه, فإنَّه تربَّع في هذا المقام على عرشٍ عالٍ.

فلم يكن الأستاذ كنون المهتمَّ بالتاريخ وحده من جملة الأدباء, فهذا الأديب الكبير ذو الوزارتين كما يُسَمَّى, وهو العلاَّمة لسان الدين ابن الخطيب يكتب في التاريخ ويؤلِّفُ كتابه "الإحاطَة في أخبار غرناطة", بل هذا الأدب في حدِّ ذاته بما يوجبُه على صاحبه أن يتوسَّع في العلوم؛ يحملك على أن تلج أبواب التَّاريخ وتطالع سير الأعلام, وتراجم الأدباء والشعراء وأهل العلم, وتقرأ القصص, وتنظر الروايات وتستفيد من الأخبار, وتعرف أيَّام النَّاس, هذا من جهة ومن جهة أخرى, فالتَّقعيد للأدب يحتاج إلى نظرةٍ فلسفيَّة تاريخِيَّة لمعرفة أطواره, والدِّرايَةِ بطُرِقُه وتحوُّلاته ومساره, والعلم الدَّقيق بحده وإطارِه, حتَّى ينشَأَ النَّقد متبَيِّنا من نظرات القدماء الماضين, وما آلت إليه مفاهيم النَّقد عند المتأخِّرين، وكيف هو حالُها لدى المعاصرين, وحتَّى يستطيع التَّقدُّم إلى المستقبل بمشاعل الفهم لإنارة الطَّريق, عبر مراكب التَّقويم لحركِيَّة النَّقد منذ فجره إلى ساعة الحكم على خطواته, لأنَّ الذي لا

57 - صالح عبد الله الجيتاوي "تاريخ الأندلس والدراسات الاستشراقية الإسبانية" مجلَّة البيان- ذو الحجة- 1427هـ, العدد:232.

يستطيع معرفة درجته في سُلَّم النَّجاح, لا يمكنه أن يتفادى الهبوط, تماما كالذي لا يقدر أن يحكم على ماضيه لا يحسن استحداث مرتبةٍ لائقَةٍ في مستقبله, ذاك المجهول الذي لا يُبنى إلاَّ على الاستفادة من العثرات السَّابقة, ليجتنبها في مسيرته المتتابعة اللاَّحقة, وإلاَّ هوت رجلاه إلى مهوى سحيق ودرَكَةٍ ماحقة ومهلكَة, فيجيء الرُّكود ويتبعه الرُّقود ويتمُّ وأدُ النَّهضَة، ويُقضى على الأمل في التَّطَلُّع إلى الإشراق, فضلا عن دخول ميدان السِّباق ومنافسة الأمم الرَّاقيَة, ومحاولة التَّفوُّق عليها ما بقيت للأدب في دنيا الإبداع باقيَة.

كنُّون وكتابه "النبوغ المغربي":

لقد عَدَّ عبد الواحد المرابط في "نشأة النقد الأدبي الحديث في المغرب" كتاب النبوغ المغربي محطة فارقة في تاريخ النقد المغربي, بحيث يعدُّ بداية تشكل النقد المغربي الحديث, إضافة إلى كتب كنون التالية وهي: "شرح الشمقمقية" سنة 1935م, وشرح مقصورة المكودي سنة 1938 م, وغيرها, وذلك حين كان "الدرس الأدبي المغربي ـ لا يزال ـ يجمع بين الإشتغال العلمي, والانشغال التعليمي" ([58]).

إنَّ الأستاذ عاش ذلك الانشغال وعايشه، وكتب عنه وناقشه، وظلَّ متألِّما من الأحوال المزرية الوخيمة, والاحتلال الغاشم الأليم, والوضع العلمي والأدبي السَّقيم, ومعلومٌ أنَّ ذا العقل يشقى في النَّعيم بعقله كما قال المتنبِّي الحكيم, فكيف والجوُّ يبعثُ بالشَّقاء ويلوِّحُ به في كلِّ ناحية, فعانى الأستاذ من العدو وتألَّم من الصَّديق, ذلك أنَّ المشارقة قد انفصلوا لظروف معيَّنة عن جزء من العالم العربي هو الناحية المغاربيَّة من وطننا الكبير, وصارت نظرتهم إليه دونِيَّة في مجال الفكر والأدب والثَّقافة, فقام الأستاذ محاولا ردَّ الاعتبار بالموازاة مع محاربة الاستعمار, وكان الأسفُ يدفَعُ به إلى الإسراع في تخطِّي درجات سُلَّم الزَّمن فإذا هو يترقَّاها, ويزيدُه الأسى فيمضي يتخطَّاها لا يلوي على شيء غير المجاوزة وبلوغ الغاية, واعتلاء شرفات النَّصر والظَّفر, يتوَجَّع ومع ذلك لا يتراجَع ويتحفَّزُ للإقدام برُغم كلِّ تلك الآلام, ومعروفٌ أنَّه "بقدر ما تفهم تتألَّم", تلك هيَ البدايَة التي تمزجُ بينَ العقل والنَّفس, والعلم والشعور في عمَلِيَّة النَّقد, والتي مرَّ بها الأستاذ وواصَلَ السَّعيَ في طريقها

58- عبد الواحد مرابط "نشأة النقد الأدبي الحديث في المغرب" موقع الدكتور مرابط.

حتَّى قطع مسافَةً كبيرة بلغت به إلى حدٍّ بعيد.

لقد ترجمَ الأستاذ تجربته الشُّعوريَّة إلى عملٍ حيٍّ في كتابه "النبوغ المغربي" وما فيه من سبق وشقٍّ لطريقٍ جديد، فإنَّه "برغم الإهمال والتهميش الذي تعرض له الأدبُ المغربي طول العصور الماضية, إلا أن العلامة عبدالله كنون بمبادرته الوطنية في تأليف هذا الكتاب [النبوغ المغربي] استطاع أن يلملم التراثَ المغربي الموزع في مظان الكتب واستخراج كنوزه وحفظها من الإهمال والضياع. وهو بذلك أثبت مكانة الأدب المغربي في صرح الأدب العربي كما كان يطمح رحمه الله، وأعلن هذا في مقدمة كتابه شاء من شاء وأبى من أبى، ويكفينا فخرًا الحفاوة التي حظي بها الكتاب في الأوساط الثقافية والأدبية، وتهافت العلماء على دراسته وقراءته، وهذا أكبر دليل على حاجة العالم إلى معرفة الأدب المغربي الصرف وذاكرته" ([59]).

وإنني أقر فأقول بكل ارتياح أن كتاب "النبوغ المغربي" لعبد الله كنون ينطبق عليه لنفاسته قول الأديب علي الطنطاوي إذ بيَّن أنَّ "الأثر الأدبي إذا هبط إلى قرارة الفساد أو سما إلى ذروة الجودة، أعجز النقاد وابتلاهم في الكتابة عنه بأضعف التكاليف، فأنا أقر بالعجز عن نقد هذين الكتابين، وعن نقد (شعر ...) بشر فارس أو أبحاث سلامة موسى، لأن من تحصيل الحاصل أن تقول للجيد لاشك فيه، وهو جيد، وأن تقول للفاسد المتفق عليه هو فاسد، لأنك كالذي يقول للشمس أنت مضيئة ولليل أنت مظلم**!**" ([60]).
فالأستاذ كنون كان يأتي البيوت من أبوابِها, كيما تشرقَ صفحَةُ الأدب العربي وتصبِحَ أيَّامُه كلياليهِ ناصعَةَ البياض, ما كان يوماً يبحَثُ عن خروفٍ أسودٍ ليُلَوِّنَه كما يقول إنجلز!

فهذا شمس الدين محمد المعروف بابن المنقار مدحه الشِّهاب "ريحانة الألبَّا" مدحا فائقا لكنَّه انتقصه بقوله: "إلا أن شِعرَه شعرُ العلماء، وأدبَه أدبُ الفقهاء، وما كل قصرٍ خَوَرْنَق

[59] ـ أشوخي نور "قراءة في كتاب النبوغ المغربي لعبد الله كنُّون" مقالة منشورة في موقع *www.alukah.net*

[60]- علي الطنطاوي "فكر ومباحث" مكتبة المنارة، ص29-30 .

وسَدِير، وما كل وادٍ فيه رَوْضة وغَدِير"([61]).

غير أن الأستاذ كنونا عالج هذه القضية معالجة فريدة في كتابه العظيم "أدب الفقهاء" نافيا ما تراوجه الناس من تعليل أحكامهم النقدية بكون القصيدة من إنشاء فقيه، دون لجوء إلى دراستها و إخضاعها لمعايير النقد فعساها تفوق شعر الشعراء، ولماذا لا ؟، فقد كان ذلك وهو كائنٌ ويكون!

وجدير بالذكر أنَّ كتاب "ريحانة الألبا" أحدُ مفاخر الشهاب الخفاجي, وهو كتاب مشهور على غرار يتيمة الدهر للثَّعالبي، ترجم فيه الخفاجي لشعراء عصره، وعقد في القسم الرابع منه باباً لبيان أحوال الروم (أي: الأتراك) وانقراض علمائها وانتشار الظلم والعدوان بين أمرائها. ثم عقد باباً ترجم فيه لنفسه، وساق فيه عدة مقامات له، منها (المقامة الرومية). قال عبد الفتاح الحلو في مقدمة نشرته للكتاب سنة 1967م: وآخر أثر وصل إلينا في هذا الفن قبل (الريحانة) هو (عقود الجمان في شعراء الزمان) لأبي البركات الموصلي (ت654هـ) ولا نعلم أحداً بعده أخذ على عاتقه تسجيل أدب عصره على هذه الطريقة، حتى جاء الشهاب الخفاجي فكتب كتابه (خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا) ثم هذبه وأعاد ترتيبه وسماه (ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا) "([62]).

فهذه الطَّريقة الفريدَة في التَّأليف قد عاينها الباحثون في كتاب "النبوغ المغربي" لكنون, بل هيَ فيه أبدع وأروع, إذ ربت على تلك المصنَّفات, و جمعت بين الشعر والنَّثر والمقامات, وخصَّصت إطارا للأدب الجغرافي المكاني ممَّا يصلُحُ أن يُطلَقَ عليه اسم "مغربيَّات", كما خصَّص الخفاجي إطارا للأدب الزَّماني, وإن كان اقتصَرَ فيه على الشِّعر فقط, ولم يستوعب الفنون الأدبيَّة وأجناسها المختلفة, ولم يمش قلمُه مسافَةً طويلَةً في الزَّمان ناقلا عن الأعيان كما فعل الأستاذ كنُّون, حتَّى ألهبَ محافز المشارقة لأن يَفْرُوا فَريَه, ويحذوا حذوَه؛ ويجعلوا على ذلك الجوائز والمكافآت.

فالأدب المكاني كائنٌ وموجود, بيدَ أنَّه يجب أن يخلو من تلك الخلفيَّة الإيديولوجيَّة

[61] - شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفَّاجي (ت 1069هـ) "ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا" ت: عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط 1، سنة 1386هـ/1967م، ص128 .
[62] - عبد الفتَّاح الحلو مقدِّمته على المرجع السابق "ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا" ص2 .

الاستشراقيَة التي تعمل على تفتيت جسد الأدب العربي الواحد.

ولما كان عضوا بمجلس إدارة جامعة القرويين التي أوجدت في الماضي أئمة وقفوا أنفسهم على خدمة الشريعة وعلوم اللسان، وطافت لهم شهرة في جميع الآفاق، اهتمَّ بهم الأستاذ فألم بشذور من أعمالهم الثقافية فيما كتبه من مقالات –فيها أنواعٌ من النقد- تحت عنوان "ماضي القرويين وحاضرها" نشرت بالمجلد السادس من مجلة الرسالة سنة 1938م.

وأمَّا بخصوص الكتابة عن التُّراث, فلم يخلو منه قلمه, ولم يخفَ فيه نقده، فقد نشر في مجلَّة المجمع (جـ 58 ص 246) بحثا عنوانه "نحن والتراث" فأفادَ فيه وأجاد.
لقد أوصلتهُ حصيلته العلميَّة والتجريبيَّة إلى إثبات جدارة فائقة في مجال تحقيق الكتب التراثية, حتَّى عُدَّ من بين كبار المحققين في البلاد العربيَّة عموما, والمغربيَّة على وجه الخصوص كمحمد المنوني ومحمد إبراهيم الكتَّاني, وغيرهم.
لقد امتازت كتاباته النقدية بالجودة والتكاثر، إلى أن جف المداد وانتقل إلى ربِّ العباد، فكانت متحليَة بالكمِّ والكيف معا، ونحن لا ندع المقام هاهنا حتى نذكِّر بجهوده فيها ممَّا حبرته أنامله، فمن ذلك:

- "العصف والرَّيحان (مقالات في الأدب والنَّقد) مطبعة كريماديس بتطوان سنة 1969م.
- نوادر وملح أدبيَّة (كتبَهُ سنة 1359هـ/1940م).
- شخصيات مغربيَّة (تضُمُّ حوالي 150 شخصيَة للتعريف بها في مختلف فنون المعرفة).
- خلٌّ وبقل (دراسات أدبيَّة ونقدِيَة), المطبعة المهدية بتطوان, في (279ص).
- أدب الفقهاء (دراسات نقدية وتحليليَّة) الطبعة الأولى, دار الكتاب اللبناني ببيروت, والطبعة الثانية: مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة1988م, في (214ص).
- أدب الفقهاء (دراسات نقدية وتحليليَّة) الطبعة الأولى, دار الكتاب اللبناني ببيروت, والطبعة الثانية: مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة1988م, في (214ص).
- "أزهار بريَّة (مقالات في الأدب والنَقد), مطبعة ديسبريس بتطوان سنة 1971م, في (196ص).
- القاضي عياض بين العلم والأدب - الرياض: دار الرفاعي، 1403 هـ، 64 ص –

(المكتبة الصغيرة؛ 42) " ([63]).

وفي هذا الصَّدد، وفي خضمٍّ هذا الكمِّ من التآليف؛ نرى أنَّ مشاركته في علم النَّسب مناقشَةً وتصنيفا, وتحقيقا وتأليفا؛ داخِلَةٌ في النَّقد بوجهٍ عام, ذلك أنَّنا نستعملُ الرؤية الوظيفِيَّة في فهم الأعمال.

فالأستاذ عبد الله كنون حين شارَكَ في علم النسب رام بعثه من جديد، لكونه من العلوم التي لها خصوصِيَّة, والتي أصابها ما أصابها من الإهمال العام, و أنَّه على وشك الاندثار, فكان أن خطى خطواتٍ في هذا الطريق, كأنَّما يريدُ أن يقول لنا بتوفير بعض جهده في هذا الإطار إنَّه يحبُ السَّعي في إحياء ما اندثر منه, والعودَةِ إلى نتشيطه, بما يفيدُنا أنَّه ينتقِدُ التَّفريط في هذا العم, هذا إذا قرأناه قراءةً تحليلِيَّة تغوص على الأعمال وتنفذ في بواطن البواعث التي دفعت بالأستاذ إلى توظيف قلمه ليجول في ميدان النَّسب كما جال في ميدان الأدب؛ وتلك هي نظرتنا إلى ما قام به عن طريق أخذنا بالبعد النفسي والحافز الوجداني.

بل إنَّ من الفكر النقدي للأستاذ الذي يتربَّع من وراء جهده التَّأليفي فيكون بمنزلة الخلفيَّة النَّقدِيَّة لأعماله الكتابِيَّة, والتي نستخرجُها بطريقتنا القرائيَّة الفاعلة في دراسة نوازع التَّصرُّفات, ومنابع التحرُّكات والأفعال؛ من فكره ذاك انصرافه إلى تراث العلاَّمة "الحازمي (548 - 584 ه = 1153 - 1188 م) محمد بن موسى بن عثمان ابن حازم، أبو بكر، زين الدين، المعروف بالحازمى: باحث، من رجال الحديث. أصله من همذان، ووفاته ببغداد. فاستخرج منه كتابه (عجالة المبتدي وفضالة المنتهي - ط) في النسب، وعلق عليه وفهرس له ([64]). ثمَّ "نشره .. بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة 1384هـ 1965م . ثم أصدر الطبعة الثانية منه ، مستفيداً من مخطوطتين أخريين للكتاب ، بمجمع اللغة العربية بالقاهرة أيضاً، سنة 1393هـ - 1973م" كما قال الدكتور محمود محمد الطَّنَّاحي ([65]).

وقد كتب في نسب بني مرِّين مقالة بعنوان "بنو مرِّين أَصلُهم وموطنُهم", وألَّفَ كتابه "الجيش المجلب على المُدهش المغرب" يُناقِشُ فيه كتاب العلامة عبد الحفيظ الفاسي في شأن نسبَة آل كنُّون إلى العترَة النَّبوِيَّة, وهو مطبوع على آلة النَّسخ سنة 1985م ([66]).

63- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح"، ص33.

64- خير الدين الزركلي "الأعلام" دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، سنة 1980م، ج 117/7 .

65- محمود الطناحي "الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم" الطبعة الأولى 1406هـ - 1985م, (ص66)

ولم يقتصر جهده النقدي على العموميات، بل ساح في الخصوصيات شعرا ونثرا ولغَةً وأسلوبا، وراح في غير ذلك من اهتمامات النقد وقضاياه كاتبا، وباح بآرائه النقدية مُصوِّبا، وبين يديك العنوان الآتي لتجد بعده شيئا من الزيادة على ما ذكرناه.

الأستاذ كنون وحركة التَّصويب اللُّغوي:

لمَّا كانت الجريدَة أوَّلَ وسائل الإعلام كثُر فيها الكلام وتعدَّدت الأقلام, لاسيما الجرائد اليوميَّة التي داهمتها السُّرعة في إظهار نسخة كُلِّ عدد قادم؛ إلى التَّعجُّل في الكتابة, وعدمِ مراعاة تمام الإصابة, لا في صدق التَّخبير, ولا في حُسن التَّعبير, وبخاصَّة لمَّا انتهجَت طريقة الغرب في عرض الأخبار إذ كانوا هم أوَّل من أدخلوا الصِّحافَة للبلاد العربيَّة من جهة, وهم أوَّل مَن قعَّدوا قواعِدَها وحرَّروا أساليبها من جهة أخرى, فكان لذلك كُلِّه الأثر السَّلبي على الأسلوب العربي في الإنشاء, وعلى الألفاظ المعجَمِيَّة من ناحِيَة اختيار المفردات, وناحِيَة شكل كتابة الكلمات, لا سيما وقد بدأ الغربيُّون يومذاك يُشَيِّدونَ تشييدا؛ نمطا جديدا شديدا من مدرسَة التَّبعِيَّة العربيَّة للفكر الوافد, ممَّا جعل الأخطاء تترى وتتهاطل, تركيبا وتوظيفا, ورسما وتأليفا, ونحوا وتصريفا, بلا منادٍ يصيح في تلك النَّوادي لقطعِ هذه البلايا المخزيَة, التي صارت مألوفَة مستشرِيَة؛ ومنعِها من الاستمرار في تشويه وجه اللُّغَةِ العربيَّة الجميل؛ إلاَّ ما قلَّ من ذوي الغيرة النَّبيلَة والكفاءة العلميَّة, فرفعوا أصواتهم ببياناتهم صائحين, وبتنبيهاتهم موَضِّحين, أماكن الخطأ ومواقع الغلط, دالِّين على الصَّواب, واضعين عليه أعيُنَ الكُتَّاب والقارئين.

فكان في طليعة الرَّائدين, وأولئك المُنادين؛ الأستاذ إبراهيم اليازجي صاحب كتاب "لُغَة الجرائد", الذي صحَّح كثيرا من الأوهام اللُّغويَة, التي تداولتها الأقلام الصِّحَفِيَّة, وممَّا يُحمدُ لهُ أنَّه أشار إلى تأثير اللَّهجَة العامِيَّة في اللُّغة العربيَّة, بالإضافَة إلى الترجمة الحرفيَّة عن اللُّغات الأجنَبِيَّة, وبسَبَبِه انتعشت حركةُ التَّصويب اللُّغوي, وفُتِحَ بابُها, وجُهِّزَ رِكابُها, وتعدَّد أربابُها, فكان من هؤلاء العلاَّمة عبد الله كنُّون, الذي ذكرَه البَحَّاثَة محمَّد بن شريفة وأشاد بجهده, قائلا:

"وممن لهم إسهام في التصويب اللغوي بالمغرب، عبد الله كنون، ومحمد الفاسي، ومحمد بن

66- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح", ص162-163.

تاويت، ومحمد الحلوى، وأحمد الأخضر، وغيرهم, [و قد] نُشِرَت جُلُّ تصويباتِهم في جريدَة "العلم" " ([67]).

بَيدَ أنَّ "التصويب اللغوي في وسائل الإعلام الذي اهتم به عدد من المؤلِّفين طَوَال القرن الماضي نشأ عنه رأيان :

أحدهما يدعو إلى حماية اللغة وصيانتها وتنقيتها وصفائها، وينتقد أي محاولة للخروج عن سننها المقرَّرة، ولا يسكت عن أي تهاون في الأخذ بها، ومعظم المجمعيين والجامعيين من أصحاب هذا الرأي.

... أما الرأي الثاني فيدعو أصحابه إلى تبسيط اللغة وتقريبها من أكبر عدد من القراء والمستمعين، وهم يقولون: إن الفضل فيما وصلت إليه العربية الحديثة يرجع إلى الصحافة ، وجل أصحاب هذا الرأي من الصِّحافيين، .. ويرى عبد اللطيف حمزة أن "المعين الأول الذي يستقي منه المعجم اللغوي للصحافة في كل أمة من الأمم هو الشعب", وقد ذهب إلى أن لغة الصحافة إنما هي عامية معربة، أو مفصَّحة" ([68]).

إنَّ في الأسلوب العربيِّ البارع كفاية للجمع بين الرَّأيين, بحيثُ تستجلَبُ فائدتُهما وتدفَعُ مضَّارُّهما, فمعلومٌ أنّ الألفاظ مادة الجميع في الكتابة, ولكنَّ الشَّأن في طريقة استعمالها, وسبيل توظيفها في المحل الذي يُسَهِّل الفهم على القارئ, ويلقي إليه بالمعاني من الوجهة القريبة إلى عقله, وبالبيان الأدنى إلى إدراكه, دونَ نزولٍ باللُّغَة أو إطاحَةٍ بها.
أمَّا أن نحرِّفَ الألفاظ العربيَّة وننطقها كنطق العوام خاطئة لأجل تفهيمه, فلا يكون ذلك إلاَّ على وَفق القاعدة الميكافيليَّة: "الغاية تبرِّر الوسيلة", فكيف إذا كنَّا بذلك نجني على هذه الغايَة ونزيدُها ابتعادا عن القارئ في الوقت الذي نروم تقريبها منه بحُجَّة التَّيسير, ذلك الذي حقيقته –عندئذٍ- لا تعدو تيسيرا مؤقَّتا عاجلا في حينَ هو تعسير مؤَّجل وتطويل لطريق الأجيال في الوصول إلى المطلوب, وتعويدٌ لهم على الانحطاط لأدنى الدَّرجات من أجل بلوغ أعلاها, فهل هذا إلاَّ من التَّناقض الوخيم, ذاك الذي يجعل القضيَّة غير ذات أساس من

[67] - أ. د: محمد بن شريفة " التصويب اللغوي في وسائل الإعلام العربي بين المشرق والمغرب ", مجَلَّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة, العدد: (93).
[68] - المرجع نفسه.

جهة, ومن جهة أخرى؛ يودي بالجماهير إلى الانتقال من اللَّحن في ألفاظ إلى اللَّحن في الاتِّجاه, وفي العمل والمسار برمِّته, على حدِّ قول الشَّاعر:

لَمْ نُؤتَ مِنْ جَهْلٍ ولكنَّنَا ** نسترُ وجهَ العلمِ بالجَهـلِ.

نكرهُ أن نَلحَنَ في قولِنَا ** وما نُبالِي اللَّحنَ في الفِعلِ.

فكيفَ إذا جعلنا اللَّحنَ شيئا يُعجِبُنا ونُحِبُّه؟!, فليس يُجنى من ذلك إلاَّ مُرُّ الثمار وكثرة العثار والوقوف دون المرمى, لينطلق هؤلاء الموجِّهون للأمَّة من التَّطلُّع بها للرُّقي, إلى خلق ما يتنافى مع ذلك كُلَّ التَّنافي, ويتضادُّ وإيَّاه كُلَّ التَّضاد؛ وهو أن يخلُقوا في نفسِيَّتها "القابليَّة للَّحن", حتَّى تَتَشَرَّبَها القلوب, وإذا العمَلُ يسيرُ بالمقلوب, لا سيما والزَّمان شاهدٌ على ذلك, فقد أمضت الأمَّة العربيَّة أكثَر من قرن منذ ظهور الصُّحف ولا تزال في التَّصحيف واللَّحن والرَّكاكة, من الخاصَّة فضلا عن العامَّة, كأنَّها لا تَعبَأُ بما يُقالُ عنها في التَّاريخ, إذ طَبَعَها التعبير السُّوقي بطابعه الآتي من سلطان اللُّغَة على الفكر؛ فأصبحت تفضِّلُ المادَّة على الجوهر, والشَّكل على المخبر, وأكبرُ همِّها فائدة وصول المعنى إلى القارئ ولو مشوَّها, والخبر ولو مموَّها, كزوجين يتمنَّيان طفلا ولو معوَّقا ومقطَّعا وضريرا, وانتقلت من أن تَعُدَّ ذلك مرحلةً تتجاوزها, وحتمِيَّة تجتهد للتَّخلُّص منها؛ إلى عدِّه هدفا يُبتغى, وسبيلا يُسلك, ومراما تشرئبُّ الأعناقُ إليه!!

فمن أيِّ طينة وأيِّ معدِنٍ هذه القلوب التي تُفَكِّر, والعقول التي تُدَبِّر بكيفيَّة كهذه, لقد حدت بي أن أتمَثَّل بما قيل فيما يلتقي ما نحن فيه:

أفَهـمٌ بجَهْـلٍ بحُمـقٍ كَبيرٍ؛ ** وَلُــودٌ بعُقـمٍ، فَقِيـرٌ بكَسْبِ؟!

لِتَخجَـل؛ فإنّ التَّناقُضَ صاحَ ** كفَى, أنتَ بُهْمٌ، وتَعْجِيْمُ عُرْبِ؟

شَؤومَ الخُطا، أنتَ حُلْمٌ تخَطَّى** وُجُوْدًا؛ فغَطَّى؛ رُبُوعَ الصَّوابِ (69).

من البديهي؛ أَنَّ الصَّواب لا يُدرك بملازمةِ الخطأ والرُّكونِ إليه وتعويدِ القراء على مزاولته واتخاذه منهاجا في الكتابة, وإلاَّ كان هذا هو الضَّلال الذي لا يكونُ حقًّا إلاَّ عند من انقلبت الحائق في عينَيه.

---

69 - الباحث؛ من قصيدةٌ طويلة, وهي فلسفيَّة تأمُّليَّة في ماهِيَة القلب الإنساني وصفاته وأحواله؛ عنوانها "هكذا أنت", من ديوان "أعولي يا جراح", غير منشور، ص76.

في حينَ يتحتَّم الابتعاد عن طرائق الكتابة العسرة الأشبه بحالات المخاض الشَّديد, بحيث لا يرى منها القارئ معنى مولودا, ولا فكرا جديدا, إنَّما يرى العربيَّة التي لا تُفهم, والمعنى الذي لا يُهضَم, فالمبنى اللَّفظي, كبعض الحجر الأرضي, تراه كما ترى النُّصوص, ولا يصلُح للبناء المرصوص, سوى ما كان من بنايات هشَّةٍ كهشاشَة التَّعبير الرَّكيك المعقَّد, الذي من قوَّة البيان وجودة الفصاحة لم يتزَوَّد, وعلى الأسلوب الجزلِ البليغ لم يتعوَّد.
تلك كانت –ولمَّا تزالُ- أساليب "معقدة العبارة أعجمية السبك, وإن كانت عربية الكلمات" كما يقول العلامة الأديب علي الطَّنطاوي, عن الكتَّاب الذين يختصرون الكُتب اختصارا([70]), وفي هذا يقول الطَّاهر ابن عاشور:

"ومن العجب أن صار المؤلف يصرف جهده إلى أن تكون عباراته مضبوطة جارية على الصواب, لكنها غير واضحة في مراده , فكأنه يقتنع بكونها مؤدية للمراد في ذاتها بقطع النظر عن عسر استفادة مطالعها ذلك منها" ([71]).
وبعدُ؛ فهذه هي رؤيَة الأستاذ كنُّون الصَّحيحة للقضِيَّة, دون جعل الخطَإ بريدا للصَّواب, وفوق الأخذ بالصُّعوبة للتيسير على الطُّلاب والقارئين, ولعمري إنَّها العقليَّة الوسطِيَّة بكُلِّ يقين واستقامة نظرٍ, وبكُلِّ واقعِيَّةٍ واعتدال.

وها هو يقول عن أوَّل أشكال النثر "وأول ما ننظر فيه من أشكال النثر الأدبي الخطبة، وهي بما تؤديه من دور هامٍّ في المجتمع وما تختص به من عبارات مؤثرة في النفوس لاسيما إذا أُعدَّت إعدادا لا تنفك عن كونها أثرا من الآثار الأدبية الخالصة، وإن تناولت موضوعا غير أدبي، وهل يستطيع أحدٌ ان يثنكر ما لخطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزياد والحجاج من القيمة الأدبية برُغم موضوعاتها السياسية؟ ... على أن الخطابة الدينية والاجتماعية تطورت كذلك تطورا عظيما سواء من لناحية الموضوعية أو الشكلية فقد صارت تهتمُّ بالمشاكل العمومية والإصلاح الديني والاجتماعي، ولم تبقَ قاصرة على التذكير بالعالم الأخروي والتزهيد في الحياة الدنيا، كما تحسَّنت أساليبُها وتهذَّبت لغتها

70 - علي الطَّنطاوي "ذكريات علي الطنطاوي" دار المنارة، جدة، سنة 1405هـ/1985م، ج 43/2 .
71 - محمد الطَّاهر ابن عاشور "أليس الصُّبحُ بقريب –التعليم العربي الإسلامي: دراسَة تاريخِيَّة وآراء إصلاحِيَة" دار السَّلام, القاهرة,مصر, ومؤسَّسَة دار سُحنون, ط2, سنة: 1428هـ/2007م, ص:147.

بالتَّنزُّل إلى أفهام العوام ونبذ التَّقعُّر في الخطاب، ومن أشهر الخطباء الذين لهم يد في هذا التطور الأساتذة محمد الطنجي وعبد السَّلام الفاسي وعبد الحفيظ كنون" ([72]).

لقد أثرى الأستاذ كنون ببحوثه الكثير من جوانب اللغة نقدا ودراية، وألقى بالأضواء على مواطن مظلمة اشتبهت فيها الكلمات لغة والعبارات أسلوبا على كتَّاب وباحثين، وأدباء وصحافيين، وفيما يلي بعض ما أدلى به من مقالات في هذا الصدد:

1 – فقد كتب الأديب علي الفقيه حسن مقالا بعنوان "تعقيب على كلمة "لما به" ... الأستاذ في مجلَّة "المجلة" جـ 19 ص87، فنقده الاستاذ كنون بمقال عنوانه "رد على التعقيب (مراجعة)" ونشره في المجلَّة نفسها "المجلة" جـ 19 ص89 .

2 – ثم كتب: تحت عنوان "فيما حول بحث "لما به"، المجلة جـ 19 ص95.

3 – كما دوَّن بحثا سمَّاه "الفنداق وألفاظ أخرى" (التقييم - شجب - وديان- تحاشد الناس - التكميد)، وألقاهُ في الدَّورَة 32 جـ 6 للمؤتمر بالقاهرة البحوث والمحاضرات ص 137، وطبع في رسالة بالعنوان نفسه سنة " 1385هـ/1966م" ([73]).

4 – ومما دوَّنه في النَّحو صفحاتٍ كثيرة متنوعة لمواضع متعددة من علم النحو في العربيَّة, من ذلك بحثه "علم الجنس" الذي ألقيَ في الدَّورَة 29 جـ 4 للمؤتمر والمنشور في مجموعة البحوث والمحاضرات ص 117.

5 - ومن بحوثه "الكاف التمثيلية" دراسة ألقيت في الدورة 37 للمؤتمر البحوث ص 3، التي جعلها الدكتور بكر أبو زيد في كتابه "معجم المناهي اللفظية" وذلك حيث قد يقول المرء أنا كمسلم، والواقع أنَّه مسلم وليس كمسلم فهو من أهل الإسلام حقيقة وليس مجرد شبيهٍ بالمسلمين!

يقول الدكتور بكر مبيِّنا أَنَّهُ وَرَدَ "في ((معجم الأخطاء الشائعة)) ص/ 268: أن الكاف هنا للتمثيل بما لا مثيل له، وتسمى كاف الاستقصاء.

والمعنى: بصفته مسلماً، أو: بكونه مسلماً. والعدناني صاحب هذا المعجم يتابع داغراً في كتابه: (تذكرة الكاتب ص/ 33). وقد أجاز مجمع اللغة العربية بمصر هذا الأسلوب، لكنه

72- عبد الله كنُّون "أحاديث عن الأدَب المغربي الحديث" دار الثَّقافة, الدار البيضاء, المغرب, ط 4, 1405هـ/1984م, ص98 .

73- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح"، ص 166 .

اضطرب في شأن هذه الكاف: هل هي للتشبيه، أو للتعليل، أو زائدة؟

لكن المحققين من أهل اللغة لا يرتضون هذا الأُسلوب، ويرونه مولداً حادثاً عن الأُسلوب الإفرانجي فهو تقليد له. وأنه لا يوجد لدى النحاة ما يسمى بكاف الاستقصاء، ولا في الأدب العربي القديم، قرر ذلك جماعات منهم: الأُستاذ النجار في: محاضرات عن الأخطاء الشائعة 2/ 43، والأُستاذ رمضان عبد التواب في كتابه: لحن العامة ص / 344.

والشيخ تقي الدين الهلالي- رحمه الله تعالى- [في رسالته "تقويم اللسانين"] يسمى هذه الكاف: الكاف الاستعمارية " ([74]).

إنَّ هذا الأسلوب من الأساليب التي ناقشها مجمع اللغة العربية في القاهرة. وقد قدم فيه الأستاذ عبد الله كَنّون (ت1988م)، عضو المجمع بحثاً إلى مؤتمر الدورة (38) 1973 بعنوان "الكاف التمثيلية"، وبعد استعراضه لمعاني الكاف، أجاز الكاف في الأسلوب المذكور على أربعة أوجه؛ الأول أن تدلّ على التعليل، كقولهم "الوالي كأحد رجال السلطة يجب أن يحتفظ بهيبته"، والتقدير لأنه من رجال السلطة، والثاني زائدة كقوله تعالى "ليس كمثله شيء"، والثالث أن تكون تشبيهاً، كقول أبي حَيّان في البحر المحيط "مِثْلُك لا يفعل كذا"، وهو من باب المبالغة، والرابع أن تكون هذه الكاف اسماً بمعنى "مثل"، فتصبح الكاف في قولنا "أنا كباحث" منصوبة على الحال.

وقد ردّ مجلس المجمع البحث، غير أنه أُعيد النظر في هذا الأسلوب من جديد بعد أربع سنوات في الدورة (42)، إذ قدّم محمد رفعت (ت1984م) بحثاً أثنى فيه على ما جاء في بحث "عبد الله كنون" الآنف الذكر، وانتهى إلى إجازة هذا الأسلوب من وجهين ()؛ أولهما أن تكون الكاف للتشبيه، وأن تكون زائدة، كقول بعض العرب:"كيف تصنعون الأقِط، قال: "كهيّن"، أما التشبيه عنده فللمبالغة.

وقد عارضه محمد بهجة قائلاً:" لسنا مكلفين تخريج كلام عامي يشيع على ألسنة الناس"، وأيّده علي النجدي ناصف (ت1982م)، وسعيد الأفغاني، إذ قال الأفغاني إننا منذ ثلاثين

---

[74]- بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: 1429هـ) "معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ" نشر دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 3، سنة: 1417 هـ -1996م، ص 252 .

عاما أو يزيد نسمي هذه الكاف الكاف الفرنسية، والتعبير الصحيح أن يقال باعتباري باحثاً أو بصفتي باحثاً" ([75]).

أمَّا أنا فأظنُّني بعد كل ما حدَثَ عن هذه الكاف من المناقشات، وبعد الاطلاع على ما كتب من بحوث حول هذه الكاف المثيرة للجدل لا أميل إلى استعمالها.

6 - وفي ميدان اللغة أيضا كتب عبد الله كنون عن "نظم مثلث قطرب وشرحه", بحثا ألقي في الدورة 41 جـ 2 للمؤتمر محاضر الجلسات ص 201 .

وربَّما الذي يُلَخِّصُ أشتات آرائه اللُّغويَّة وما استنتج منها عند أهل زمانه من ناحِيَة المقدرة والمستوى؛ هو ما دبَّجته يراعته تحت عنوان "العربية أمس واليوم" والتي ألقيت في الدورة 44 جـ 8 للمؤتمر - المجلة جـ 41 ص 115 .

7 - هذا؛ ومن نقداته الجادَّة لفائدة لغته العربيَّة الشريفة ترقيمه النَّافع الذي سطَّرَهُ تحت اسم "الصحافة وتجديد اللغة" ألقيت في الدورة 49 للمؤتمر - المجلة جـ 51 ص 125 .

وأيضا؛ فإنَّهُ عندما نشر الأب لويس معلوف اليسوعي قاموس "المنجد" عام 1326 هـ (1908م) , وأضاف إليه الأب فرنارد توتل اليسوعي قسم الأعلام في عام 1376 هـ (1956م), ذاع صيت الكتاب, وعظُمَ تأثيره في القرَّاء والطُلاَّب والدَّارسين, وتجاوزت طبعاته الثَّلاثين, لما تحلَّى به من مميِّزات كجودة الطباعة ورخص الثَّمن, وسرعة الوصول فيه إلى المعلومة وما زيِّن به من تصاوير ورسوم وبيانات, لكنَّه حمل في طيَّاته الدَّعوة إلى التَّنصير, ومُلئ –إضافَةً إلى ذلك- بالغلط والدَّس والتحريف ([76]), فجاء دور النَّقد النَّزيه ليكشف ما تحت تلك المميِّزات من أخطاء علمِيَّة وتزوير, وأغاليط في التقرير, ومطاعن تاريخِيَّة وزيف, قد تخفى على النَّاشئة الذين هم عماد الأمم, فكان أن كتب الأستاذ كنُّون سلسلَة مقالات في مجَلَّة دعوة الحق يرد فيها على جملَةٍ من تلك العواثير, منتقِدا 672 مادَّة([77]), في دراسَةً نقدِيَةٍ لغويَةٍ جادَّة, جمعها في كتاب سمَّاه "نظرة في منجد الآداب والعلوم", ليغدو واحدا من مجموعة كتَّابٍ ذوي غيرةٍ وخبرَةٍ بما هو سقيم, تناولوا المنجد

75- ينظر أرشيف موقع أهل الحديث على الشابكة العنكبوتية.

76- ينظر, د . محمد بن أحمد الصالح "تقرير عن المنجد في اللغة والأعلام" بحث منشور في "مجلة البحوث الإسلامية" نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – الرياض, السَّعوديَّة, بدون, (243/46).

77 - أ. محمد شريف الزيبق "تحريف اليسوعيين لكتُب التُراث" مقالة منشورة في "ملتقى أهل الحديث" سنة 1431هـ,[26 - 01 - 05, 06:53 ص], على الشَّبكة العنكبوتِيَّة: www.ahlalhdeeth.com .

بالنَّقد والتَّقويم, أمثال الأستاذ إبراهيم القَطَّان الذي ألَّف كتابه الفَذّ "عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام" فجاء "في 664 صفحة ، ويشتمل على 2434 مأخذا- وصدرت طبعته الأولى عام 1392هـ" ([78]).

وفي اللُّغَة أيضا, له إسهامات حتَّى في الموضوعات التي أصبحت اليوم هامشِيَة, ولا يهتمُّ بها إلاَّ الرَّاسخون, فقد كتب "نظرة في المعجم المفَصَّل بأسماء الملابس عند العرب" ([79]), وضمَّنه آراءً سديدَة, ونظراتٍ مفيدَة.

الأستاذ والتَّصويب الأسلوبي:

لم يقتصر عمل كنُّون على التَّصويب اللُّغوي, فقد عرَّج فيما كتب على الأسلوب موضوعا وطريقَةً , وعراقَةً وتجديدا, متناولاً إيَّاهُ بالبحث والنِّقاش، بل فيما أسلفنا الكلام عنه من التصويب اللغوي شذارات من التصويبات الأسلوبية الملتحمة مع الاستعمالات اللغوية والتي دكرناها هناك لعدم إمكانية فصلها فصلا حاسما، ولا لازما أيضا.

فغير بعيدٍ إذن؛ عن الانفتاح على ما تجود به الأفكار والإبداعات في ساحة البيان ولو كانت من بضاعة الآخر, هذه القضِيَّة التي قلَّ من فطن لمعالجتها مع قضِيَّةٍ ثانِيَةٍ تتعلَّقُ بها كُلَّ العلاقة, والقضِيَّتانِ هما "الأساليب الجديدة", و"الألفاظ المعهودة", اللَّتان أثرى موضوعهما بالحديث عنهما معا, في بحث عنونه بـ"الألفاظ والأساليب المستحدثة" ألقيت في الدورة 50 للمؤتمر- المجلة جـ 54 ص 129، خلَصَ فيه بعد توضيحه إلى فوائد عزيزة, وبياناتٍ وفيرة شافية.

إنتاجه الشعري خاصة وجهده في الشعر عامة:

صدَرَ له آخر ديوان بعنوان "صنوان وغيرُ صنوان" من منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة - مطبعة اسبارتيل - طنجة 1995م، وهو ديوانٌ رائع ماتع "يضُمُّ مساجلاتٍ شعريَّة بين المؤلِّف وشخصيَّات أدَبِيَّة من المغرب والمشرق" ([80]).

- صدرت له الدواوين الآتِيَة: " «لوحات شعرية» - دار كريماديس - تطوان 1966 ، «إيقاعات الهموم» - مطبعة سورية - طنجة 1982م, .. وله قصائد عديدة في دوريات

[78] - المرجع نفسه (244/46).
[79]- عبد الله كنُّون "أشداء وأنداء" مطبعة البوغاز, طنجة- المغرب, سنة 1986م , ص37 .
[80]- المرجع نفسه, ص33.

وصحف عصره، منها: «تحية طنجة» "المعرفة" تطوان - 18 من نوفمبر 1949م, (العدد: 20), و«من شعرنا السياسي» "دعوة الحق" ديسمبر 1957م, (العدد6), و«حادثة 7 من أبريل 1949» "رسالة الأديب" مراكش 1958م, (العدد5)، و«في المقبرة القديمة بطنجة» "دعوة الحق" 10 – 1969م, (العدد9), «فيلوبوليس» المناهل" مايو 1978م, (العدد11), «هَلَّ الشِّعرُ»"منتدى الشعر" مايو 1988م, (العدد5)" ([81]).

وشعرُهُ يتنوع "بين المحافظة على عمود الشعر القديم مع الميل إلى التشطير والتخميس، وبين اعتماد السطر الشعري مع المحافظة على الوزن والتنويع في القافية، وتارة يسعى للتنويع في الإيقاعات، تتنوع موضوعاته بين أغراض الشعر القديم من مدح ورثاء، وموضوعات جديدة عن الطبيعة والقضايا العربية المعاصرة، تميل قصائده إلى إعمال الذهن والاعتماد على التحليل والتفكر فيما يتناوله، في شعره نزعة قومية وفي بعض قصائده ميل إلى السرد والقص، واتجاه إلى الرمز" ([82]).

وللأستاذ كنون أيضا؛ ديوانان شعريان أحدهما بعنوان:"لوحات شعريَّة" والآخر "إيقاعات الهموم", قد اختار لهما اسمين جميلين, يناسبان مستواهما, فإنَّ العنوان هو العتبة التي تعدُّ مدخلا جذَّابا سهل الولوج إلى المضمون, ومصراعا يستهوي القارئ إلى تصفُّح الكتاب ويغريه بقراءته.

إنَّ مراعاة الأستاذ لجمال البوابَة المفضيَة إلى صُلب التَّأليف, يدُلُّ على نباهَةٍ دقيقَة, واهتمام راقٍ بفلسفَة العنوان, ونحن إذا تأمَّلنا جيِّدا العنوانين الذين اختارهما لديوانيه وجدناه كأنَّما أرادَ أن يقسِم شعره قسمَةً عادِلَة, ففي حين يدُلُّ "لوحات شعريَة" على البهاء والجمال والصُّور الفنِيَّة والمباهج, يدُلُّ الثَّاني على الهموم والبلايا والويلات.

وهما لونا الدُّنيا, وهل الحياة إلاَّ ذلك؟!, وهل النَّاس إلاَّ شقِيٌّ وسعيد على وجه هذه البسيطَة؟!

والذي نراه؛ أنَّ الأستاذ حدت به ذروةُ الذَّكاء إلى ذكر لفظ الإيقاعات بجانب الهموم, كأنَّما

[81]- ينظر موقع المجلس العلمي لعمالة طنجة: *majlisilmi-tanger.ma*
[82]- المرجع نفسه.

يخفف لنا من الأسى الجارح الذي يقع على القلب وقعا ثقيلا, ولا يريدُ أن يطبعَ على صفحات فؤادِ القارئ ما يؤثِّر عليه سَلبيًّا فيُخرجُه إلى اليَأس, إنَّما يتوخَّى رسم أطياف الهموم وطبقات الغموم على نحوٍ ثقافِيٍّ ينتُج عنه التَّفتُّح والتَّعاطُفُ وارتفاع منسوب الحنين والوجدان, ليعِيَ المطالع همسات القلب, وأنين الإنسان في لفحات الأيَّام وتوهُّج أحداثِها, حتَّى يكتمل نُمُوُّه الرُّوحي في إطار التَّحضُّر والرُّقي ومعاملة الهموم معاملةً شاعِرِيَّةً فنِيَّة.

ذلك أنَّه يجتني النُّور من آلامها, ويستفيد من نيرانها؛ فيُخرجُ منها إيضاءاتٍ, ويُحوِّلُ ضرباتها إلى إيقاعات في دروب حياته, فإنَّ الذي يستفيدُ من خساراته أفضَلُ من الذي يستفيد من الأرباح.

إنَّهما كلمتان "إيقاعات" بإزاء"هموم" أفادتنا تركيبا أنيقا يترشَّحُ منه أنَّ صاحب الدِّيوان يهُمُّه أن يجعلك رُغم الهموم المتناوبة, متطلِّعا من ورائها إلى الرنَّةِ والطَّرب, كمثل الغموم المتواكِبَة حين يؤمِّلُ منها النَّاسُ غيثا مغيثا, وماء يشربونه هنيئا مريئا.

وأمَّا العنوان الثَّاني "لوحات شعريَّة" ففيه من الإيحاءات وسعة الثَّقافة التي أوحت به, ما يدُلُّ على فنِيَّة الأستاذ وبراعته, فهو كتابٌ يجمعُ الصُّور الفنِيَّة الجميلة, إذ نحنُ كثيراً ما نقرأ شعراً فتتمثل لنا من خلاله صورة ترتسم في مخيلتنا وكأنّا نراها رأي العين فتثير لدينا إحساسا رشيقا عميقا بالجمال, حتَّى كأننَّا ننظر إلى لوحة رسام في معرض راقٍ، وتُفند لنا بذلك مقولة المغرضين أن الشعر العربي الأصيل بخيل بالصور والأخيلة والفن وبُعد الأفق, فهذا ما رامه الأستاذ فيما نتصَوَّرُه, وإنَّه لتفكيرٌ أثيل, وتصويرٌ فائق جميل, هنا حيثُ يلتقي الفَنُّ التَّشكيلي مع الشعر فيبدع لوحاته, وحيثُ "الطبيعة توحي والشَّاعرُ ينطِقُ" ([83]) فيذهبُ عاليا في فنِيَّاته, وإنَّ في تراثنا العربي لألوانًا زاهية منه, وأنواعًا ماثلةٌ به, فلله دَرُّه.

فهو سليس الأندلسيين الذين برعوا في الوصف, وحسبك مثلا قول شاعرتهم:

وقانا لفحَـة الرمضــــاء وادٍ ** سقاه مضاعفُ الغيث العميم.

يَصُدُّ الشَّمـــس أنَّى واجهتنا ** فيَحجُبُــها ويــأذَنُ بالنَّسيــم.

---

[83]- هذا عنوان مقالة نافعة, يُنظَر: محمد عبد الغني حسن "الطبيعة توحي والشاعر ينطق" مجلَّة الرسالة, مصر, العدد 549 - بتاريخ: 10 - 01 – 1944م, ص22.

وأَمَّا كتابةالأستاذ عن الشُّعراء فلا تسأل عن البحر وغورِه, ولا عن المطَرِ وقَطْرِه, فقد صال وجال وترجم ونقد, ولم يزل طوال حياته يدفع بالمدَدِ تلوَ المَدَد.

ومثال ذلك؛ نشرُهُ ديوان الناصر ابن الأحمر , يوسف بن يوسف بن محمد (الغني بالله) ابن يوسف النصري أبو الحجاج، الملقب بالناصر، من بني الأحمر: شاعر من ملوك الأندلس من سكان غرناطة, وسمَّاه " ديوان ملك غرناطة " , قدَّم له بمقدمة رائعة يبحث فيها عنه وعن شعره، كما كتب بحثا سمَّاه "أنجُم السِّياسَة وقصائد أخرى, ([وهو] دراسات أدبيَّة عن نماذِجَ مِن الشِّعر المغربي النَّادر), [نشرته] مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة1401هـ/ 1989م" ([84]).

بل إنَّه كان متفرِّدا في بحوثه عن القصائد وأربابها, مستدركا على الدواوين ما فات جامعوها من شعر أصحابها, وهذه المقالة التي عنونها بـ "نبذة من شعر إبراهيم بن سهل ليست في دواوينه المطبوعة" ونشرها في مجَلَّة "المجَلَّة" جـ 52 ص13؛ إحدى الشَّواهد على ما نقول.

وهذا أبو إسحاق الألبيري الأندلسي كتب عنه الأستاذ بحثا نشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق 49: 21 – 33, وممَّا قال فيه: "شعره كله حكمٌ ومواعظ ", وهذا وصفٌ وإخبار, بيدَ أنَّ الأستاذ عاشَ ذوَّاقَةً للشعر يميِّزُ جيِّدَهُ من رديئه, فلا تنطلي عليه مواطن الضَّعف فيه, ولا مكامن الحُسنِ لديه, وتلك هي اليَقَظَةُ النَّقدية التي تُسَدِّد ولا تهدهد الشَّاعر لينام, ولا القارئ ليكون من صرعى الحِمام, مِمَّن تكون أذواقُهم كالخشُبِ المسَنَّدَة, وأفهامهم مُبلَّدَة, متحجِّرَة غير مفَسِّرَةٍ ولا متحَرِّكَة, وهل ينفعهم أن يهتزُّوا دوما بواسطة أريكة, أو تحتفي بأمثالهم أمريكا !!, إنَّهم النَّعشُ تحملُه الأيادي لتدفِنَه في مقابر المشاعر الرَّكيكة!

إنَّ المقبرة الشُّعوريَّة عند بعض الأموات من الأحياء القارئين لا تعرفُ "تداعي الأفكار"، و"الخيال المرجع"، ممَّا يُذكَرُ من مصطلحات لها دلالتها العميقة في علم النفس, لكنَّ الأستاذ كان عكس هؤلاء وخلافهم بل موجِّها لهم, يرفُلُ في حُلَلِ الحياة, ويتجوَّلُ بين نغمات السِّنين وهمسات الدَّهر بما فيها من تجارب ومآربَ وخيالات, مستَقِيا من عُيُون الحكَمِ والآداب, ملتَقِيا بالأعلام من الكُتَّاب, غارفا من منابع النَّثر عارفا ببدائع الشِّعر عازفا منهما روائع

84- د. إبراهيم بن أحمد الوافي"عبد الله كنون العالم المصلح" ص 161

الأغنيات, فتوحي إليه الأشعار الخَيِّرَة النَيِّرَة الزكِيَّة وتُفيضُ على خاطِرِه جميل المعاني, وروائح المسك البياني, وتُكرمه من ثمر البلاغَةِ الوجداني, وتوقضُ في واعيته الشُّعوريَّة أطرفا ملوَّنَةً من الأمجاد, وتُحفَا فاتِنَةً من ماضي الأجداد, فيجدُ ضميره نشوان, ورجليه تمشيان فوق الثَّرى من الخِفَّة والرَفرفَةِ والتَّنفيس, والذكريات الحلوة التي ترقى به إلى معالي الأحلام وشوامخ الأفهام والأحاسيس, وتصعدُ بكيانه إلى حيثُ النُّبل والسَّعادَة والاعتزاز والإيمان, فيُحلِّق بأجنِحَةٍ تخفِقُ بقُوَّةٍ وجدانِيَّة وهَبَّةٍ فنِيَّة في اهتزاز وطَّيَران, وبكُلِّ رفعَةٍ ومطربَةٍ وسرور.

من هنا كان الأستاذ يهتزُّ للقصائد الرَّنانة الهتَّانة فتعجِبُه, وتأخذُ بمجامع قلبِهِ وتَجذِبُه, وتستولي على لُبِّه وتسلِبُه, وتفعلُ فيه ما تستوجِبُه من تأثيرِها الفعَّال, عليه وعلى أمثاله من الذين لهم القابلِيَّة لهذه الأنواع الذهبية من الانفعال, وهذا ما يدعوني بكُلِّ سبيلٍ, إلى أن أنظُمَ مُترنِّما من بحر [الطَّويل] قائلا:

ولا بُدَّ إن مَـرَّ النَّسيمُ يهُـزُّ مَن ** يكُن غُصنَ فَنٍّ في رياضِ المشاعرِ.

ومن ليس يهفو للجمـــال بخفقةٍ ** مِنَ الـرُّوح تعليـه بأبهـى المنـــاظر.

على قلبه هِيلَت أضالِـعُ صدرِه ** وجَـوفُ صدورٍ مثلَ جوفِ المقابر!

وأيضا؛ فقد دوَّنَ الأستاذ في البلاغة شذارات وقطعا غنِيَّةً بالتَّحقيق, جديرَةً بالقراءَة والتعليق, من ذلك بحثُه المسَمَّى"الجناس وأنواعه في منظومة أبي طاهر الهواري قاضي فاس" المنشور في "المجلة" جـ 38 ص16.

وفي هذا الصَّدد كتب تحت عناوين شتَّى في الشعر والشعراء والشخصيات، وأصدر في الأدب والنقد وتحليل النصوص دراسات، ونحن نذكر منها ما يأتي:

- أنجُم السِّياسَة وقصائد أخرى, (دراسات أدبيَّة عن نماذِجَ مِن الشِّعر المغربي النَّادر), مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة1401هـ/ 1989م.
- أمراؤنا الشعراء (منتخبات من عهد الأدارسَة إلى العلويِّين), المطبعة المهدِيَة بتطوان سنة 1361هـ/1941م.

فالواقع أنَّ الأستاذ بحقٍّ -كما قيل- "من ألمع جيل الرواد الذين بنوا النهضة وناضلوا من أجل الاستقلال بالفكر والعلم والقلم، تميز منذ وقت مبكر من حياته، بالنبوغ والتفتح والقدرة على مسايرة الركب الحضاري والثقافي الذي قدر أن تبدأ انطلاقته من المشرق العربي، ولكنه لم يكتف بالمسايرة، بل قادته مواهبه ومؤهلاته وشخصيته إلى السبق، وإلى التفرد، وإلى التميز عن أقرانه وخلانه، فكان مثالا نادرا للعصامية، وكان نسيجا وحده حقا وصدقا، فهو أمين عام رابطة علماء المغرب الذي لم يدرس بجامعة القرويين، ولا في كلية ابن يوسف، [ومع ذلك ألَّفَ كتابه "معارك" دفاعا عن القضِيَّة المغربيَّة إبَّان الحمايَة والقضِيَّة الفلسطينِيَّة, وضمَّنه المنافحة عن قضِيَّة التعليم الأصيل بالقرويين وإصلاح الدراسة فيه وبعثه على الأصالة والتَّقدُّم, ذلك على غرار أمثاله من الرُّواد كالطَّاهر بن عاشور التُّونسي الذي كتب مؤلَّفَه "أليسَ الصُّبحُ بقريب"قصدَ "إصلاح الحالَة العلميَّة بالقيروان, "وهي الحالة التي يُحفَظُ بها قوامُ حياتنا القومِيَّة وبقاءُ مميِّزاتنا" كما قال ([85])] ولا تخرج من مدرسة أو معهد أو جامعة، وهو الكاتب والمؤرخ الصحافي والشاعر، وعضو العديد من المجامع العلمية واللغوية والإسلامية، الذي لم يكن يحمل مؤهلا جامعيا، وهو مؤسس النهضة التعليمية في طنجة، وباعث الروح العربية والإسلامية في أبنائها، ومنشئ أول مدرسة حرة بها، ومربي الأجيال، الذي لم يكن قد دخل مدرسة لتلقي العلم في أية مرحلة من مراحل حياته الحافلة بالعمل والعطاء والإنجازات التي تتضاءل أمامها أعمال بعض كبار حملة الإجازات والمؤهلات العليا.. خلف كنون أثرا واضحا في الدراسات الأدبية، وفي كتابة التراجم، وفي تحقيق المخطوطات، وفي إصدار الصحف والمجلات وإدارتها والإشراف عليها وتزويدها بالمادة المتنوعة الغنية، وفي العمل الأكاديمي والمجمعي، وفي الدعوة الإسلامية بالحكمة وبالعقل السديد وبالأناة والحلم وسعة الصدر واستنارة البصيرة.

ولا تزال كتب كنون مراجع هامة تطلب في الجامعات، وتدرس، وتدور حولها الرسائل والأطروحات، ولا تزال جوانب عديدة من حياته في حاجة إلى البحث والدراسة وتسليط الأضواء، فهو شخصية متعددة العطاءات، غزيرة الإنتاج، وجديرة بكل عناية

[85]- محمد الطَّاهر بن عاشور "أليس الصُّبحُ بقريب: التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخيَّة وآراء إصلاحِيَّة" نشر مشترك بين دار السَّلام, القاهرة- مصر, ودار سُحنون, تونس, ط 2, سنة 1458هـ/2007م, ص 215 .

واهتمام"([86]).

فلا جرم أن كانَ "أُستاذَ الجيل, تفتَّحت على يديه بوادر النهضة المغربية الحديثة" كما يقول عنه الدكتور محمد عزيز الحبابي ([87]), ويُعلن الدكتور التهامي الراجي الهاشمي إعجابه قائلا: "الأستاذ العظيم, أديب المغرب وعلامة العرب والإسلام في القرن العشرين عبد الله كنون, إني أقرأُ فيض عبقريته في كل شهر بمجلة مجمعنا العلمي العربي بدمشق أو بمجلة "دعوة الحق" بالمغرب" ([88]).

وهذا الهلالي من الذين أشادوا بالأستاذ كنُّون كثيرا, فها هو يقول عنه في مناسبةٍ أخرى: "الأديب العبقري والمؤلف الموفق فخر المغرب في هذا الزمان الأستاذ عبد الله كنون عضو المجمع العلمي في القاهرة" ([89]).

وقال ساردا حادثَةً جرت له:

" ولم يكن لي أحد أستشيره إلا عالم المغرب وأديبه العبقري في هذا العصر الأستاذ عبد الله كنون لثقتي بحصافة رأيه وإخلاصه النصيحة فاستشرته"([90]).

وتلك هي عاجل بشراه بالتَّحديد, وكونه من أهل المشورة والخبرة والرَّأي السِّديد, وهو الأمر الذي انعكس بوضوح على اختياراته الفكريَّة وآرائه العلمِيَّة في مجال النَّقد والأدب، والتي نحاول أن نعرض منها ما تسمح لنا به رقعة هذه الرسالة في المبحث الموالي.

[86]- ينظر موقع المجلس العلمي لعمالة طنجة: *majlisilmi-tanger.ma*

[87]- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح" نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث, الرباط, المغرب, ط 1, سنة: 1434هـ-2013م, ص39.

[88]- المرجع نفسه, ص39.

[89]- د. محمد تقي الدين الهلالي "الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة" مكتبة الصَّحابة, الإمارات- الشَّارقة, ومكتبة التَّابعين, القاهرة- عين شمس, ط 1, سنة 1424هـ/2003م, ص72-73 .

[90]- د. محمد تقي الدين الهلالي "الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة" ص118 .

المبحث الثالث: أفكاره النقدية وتطورها من خلال أحكامه وقراءاته:

لا شكَّ أن قراءات الأستاذ كنُّون للمجلات ومطالعاته للدَّوريات ونظره في الجرائد, وإجالة بصره في الكتب والمصَنَّفات, وقيامه بالرحلات واتصاله بالأدباء في العالم ومعاينته لأخبارهم ودرايته بأحوالهم, وتتبُّعه لأفكارهم؛ كُلُّ ذلك جعل فكره يزدادُ سعةً على الأيَّام, وتطوُّرا على الدَّوام.

إنَّ عبد الله كنُّون واحة من نخيل, وقلمٌ يسيل, وفكرٌ أصيل, لكن القلم يخونه أحيانا فتراه تارة يجادل عن غير الأسوياء, أو ينشُرُ لهم ما يتنَزَّهُ من ذكره فضلا عن نشره النُّبلاء, فهو -مثلا- قد أودع كتابه: "النبوغ المغربي" الصلاةَ المشيشية التي تنضح بالشرك والبدعة وأمثالها على أنها من التراث الأدبي الرقيق دونَ أن ينتبه، ويمدح في كتابه: "أدب الفقهاء" قصائد لمتصوفة غلاة كالقصيدة الدالية لليوسي في مدح شيخه ابن ناصر الدرعي, وهي على خلاف المذهب العقدي للأستاذ, ومنهجه الأخلاقي الفنِّي في تذوُّق النُّصوص.
وربَّما كان شفيعُه في بعضِ ذلك إبَّان تلك المرحلة؛ مشكلَة العجلة, والفتوَّةُ الماثلة, كما في مواضع من كتابة "النبوغ" فإنَّه ألَّفه وسنُّه دون الثَّلاثين, وأنت ترى لو تأمَّلت ثورة الشباب في دمه, ولمحتها وسط كلامه؛ كأنَّها سطور تريد أن تطلُع متحَرِّكَةً من مكانها فتنطَلِقَ وتطير!, مريدَة على أحسنِ تقدير؛ جمع ما يدلُّ على نبوغ المغاربة في الأدب, متطَلِّعَةً إلى الغاية النَّبيلَة بسرعةٍ جعلت بعضَ الحَيَّات في حِزَم الحطَب !

والرَّأيُ عندنا أنَّ غلواء النَّظر في فترة الفتوَّة الشَبابيَّة يرمي بجران العجلَة على الرَّأي فيمسي وبينه وبين الصَّواب كبير بون, بما يصبغه بصبغةٍ يصيرُ فيها شاحب اللَّون, محتاجا من الرَّزانة والتَّورُّدِ والتَّثَبُّتِ أكبَر عون, حتَّى يسيطر على مشاعره وأفكاره ولا تذهبَ الثَّانِيَة في مهَبِّ الأولى!

غير أنَّه تفادى ذلك فيما بعدُ من مؤلَّفات، إذ تطورت أفكاره بتعدد القراءات، وتقدُّم السِّنين، وها هو يقول في طبعته الثانية لكتابه "النبوغ":
"فإنَّ الحاجة أصبحت جدُّ ماسَّة إلى إعادة طبعه، وتقديمه وثيقة وسندا إلى جميع هؤلاء

الذين يهمُّهم الوقوف على تاريخ المغرب الفكري وماضيه الحضاري. ولكن بعدَ مراجعته طبعا وتجديد النظر في محتوياته من مادةٍ وفكرةٍ وترتيب، ضرورة أنَّ المعلومات التي كانت لدينا زمن تأليفه هي غير المعلومات الآن، والتَّفكير وسائر وسائل العمل، قد تطوَّرَت بتطَوُّر الزَّمَن، فلم يكن بدٌّ من إدخال تعديل جوهري عليه يتلخص فيما يلي:

أوَّلا – إضافة المواد الجديدة التي وقفنا عليها بعدُ.

ثانيا – تصحيح بعض الأغلاط التي وقعت لنا في كتابة بعض التراجم، ونسبة بعض الآثار الأدبية والعلميَّة لغير مَن هي له، والحُكم في بعض المسائل بما ظهر لنا خلافُه وما إلى ذلك.

ثالثا - تحرير بعض الفصول من التأثير السياسي والعاطفي الذي كتبت به، نتيجَةً لما كان المغرب يمرُّ فيه من ظروف سياسية، وأحوال اجتماعية معاكسة لمطامحه العليا وآماله الكبرى.

رابعا – تحوير في التصميم الذي وضع عليه الكتاب، ... وإلى هذا فقد أضفنا زيادات كثيرة إلى غالب الفصول، وخاصة فيما يتعلق بنهضة الفنون ومشاركة المرأَة في مختلف مجالات النَّشاط الفكري للشَّعب" ([91]).

هذا في الوقت الذي كانت فيه المرأة الغربية إبَّان تلك الفترة من خمسينيات القرن العشرين، ولاسيما في المجتمع البريطاني جارية مع الحركة النسوية معلنة عدم موافقتها على "مفهوم الثقافة السَّائد لأنَّه في رأيها مفهوم من اختراع مؤسسات الذكور ... وأنَّه سليل الخطاب الذي طمس ولا يزال يطمس الرؤية النسوية للعالم وللمفاهيم الثقافية. وفي خضم هذا النقاش المتزامن بالنضال اليومي في الميدان، لم يتوقف النقد النسوي الغربي عند تخوم نقد العلاقات اليومية النمطية المتكررة وغير العادلة بين الذكور والنساء؛ بل إنه قد امتد إلى تفكيك ما يسمى بالخطابات المكرِّسة لدونية المرأة وتفوُّق الرَّجُل" ([92]).

أمَّا الأستاذ كنون فما كتبه عن المرأة ومشاركاتها العلمية والأدبية والشعرية والنقدية والإبداعية فشيء يزري بما كتبه الغربيون، ويكفينا منه تقييمه هو لمجهوده في ذلك بما علمناه عنه من عدل وإنصاف، وابتعاد عن الإجحاف؛ حيث يقول:

---

[91]- عبد الله كنُّون "النبوغ المغربي في الأدب العربي" ص 11-12

[92]- أزراج عمر "حروب الملوَّنين مع الأساطير البيضاء" مقالة بجريدة الشروق الجزائرية، العدد: 4543، ص 21 .

"وبعض الكلمات في هذا الصدد، وهي جهد المقل، تفوق ما كتب بشأنه في بعض التواريخ العامة للأدب العربي جملة" ([93]).

بيدَ أنَّه فيما بعدُ ازداد نضوجا, وتطَوَّرَت دِقَّته العلمية, ومساحة أفكاره النَّقدِيَة عبر الزَّمن, وتجَلَّت في أعماله التي ظَلَّت تترى, وتُسرِعَ إليها مطبعَةٌ لتَسبِقَ أُخرى، وتهرع إليها مكتبةُ لتبيعها وتُثرى!

من هنا يأتي الكلام عن المَكاتب.

اهتمامه بالمكاتب ودورها النقدي الغائب:

بيَّنَ الأستاذ كنون "أنَّ السُّلطان المريني أنشأ بالقرويين خزانة كتب أودع فيها الكثير من "الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها وأجناسها"([94]).

إنَّ كنونا أعطى للمكتبة الدور العظيم والأهمِيَّة الكبرى والمنزل الهائل, بحيث لم يكن يفهم دورها كما يفهمه الكثير من الأدباء, إنَّها عنده المكان العلمي الفسيح الذي يتسنَّى في أفيائه للباحثين التعليم والمذاكرة والتوجيه والمناظرة وكلُّ ضروب العرفان, هي إذن؛ الصحائف تقابلها الأقلام, والكتب معها مساجلات الأدباء والأعلام, ولطائف المعارف ونكت المسائل ودقائق الأفهام.

ولا يخفى أثَرُ ذلك في تقويم مسار, وإقالَة عثار, والزيادة والإكثار من الخطى الثابتة الناجحة في سير العلميَّة النقدِيَّة في الأمَّة وفي المجتمع, ولدى الأدباء والمتأدِّبين.

فالمكتبة من أعظم ما يُؤثِّر على مَلَكَةِ طالب العلم وتَمَكُّنِه في العلوم, ولكون الأستاذ عايشها عصامِيَةً ودوامِيَةً وولزوما بالقراءة والبحث؛ فقد كتب من وحي تجربته مقالة بعنوان: "هل للمكتبة أثر في تكوين المثقف؟" في مجلة معهد المخطوطات (مج 9 /جز 1/ ص47) ونشره الشيخ الدكتور محمد موسى الشريف من جديد في كتابه النفيس (الاختيارات من مجلة معهد المخطوطات (62).

---

[93]- عبد الله كنُّون "النبوغ المغربي في الأدب العربي" ج 1/ص 12

[94]-عبد الله كنُّون التعاشيب" تطوان المغرب, ص88. بواسطة بحث "تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها" فضيلة الدكتور/ ناصر بن سعد الرشيد, المنشور في الكتاب: "ندوة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية" (ص480 وما بعدها).

ولم يكن يبخَلُ على أحدٍ بكتاب, بل كان سخيًّا يفتح الباب لكُلِّ طارق, حتَّى إنَّ بعض الكتب التي لم يعثُر عليها الباحثون وجدوها عند الأستاذ كنُّون, وأمدَّهُم بسوادها كيما تكتحل بها العيون, فهذا الأديب الوزير عبد العزيز محمد بن إبراهيم الفِشتالي (956 - 1031 هـ) كانت له مؤلفات ([95])، منها "مناهل الصفاء في أخبار الشرفاء - ط" قسم منه.

وهو في الأصل كبير، كانت منه مخطوطة كاملة في المغرب وفقدت حوالي سنة 1317 هـ؛ ثم وجد منه مختصر الجزء الثاني، في خزانة السيد عبد الله كنون، بطنجة" ([96]), وهذا "المالقي (000 - 574 هـ) عبد الله بن محمد بن عيسى الانصاري، أبو محمد .. شاعر، أصله من مالقة ... ويرجح أنه صاحب القصيدة المسماة " أنجم السياسة - خ " في المكتبة الكنونية بطنجة.قوبلت على نسخ أخرى ونشرت في مجلة مجمع اللغة العربية 98 بيتا في تدبير الملك وسياسته" ([97]).

فكان الأستاذ كنون هو الذي نشرها, وكانت مخطوطَةً في مكتبته, وفي ذلك كلُّ الدَّلالة على عنايته رحمه الله تعالى بالكتب وعلوقها بنفسه وأنَّها مصدر من مصادر ضخِّ الحياة في نفسه الكريمة المتلهِّفَةِ للعلم طوال أيَّامه.

كما أنَّه ساعد الكثير من الباحثين في الوصول إلى مرادهم من المخطوطات, ليس بدلالتهم على مواضعها حسبُ, بل بموافاتهم بها وإرسالها إليهم من مكتبته الخاصَّة بين جدران بيته العامر, فلقد تكلَّم الأستاذ قدري حافظ طوقان عن ابن الياسمين الشَّاعر الذي كان بارعا في العلميَّات كبراعته في الشِّعريات, منوِّها بفضل الأستاذ كنون في خلال ذلك قائلا:

95- كنيَتُه أبو فارس, وهو الذي بارى لسان الدين بن الخطيب في قصيدته التي مدح بها أبا سالم المريني:
أطاع لساني في مديحك إحساني *** ولقد لهجت نفسي بفتح تلمسان.
فأنشد نونيته العصماء في تهنئة أبي العباس أحمد المنصور بالنصر على الجيش البرتغالي الذي هجم على المغرب وسواحله, في معركة وادي المخازن التي شُبِّهت بغزوة بدر الكبرى, واصفا بلاء جنوده في هذه المعركة التاريخية التي لم يواكبها الشاعر في وقتها، ومطلعها:
هم سلبوني الصبر والصبر من شاني *** وهم حَرَمُوا من لذة الغمض أجفاني.
فكانت هذه القصيدَة الرَّائعة بالمغرب, كقصيدة أبي تمَّام الذَّائعة بالمشرق؛ حين خلَّد مشاهد المعركة التي انتصر فيها المعتصم على النَّصارى في فتحه عمُّوريَّة, والتي أوَّلُها:
السَّيفُ أصدَقُ إنباءً مِنَ الكُتُبِ ** في حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعب.
وانظُر: د. عبد الحق المريني "مجلة التَّاريخ العربي".
96 - خير الدين الزّركلي "الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين" دار العلم للملايين – بيروت, ط 5, سنة 1980م, ج 26/4 .
97 - المصدر نفسه, (123/4).

"فابن الياسمين وضع أرجوزة في علم الجبر وقد شرحها كثيرون. وفي هذه الأرجوزة نجد خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التي يجدها القارئ في كتب الجبر الحديثة. وتدل الأرجوزة على تضلع الناظم في الجبر وبعد غوره فيه، على أن ثروته الأدبية لا يستهان بها، وتدل أيضاً على أن لديه شاعرية قوية قد لا نجدها في كثيرين من شعراء زمانه، وإني أعتقد أنه لولا إحاطته بالجبر والشعر إحاطة كلية لما استطاع أن يضعهما في قالب سلس جذاب. ولدينا نسختان من أرجوزة ابن الياسمين، أخذنا الأولى عن مخطوطة قديمة موجودة في المكتبة الخالدية في القدس وهي (شرح الياسمينية للمارديني)، والثانية أرسلها إلينا الصديق الأديب عبد الله كنون من شباب طنجة بالمغرب ومن نجومها اللامعة في سماء الشعر والتاريخ"([98]).

ولقد هيَّأت الأقدار للباحث عبد الصَّمد العشَّاب أن يعمَلَ فهرَسَةً نافعة للمخطوطات الموجودة في مكتبة الأستاذ وجعل عنوانه: "فهرس مخطوطات مكتبة عبد الله كنُّون", وطَبعت وزارة الأوقاف عمله هذا سنة 1996م, ووضعته عندها تحت رقم (10336).

وأمَّا الأستاذ كنُّون فلإلمامه الكبير بالمخطوطات, وكونه بها عالما خبيراً, كتَبَ مقالة بعنوان: "المخطوطات العربية في تطوان" نشرها في "مجلة معهد المخطوطات العربية": المجلد الأول: الجزء الثاني ص: 170 - 189، سنة 1955م, وغير ذلك كثير، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنُق.

إنَّ أفكار الأستاذ تلوِّحُ في الأُفُق، وهي كما تطور من رأي إلى آخر، تتدرَّجُ أيضا من فكرةٍ إلى عمل، ومن نظرةٍ إلى موقف، فالرجال تعبر عنهم المواقف, فهي أيضا نوعٌ ثانٍ من التَّأليف, فلئن كانت الكتابة هي رقمٌ على ورق, فالأحداث التي يصنعها الرجال هي تسجيلٌ على صفحات الأيَّام , وربَّما كان وقعُها, وغدا أثَرُها أخلد من الكتُبِ على وجهِ الزَّمن.

ورحمَ الله الإبراهيمي الذي قال:" إن كان حظي من التَّأليف قليل فسلواي أنَّني ألَّفت للأمَّة الكثير مِنَ الرِّجال".

---

[98] - قدري حافظ طوقان"الرِّياضيات في الشِّعر" مقالة منشورة في"مجلة الرسالة" العدد 63 - بتاريخ: 17 - 09 – 1934م, ص36.

من هذا المنطلق فالذي يقدِّمُ للأُمَّة في نطاق النَّقد الأدبي خدماتٍ ممتازة في مجال التَّصنيف, يجُبُ أن يُعَدَّ معها جهوده وآراؤه الممتازة التي أسهم فيها بالبناء لدور النَّقد ومؤسسات الأدب, وما أنشأَه من جرائدَ أثرت العمليَّة النَّقديَّة في الأُمَّة بما فتحت للكتَّاب من حقَّ الرَّد, وبما أسدت للأقلام من حريَّة التعقيب, بل حتَّى بما نفعت النَّاس من ولوج بوابَة التجريب كتابَةً ونجابة , وترويضا للأيدي الراقمة, وتقويما للأخطاء النَّاجمة, وذلك لعمري مبدأ النَّقد الذي لا يبلغ مداه فيصير طليقا, ويصبحَ عاليا أنيقا؛ إلاَّ بالتعليم تنظيرا وبالتدريب تطبيقا .

وبيِّنٌ أنَّ ذلك يدخُلُ في إطار الجهود غير المباشرة في إثراء حقل النَّقد , وتلك توطئة لما يُباشِرُ ميدانَهُ من جهود, فالنَّقد ليكونَ منبثقا صادقا يحتاجُ مناخا , حتَّى لا يكونَ ادعاءا ويصير انتفاخا؛ وإنَّ من لطَّف الأجواء العلميَّة فهو مسهِّلٌ لعمليَّة الإبداع التي يلزم عنها النَّقد الشَّخصي في زمنِ الإنتاج, والنَّقد الغيري فيما يتلوه من احتجاج , سواء كان بذل الحجَّة من الآخر هجوما على وجهِ المنازعة, أو بذلها من المبدع المنتج بطريق المدافعة, فكلاهما يدخل دائرة النَّقد.

بيدَ أنَّ الغالب كونُ النظر يميل إلى جهة النَّاقد المخالف, في مقابل عامَّة المدافعين عن بنات أفكارهم ربَّات قرائحهم لمجَرَّدِ أنَّها منسوبةً إليهم وأنَّهم مبدعوها , ومعلومٌ أنَّ الرَّدَ لأجل الرَّد والنَّقد لأجل النَّقد والأهواء الشَّخصيَّة لا يلتقي مع العلم بسبيل , وليس منه في قليل ولا كثير, إذ هو يعودُ بالعلم أدراجَه, ويطيحُ منه أبراجَه , ومحالٌ أن يتقَدَّمَ به إلى الأمام , بخلاف النَّقد الذي يمضي قُدُما بالفنون وبالعلوم وبالأفهام, فيزيدُ أضواءه إشعاعا في فضاء فنِّ الكلام , صياغَةً وأناقَةً وجمالا.

وإذن فهذا الجو النَّقدي لا يحيى إلاَّ في إطار الأجواء العلميَّة الحيَّة المتحرِّكة لأنَّها تلتقي مع

طبيعته, فهو فوَّارٌ موارٌ بالأريحِيَّة والموضوعِيَّة والتطوُر والاهتزاز, تلك التي يحدوها الاندفاع وتصحبُها الخِفَّة ولا يُناقِضُها أنَّها في الوقت نفسِهِ ذاتُ توازُنٍ ورصانَةٍ وارتكاز, متمَتِّعَةً بكُلِّ نشاطٍ معه انضباطٍ وحسنُ سياسَة, وانتعاش معه افتراشٌ للكياسَة, وتأنٍّ وسلاسَة.

من هنا؛ فإنَّ الهياكل التعليميَّة التي شملت النقد وكانت عليها بصمة الأستاذ كنون واضحة, لاسيما في عهد وزارته وحكمه لبعض نواحي المغرب.

ولا ننسى أثر المطبعة في تطوير الحركة العلميَّة بوجه عام والحركة النَّقديَّة بوجهٍ خاص ولاسيما ما كان منها نقدًا أَدَبِيًّا, لذلك ترى على طول امتداد التَّاريخ العربي الشعراء والأدباء أكثر من العلماء المعتنين بالمجالات الدينِيَّة والصِناعِيَّة والذين يقتسمونَ الدِّراسَة في شيئين :

1- البحث في الوحي الإلهي دينِيًّا.

2- والبحث في الإنسان والمادَّة كونيًّا.

فلو حاولنا إحصاء أدباء هذه الأمَّة لوجدناهم أقَلَّ من علمائها , ومن حسن حظِّ الأستاذ كنُّون أنَّه كان جامعا للفضيلَتين فكان أديبا رائدا, وعالما دينِيًّا قائدا, ولا يضُرُّه –بعد ذلك- أن كان حظُّه في العلوم الصِّناعِيَّة من أَقَلِّ الحظوظ, وحسبُه فيها أنَّه قدَّم لخدمتها ما يشكرُ عليه من جودَةِ رأي وحُسن توجيه وسياسَة.

بل لقد استفاد الأستاذ في ريادته المشار إليها آنفا من منهجية "علم الحديث" لأنَّه الأصل للمناهج الأدبية في القديم والحديث، فعلم التاريخ لم يستقي مناهجه سوى من علم الحديث وكان تابعا له تبعيَّة الأصل للفرع، خلافا للأدباء الذين استلهموا الدراسات التاريخية في أعمالهم الأدبية وعولوا على مشيل فوكو وأمثاله، ممن لا يخلون من سواد، فرأي الأستاذ ظل ولم يزل مرتكزا كما ارتكز الأديب ابن قتيبة في إفادته من العلوم الحديثية في اختياراته الأدبية من جهة المنهج والتعامل مع النصوص، معولا في أطواره كلِّها ما في هذا العلم من

تأصيلات علمية وقواعد معرفية وقوانين عقليَّة فلسفيَّة، كان البحثُ فيها منشئا لعدَّة علوم من جهة, ثُمَّ هو معينٌ لكثير من هذه العلوم على تشكُّل ماهِيَتها, ذلكَ أنَّها اقتبست منهما قد جاء فيه من تأصيلات وتقعيد, والمقصود بالخصوص الأدباء في أدبهم وعملهم النَّقدي, فهذا ابن قتيبة لم يكن مفيدا أكثَر الإفادَة في أدبه سوى من علم الحديث وقواعده, وهو علمٌ له من الأهميَّة من هذه النَّاحِيَة ما بيَنه الأستاذ كنُّون بيانا شافيا, مستدركا على الباحثين , مصحِّحا صورةً صنمِيَّة رائجة عند حملة الأقلام, مكسِّرا ذاك الصَّنم من جملة الأصنام.

يقول الأستاذ: "وعرف عن الرواية العربية أنها لا تهمل شيئا ، وأنها تنقل الصحيح والباطل والمشتبه فيه ، والسلبي والإيجابي وما هو في صالح القضية وصاحبها وما هو بخلاف ذلك ضد عليها حتى ما كان متعلقا بالرسول صلى الله عليه وسلم وحياته إيثارا لأمانة الرواية وقداسة الخبر ، واعتمادا على ما وضحه العلماء من قواعد للنقد وتمييز الصدق من الكذب وهو ما يسمى بالجرح والتعديل وعلم الرواية" ([99]).
ومن عرفانه قدر نفسه وإعطائه القوس باريها واحترامه لتخَصُّصات النَّاس؛ قوله ضمن كلام عن تضعيف خبر من الأخبار استنادا إلى أهل الشَّأن: "ومنهم البخاري الذي اضطررنا لتأخير الكلام على حديثه لهذا السبب ، مع تقديمنا له ، فلنرجع إليه ولنقل كلمتنا فيه استنادا إلى ما حرر رجال الصناعة العارفون بعلل الروايات" ([100]).

بيد أنَّ الأستاذ لم يكن أن ليأخذ عن غيره من الأصاحب العربيين أو من الأجانب الغربيين، سوى ما يتوافق مع صواب الرؤية في نظره، وصحة الخبر إذا اقتضى الأمر مسألبة من مسائل الرواية والنقل، ولم يقهر مفاهيم العلوم لتحويرها بل لاستفادة منها دون أن يذرها من وراء دُبره، مسابقا المستشرقين في العلم بخبايا نفائس العلوم العربية، غير متأخر عن إخراجها للناس حتَّى لا يقتصر إخراجها على أولئك فيعيثون فيها عيثا، قبل أن ينشروها بثا، وتلك إحدى سبل الحماية والرقابة على التراث التي اضطلع بها الأستاذ كيما تصحح صورتنا عند الأمم.

[99]- عبد الله كنون "نفي تقول سخيف على الجناب المحمدي الشريف" بحث منشور في "مجلة البحوث الإسلامية" نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – الرياض, السَّعوديَّة, بدون, (20/207-208).
[100]- المرجع نفسه, (20/213).

فقد كان مجتهدا في نشر خزائن الأدب المغربي بصفةٍ عامَّة, فقام ينبش المدونات على الرفوف والمصنفات في الصناديق بهمَّته السَّاميَّة وإرادَته العاليَّة وصبرِه الكُبَّار؛ لينفض الغبار عن كثير من النَّفائس أوَّلا, وليخرجَ – ثانيا - بعضَها الآخر إلى النُّور لأوَّل مَرَّة, من ذلك أنَّه انصرفَ إلى مخطوطَةِ ديوان "الرَّوض الأريض" لـ ""ابن زاكور (.. - 1120 هـ =.. - 1708 م) محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد، .. الفاسي، أبو عبد الله: أديب فاس في عصره" ([101]) محقِّقا إيَّاه, قبل أن يقرأَ النَّاسُ شيئا منه, فنشره بعدَ أن انتخب منه الكمَّ المتواضع, والقسط النافع, الذي وضعه بحسب ما اختارته ذائقَتُه النَّقديَّة, ولأنَّه يحبُّ تسميَّة الأشياء بمسمَّياتها الدَّالَة على حقيقة المحتوى بأقرب لفظ و أظهر عبارة –وهذا من قواعده في فقه العنونة- فقد سمَّى عمله الانتخابيَّ الأدبِيَّ ذاك بـ "المنتخب من شعر ابن زاكور".

وأمَّا النَّاصر ابن الأحمر الملك الشَّاعر؛ فقد قال عنه الزّركلي "وبقي شعره محفوظا إلى أن نشر حديثا باسم " ديوان ملك غرناطة - ط " ... قدم له ناشره، الأستاذ عبد الله كنون، يبحث عنه وعن شعره استفدت منه بعض عناصره هذه الترجمة" ([102]).

ولم يكن الأستاذ حينَ نشرهِ عاجزا عن تسميَته باسم برَّاقٍ أو عنوانٍ سجعيٍّ رقراق, لكنَّه آثر –كما يفعل دائما- أن يكون العنوان أَدَلَّ على المضمون من جهة, وأفيَدَ للقارئ بالإشارة إلى معلومة من المعلومات المفيدَة من جهةٍ أخرى, لذلك لم يسمِّه "ديوان الناصر ابن الأحمر" وإنَّما سمَّاه ديوان ملك غرناطَة, مفَّضِّلا – وذلك من فلسفته في فقه العنونة مَرَّة أخرى- ذِكرَ الدَّرَجَة وتسجيل المكانة التي اعتلاها الشاعر في خلال العنوان؛ حتَّى تغدو أرسخ في الذاكرَة, وأميَزَ للشاعر من بين أقرانه, وأوضح للآخر كيما يعلم - ولو لم يقرأ الكتاب- أنَّ ملوك العرب لم يكونوا أجنبيين عن الأدب ولا بعداء عن سوق الشعر وجواهر الكلام, عكس حال أمثالهم العصريِّين, وفي ذلك من المفخرة التَّاريخيَّة ما فيه للأمَّة العربيَّة جمعاء.

ومن تطرُّقه للخلفيَّات التَّاريخِيَّة والتعويل على قضيَّة الاقتباس التي تمليها سعة الإطلاع في عمليَّة النَّقد بنوعيه هدما وبناءا؛ أن نَبَّه في "تعاشيبه" حينَ تعرُّضِه لِما كتبه الأستاذ طه

101 - الزّركلي "الأعلام", ج 7/7.

102 - المصدر نفسه، ج259/8.

حسين في السِّيرة النبويَّة الشَّريفَة مُبيِّنا أنَّ كتابه "على هامش السِّيرَة" قد "وُضع على نمط كتاب غَرْبيٍّ كتبه "ألفريد أورشيم" الأستاذ بجامعة أكسفورد تحت عنوان "على هامش سيرة المسيح" ([103]).

فالنَّظر إلى الفكرة التي أوحت بالعنوان, يحتاجُ إلى بصيرة نافذة وذاكرَةٍ ناقِدَة, فها هو قد سَمَّى إحدى كُتُبِه "خل وبقل", ونحن إذا سرنا على منواله باحثين عن مصادر معرفَته التي منها غالبا يستقي معلوماته صقلا وقياسا, ونقلا واقتباسا؛ قلنا إنَّ ثقافَة الأستاذ الحديثِيَّة هي التي منحته عنوان كتابه, ذلك بأنَّ هذه العبارة المسكوكة مشهورة في كتب المحدِّثين, وتعني الحديث الخالي عن الإسناد مِمَّا لا يثبُت لذهاب أصله وهو السَّند أو للإنقطاع في إحدى حلقات سلسلة رواته, من هنا أمكَنَ أن تُوَظَّفَ العبارَة لتدُلَّ على الشَّيء الضَّعيف غير المتماسك الذي ليس بالقوي ولا المتين بحيث لا يكون له أساس أو يكون منكسِرا, وهي من كلام شعبة إذ يقول: «كل حديث ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خل وبقل» ([104]).

في حين يمكن أن يقال, لعلَّ الأستاذ ذهب إلى قول عبد السلام بن داود بن عثمان المعروف بالعز القدسي شعرا:

إذا الموائد مدت ** من غير خل وبقل.

كانت كشيخ كبير ** عديم فهم وعقل([105]).

فهنا الخل والبقل لهما قيمَةٌ ذوقيَّة أساسيَّة, بخلاف معناهما عند أهل الحديث إذ يقصدون بهما إلى ما لا قيمة له ولا احتياج إليه, أي لا يُساوي شيئا, كالطعام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

بيدَ أنَّ الذي يُرجِّح أخذه ذاك العنوان من عبارة المحدِّثين هو محتوى الكتاب, فقد أورد فيه كثيرا من النَّقد لأشياء لا يرتضيها العلم والفنُّ والتَّحليل, ولا الذوق الأدَبِيُّ الأصيل, وتلك هيَ خلفيَّة العنوان الثَّقافيَّة المستلهَمَة من الأستاذ شعبة إمام أهل الحديث, والذي قال بتعبير

---

[103] - أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني "وَا مُحَمَّدَاهُ {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}" دار العفاني، مصر, ط 1، سنة 1427 هـ - 2006م, (339/2).

[104] - رواه الرَّامَهُرمُزي في "المحدث الفاصل بين الرَّاوي والواعي" ص 97, والخطيب البغدادي في "الكفاية في علم الروايَة"، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، سنة 1357هـ، ص283.

[105]- شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: 902هـ) "الضوء اللامع لأهل القرن التَّاسع" منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون، حرف العين المهملة، ج206/4 .

آخر له في المعنى نفسه: " كل حديث ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو مثل الرجل بالفلاة معه البعير ليس له خِطام" ([106]).

وفي هذا المعنى الثَّاني يقول الشَّاعر ابن البواب عبد الله بن محمد بن عتاب:

إنما أنت يا عنان سراجٌ ** زيته الظرف والفتيلةُ عقلُ.

أنت ريحانةٌ وراح ولكن ** كل أنثى سواك خلٌّ وبقلُ([107]).

لهذا لمَّا سُئل شعبة عن رجُلين متناقضين أحدهما محمود والآخر مذموم, وعن ثالثٍ أشَدُّ ذمًّا؛ فقيلَ له: "ما تقول في يونس عن الحسن؟ قال: سمن وعسل، قيل: فعوف عن الحسن؟ قال: خلّ وبقل، قيل: فأبان عن الحسن: قال: دعني لا أتقيأ" ([108]).

فهذا جانب من جوانب استثمار الأستاذ لقراءاته الحديثية في حيز النقد الأدبي، وتحريك غرباله النقدي في ضوئها وتحت ضلالها.

إذ إنَّ الكاتب الذي لا يظهر أثر قراءاته في كتاباته, لا يعدو أن يكونَ عامِيَّ التَّصوير اعتباطِيَّ التعبير, فالقليلون هم الذين يعكسون بالألوان البيضاء مطالعات الدَّفاتر في سواد المحابر, فيحقِقُون الإعجاب, ويأخذون بتلابيب الريادة رويدا رويدا, لأنَّ "الكتاب الذي يقرأ كالطعام الذي يؤكل، فطعام يعطي آكله القوة والفراهة، وطعام يعطي آكله الضعف والهزال، وان المتبحّر في قراءة الأصول الأدبية في أدبنا العربي بمعناه الواسع العام لا يعرف في أدبائنا الناشئين أثر الكتب التي قرأوا وما قرأوا إلا النزر اليسير.

نصيحتي الخالصة للأدباء الناشئين أن يوفوا حظّهم من قراءة الكتب العامرة التي تقوى بها الملكة، ويفحل الطبع وتزكو الثمرة، فإني أرى في كثير مما أقرأ هذه الأيام من الآثار الأدبية لناشئتنا أعراضًا تشبه أعراض فقر الدم في الأجسام: نحول واصفرار" ([109]).

أمَّا كتابات الأستاذ كنُّون فهي حسنة الاستثمار, حيثُ يعرف كيف يجنى الرحيق من قراءة الأزهار, فإذا بإنتاجه الأدبي والعلمي والنَّقدي قد أتى بألوان الإعجاب والإبهار, وازدانت

---

[106] - ابن حبَّان محمد, أبو حاتم (ت 354هـ) " المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين" ت: محمود إبراهيم زايد، بدون، ج 27/1 .

[107] - أبو الفرج الأصفهاني "الأغاني" ت: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط 2، ج23/ ص45.

[108] - أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو 400 هـ) "البصائر والذَّخائر" ت: د. وداد القاضي، نشر دار صادر، بيروت، ط 1، سنة: 1408هت/1988م، ج 34/8.

[109] - محمد البشير الإبراهيمي "آثار محمد البشير الإبراهيمي" جمع وتقديم: نجله أحمد طالب الإبراهيمي, نشر دار الغرب الإسلامي, بيروت, لبنان, ط 1, سنة: 1997م, ج374/4.

بساتينه البحثيَة والتَّأليفِيَّة بالاخضرار.

والحق أنَّ أثَر القراءة في الكتابة بوجه عام والكتابة النَّقدية على وجه الخصوص, يكونُ نافعا إذا كان يافعا واغتدى يرفل في حلل شبابيَّة تضفي بقوَّتها على الأدب, ويزدادُ عليها الطَّلب لحيويَّتها ونضوجها.

ولا يزالُ السَنَّا البرقي يدُلُّ على المطر الذَّوقي, فكيفَ وقد انهال وانهمر, هذا من جهة, ومن جهَةٍ أخرى فدليل القراءة الفعَّالَة أن تنتج الأدب الفعَّال, وهي المرحلة الأولى التي يمُرُّ بها الفكر تخييلا, ثُمَّ يطبِّقُها القلمُ في الكتابة تمثيلا, ليأتي دور النَّقد دِقَّةً وتحليلا, وزيادَةً وتكميلا, إذ الكاتب الجاد هو من تؤثر مطالعاته في تدوينه, كما تؤثِّرُ بلاغته في تبيينه, فتنعكس قراءته الخصبَة على كتابته ثُمَّ على ناقِدِيَّته, كما أنَّ الشَّاعريَّة تعكس الإلهام, في مرآة نظمِ الكلام, فتأثير القراءة على الكتابة أدبِيًّا هو الإبداع, وتأثير الكتابَة على القراءة إيجابيًّا هو النَّقد.

بين الترجمة والنَّقد:

لقد ثمَّن الأستاذ في غير ما موضع من مصنفاته وبحوثه؛ ترجمة آثار الغرب وفائدة ذلك في اتساع الملكة النقدية وتعدد روافدها، بل تعدد مشاربها , إذ بين الرَّوافد والمشارب كما بين من يوسِّعُ الطَّريق ومَن يُغَيِّرُها إلى حيثُ يترسَّمُ خطى وجهَةٍ أخرى , فربَّما صار المغَيِّرُ مغيرا على طريقته الأولى, فيغدو كمن يطفئ المصباح مستعيضا بشمعة, أو مبعدا في سيره قد أبعدَ النُّجعة .

إنَّ رأي كنون في الترجمة أن تكون على وفق أولوياتنا الاحتياجية من جهة، وبحسب الأكثر نفعنا لنا من المؤلفات المترجمة من جهة أخرى، وهذا كله من الناحية البراغماتية، أمَّا من الناحية الفعلية في الترجمة وآليات العمل الترجمي فقد تركها كنون لأهل الشأن فيها، لكن دون أن يخلو فكره من المبادئ العامة والقواعد المهمة في نقل النص من لغة إلى أخرى، والمهم عنده أن يخرج النص أقرب ما يكون إلى النص الأصلي حسب الجهد والاستطاعة، وذلك كما في مهنة التحقيق لكتب التراث وتوثيق نصوصها وإحسان قراءتها يكون ثمة أعظم

العمل مصبوبا في بغية الوصول إلى تصويب النص وتصحيحه وسلامته، بحيث يخرج أقرب إلى ما كتبه مؤلفه.

وممَّا يشهد لعد الاستاذ الترجمة في عداد تحقيق الكتب، أنَّه ذكرها في سياق كلامه على حركة التحقيقات وجهود المغاربة فيها علميا وأدبيا، مبينا "الترجمة من أهمِّ ما تشمله هذه الحركة" ([110]).

بيد أن الأستاذ من رأيه الحاذق ألا نبقى أمة استهلاكية ليس اقتصاديا فقط، بل ثقافيا من باب أولى، فنحن كذلك يحق لنا أن نرقى بآدابنا ونعمل إلى ترجمتها إلى اللغات الأخرى، فالأمة الواعية لا يقتصر عملها على مجرد الاستقبال دون بث ولا تصدير، لا سيما في عالم متفاعل صار فيه قدر الأمة بقدر ما تؤثر في اللآخر، وبحسب ما تنتجه من أعمال رائجةٍ يزداد الطلب عليها في أسواق الغير، مثلما حدث لكتاب "النبوغ المغربي" للأستاذ كنُّون، فإنَّه برُغم ضخامته تألُّفه من ثلاثَة أجزاء إلاَّ أَنَّه "تُرجِمَ إلى الإسبانِيَة" ([111]).

من هنا كان واجبا وزارة الثَّقافة في كل بلد عربي أن ينبغي يسيِّرَها المثَقَّفون, لا مجَرَّدُ

الإداريين, الذين لا يعلمونَ أنَّه يجبُ أن توجَدَ لجانُ تخطيط للثَّقافَة التي نريدُها على المدى البعيد, ولجانٌ لترجَمَة الإنتاج الأدَبي المحلِّي إلى اللُّغات الأُخرى, حتَّى لا يبقى رهينَ الرُّفوف, ولا تنالَ منه الزُّحوف الوافدَة من الثَّقافَات الغازِيَة، إذ مشاكلنا العربية تنحصر في وضعنا الأشياء في غير موضعها، وإسنادنا الأمر إلى غير أهله.

إنَّ بعضَ الباحثين يغفلون عن أنَّ قضايا النقد لاسيما تلكَ المتعلِّقة بعلم اللِّسانيات لم تكن ظهرت لذلك العهد الكنُّوني ظهورا شائعا من جهة, ومن جهةٍ أخرى إنَّ الحكم النَّقدي إذا وردَ عليه كما يرد على من جاء بعده ممَّن عاصر نهضة النَّظريات اللِّسانِيَة وترجمتها وانتشارها, لن يكُونَ خالياً من مبالغة , بل يصيرُ واغلا فيها, هذا من ناحيَة, ومن ناحِيَةٍ أخرى يجِبُ أن يُوضَعَ في الحُسبان تنوُّع الاشتغال بالنسبة لعبد الله كنون على مختلف

110- عبد الله كنون "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث" ص 96.

111- د. إبراهيم بن أحمد الوافي "عبد الله كنون العالم المصلح", ص159 حتَّى 169.

الفنون أوَّلا, ومحاولته -ثانيا- السُّرعة في إظهار نفائس التراث فيما نشره على النَّاس وعلَّق عليه ولم يتوَسَّع في نقده, وحسبُ مَن طارَدَهُ الزَّمان أن يقنَع بصيدِه، تاركا للعمل الترجمي من كان أقدر على اجتناء رحيقه من ورده.

وبخاصَّة إذا علمنا أنَّ "الشِّعر فكر, وقراءتُه فكرٌ آخر" ([112]), فما يمكن أن يتأدَّى به عملُ النَّاقدِ من الوقت للقراءَتين؛ لا يكونُ شيئا قليلا.

والواقع أن الأستاذ ألمَّ بقراءة ما يجري في الساحة العالمية وما وفد على الأدب العربي من ألوان التجديد فكان أن حصر المجلات التي اقتحمها الشعر المغربي الحديث في سبعةٍ مجالات ندلف هاهنا إليها بالبيان:

أوَّلا – الشعر الوطني:

تعريفه عند الأستاذ هو أنَّه "التَّغني بحب الوطن, والدعوة إلى خدمةِ قضِيَّته, ورفع شأنه بين البلاد, مع تمجيد العرش والجالس عليه, ولاعتزاز بهما باعتبارهما مظهر السِّيادَة الوطَنِيَّة, ورمز الوحدَة... وتسجيل الخطوات التي قطعتها الحركة الوطنِيَة في مجالات الكفاح .. بما له من تأثير على النُّفوس وتكييف المشاعر وَفقَ رغبات الأمَّة" ([113]).

وقد بيَّن الأستاذ أنَّ هذا اللَّون من شعر المدح للسلاطين والبلدان قد أصبح موجَّها للمجتمع كي يعلو بالإنسان, ويُلهب ما فيه من وجدان حتَّى ينهَضَ ويسعى للرُّقي, فتحوَّل من الذَّاتِيَة المنتفعة, والشَّخصانِيَة المتقوقعة؛ إلى الاجتماعِيَّة الشَّاسعة, قائلا:

"هكذا انقَلَبَ الشِّعر الذي مهما قيلَ فيه, لا يعدو أن يكونَ من قبيل المدح المعهود للمُلُوك؛ إلى شعرٍ اجتماعي يُعبِّرُ عن عاطِفَةٍ شعبيَّة وفكرةٍ قومِيَة, ويُمارسُ تجربَته الأدباء أصحاب المبادئ والأفكار أكثَرَ ممَّا يُمارِسُها الشُّعراء المدَّاحون وطُلاَّب المنافع والجوائز" ([114]).

وبعد ذكره لنماذج من الشعر الوطني, ذكر ما جاء في الشعر بصفة عامة من تجديد في ناحيَة الموضوع.

112- مصطفى صادق الرَّافعي "وحي القلم" نشر المكتبة العصريَّة, صيدا, بيروت, سنة 2002م, (228/3).

113- عبد الله كنُّون "أحاديث عن الأدَب المغربي الحديث" دار الثَّقافة, الدار البيضاء, المغرب, ط 4, 1405هـ/1984م, ص148-149 .

114- المرجع نفسه, ص154 .

ثانيا – موضوع تحرير المرأة:

فقد بيَّن أنَّ "الدَّعوة إلى تحرير المرأة .. موضوع جديد على الشعر لم يَسبِق أن خاضَ فيه البَتَّة, ومدح الملوك على طريقة ربط فكرة القومية بالدَّولة, وتمَثُّل الدَّولة في العرش .. أسلوبٌ جديد أيضا,نحى بهذا الباب من الشعر, وهو باب المدح الذي يُعدُّ من أوسَعِ أبوابه؛ منحى شعبيًّا عامًّا خرجَ به من دائرة الفرد التي كان يتعثَّرُ فيها بين المجامَلَة والنِّفاق إلى دائرة الجماعَة التي تجعلُه في خدمَة الصَّالح العام" ([115]).

ثالثا – وصف الطبيعة:

رابعا – الشعر العاطفي:

خامسا – الشعر الاجتماعي:

فلئن كان حافظ إبراهيم هو رائد الشعر الاجتماعي في المشرق فمن هو رائده في مغربنا الكبير، إنه ... بالإضافة إلى محمد العيد آل خليفة

سادسا: الشعر الحر:

سابعا: الشعر المنثور:

وهما اللونان الشعريان اللذان نرجعهما إلى الفصل الموالي لتعلُّق الكلام عنهما بالفكر النقدي الذي خصصنا له الفصل الثاني من هذا البحث، ولأنَّ لنا رأيًا فيهما نذكره في حينه.

إذا تغير الزمان تغيرت نظرتنا للأشياء , فما كان غير مقبول منذ سنين صار اليوم مقبولا, وما كان يستحي الناس من فعله أو قوله وعمله أصبحوا الآن يمارسونه وبأشكال مختلفة ومتنوعة, إنَّ أثَر ذلك من أثر تبَدُّل الذهنيات, وتطور المفاهيم وسواء غدا التغيير إلى الأفضل أم إلى الأسوء, فذلك أمر آخر.

من هنا جاءت قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر متأثرة بواقعها الذي أفرزها وهو التاريخ العربي الذي هانت فيه العربية وعلومها وذهبت أعلامها وأساطينها , وضعفت فيه ملكة

---

[115]- المرجع نفسُه,ص161 .

البيان عند الكتاب, وصاروا يتهارشون على استعمال الألفاظ بين صحة وصواب, ويتنازعون على وجوب تسهيل التعبير ليعم الكافَة ويستوعب جميع القراء وكلّ الأفهام, وبين الكتابة ببلاغة قويَّة لا يرقى إليها إلاَّ الأفذاذ والأعلام, ولا يفهم منها العامَة إلاَّ الفهم الإجمالي للمعاني والنُّصوص المعروضَة والقضايا الطروحة, والأفكار المقترحة, حتَّى أصبَح سوء التعبير والتمرُّد هو "الموضَة" العصريَّة, وهو التحضُّر والإبداع والتَّقدُّمِيَّة.

إنَّ ذين القصدتين تعكسان واقعهما المتردي, فلكلٍّ واقع لا محالة إفرازاته التي تظهر في التعبير و تتشكلّ في الشَّعر وتبرز في الإطار اللغوي والفكري العامَّين.

فهذا تطوُّر وهو شيء جديد بالتَّأكيد لكن إلى تحتٍ لا إلى فوق, من هنا أساطين التجديد من القدامى لم يدركوا واقعنا الهابط السَّاقط المنحط, ولو أدركوه لعملوا على رفع هامته, وإقالة عثرته, ولكنَّهم بكلِّ حالو رغم تفتحهم على من يستجد وعملهم على الإبداع والتطوير والرقي بملكة التفكير لم يكونوا ليوافقوا على شيء من هذا التعبير المتدني فيما نحسب موقنين, بله أن يسمُّوه شعرا, فما داموا عاشوا فترة القوة اللغوية يستحيل أن يرضوا بما يعارضها ولو باسم التفعيلة أو التحرر, فكيف بالتَّدهور !!!

أمَّا إذا كان التطور آخذا مجراه إلى الإحسان وزيادة الجودة؛ فمرحى مرحى ونعمى عين، من ذلك أنَّ الأستاذ كنونًّا استحدث تصنيفا جديدا لقصائد المديح، جعلها داخلة في إطار الملاحم، ثم ارتقى بفكره المتطور مستحدثا لها اسما هو "شعر السير".

التجديد في تصنيف الأشكال الأدبيَّة وتسميتها:

فحين "لاحظ الباحثون وجود ما يشبه الملاحم في شعر المدح النبوي، اختلفوا حوله، فأقر قسم منهم بتشابه بعض قصائد المدح النبوي مع الملاحم على وجه من الوجوه، ونفى قسم منهم هذا التشابه، معتمدا على مضمون الملاحم التي تمتزج بالتهاويل والأساطير وذكر العبادات القديمة، ولا تلائم الفحوى الإسلامي، الذي شيدت عليه القصائد الكبيرة في المدح النبوي. وقد ذهب عبد الله كنون إلى أن قصائد المدح النبوي" ([116]) «أحق بأن تصنف في

---

[116]- د. محمود سالم محمد "المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي" نشر دار الفكر – دمشق, ط1, سنة: 1417هـ, ص493.

شعر الملاحم من المعلقات والقصص المذكورة، لأنها أطول نفسا، وأكثر حوادث، وأغنى بصور البطولة والكفاح من أجل إثبات الوجود العربي، وإعلان رسالة الإسلام المقدسة، التي أحلّت العرب محل الصدارة بين الأمم" (117).

وقد "ضرب لذلك مثلا بردة البوصيري، فقال: «هل تقاس معلقة عمرو بن كلثوم مثلا بقصيدة البردة، وما اشتملت عليه من فنون القول، كالنسيب الذي يرقق الطباع، والحكمة المزكيّة للنفس، والإعلان عن مولد صاحب الدعوة الإسلامية، وما صاحبه من الآيات والعجائب، ما صح منها، وما يروى عن طريق الرؤى والتجليات، لأن المقام للخيال الشعري أكثر مما هو للتحقيق العلمي" (118).

ونحن وإن "كنّا نوافق الأستاذ كنون في جلّ ما تحدث به، إلا أننا لا نقره بأنه يمكن أن يكون الحديث عن المعجزات من باب الخيال الشعري أكثر مما هو للتحقيق العلمي، فهذا الأمر يصح في غير الدين، وإن كان شعراء المدح النبوي قد فعلوا ذلك، فهم الملومون، ولا يبنى على تجاوزهم أية حقيقة أدبية .... وهذا لا يعني أنه من الضروري أن يكون في أدبنا العربي ملاحم ومسرحيات، فلكل أدب خصائصه وميزاته، وهذا لا يعيبه" (119)، أو كما قال كنون: «لا أرى لازما أن يقلد الأدب العربي الأدب الأجنبي في كل خصائصه ومميزاته، وأسمائه واصطلاحاته، فأفضل أن نطلق على هذا اللون من الشعر اسم شعر السير، ونجعله في مقابل شعر الملاحم" (120).

فهذا هو الاسم الجديد والفكرة الوليدة التي ارتادها الأستاذ كنون، بينما خفيت على سواه. إلاَّ أنَّ لكلِّ أديبٍ في الأدب مجالات, قد تكثر وقد تقل, كما أنَّه ربَّما اشتَدَّ تركيزه على مجالٍ وخف في مجالٍ آخر, وارتفع اهتمامه بأحد الأجناس الأدبيَّة أو ببعضها ولم يرتفع فيما بقيَ منها, وفي هذا الميدان الفسيح مناطق ظلٍ يرتادها أدباء ولا يطؤها آخرون في حين يمرُّ عليها ثُلَّةٌ منهم مرور الكرام غير متوقفين, وأمَّا الرقع التي تطلع عليها الشمس الأدبيَّة فتلك الأفياء الأكثر انتشارا وتداولا من مواضيع وقضايا تتفاعل الأقلام فيها تفاعلا, وتتهاطل

117ـ كنون، عبد الله: أدب الفقهاء ص 192، بواسطة محمود سالم محمد "المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي"، ص493-494

118ـ المرجع نفسه، ص 193، بواسطة محمود سالم محمد "المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي"، دار الفكر، دمشق، ط 1، سنة: 1417هـ، ص 494 .

119ـ د. محمود سالم محمد "المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي", ص494-495.

120ـ كنون، عبد الله: أدب الفقهاء ص 208 ، بواسطة محمود سالم المدائح النبوية"، ص495.

لديها الكتابات تهاطلا, وقلَّما يغيبُ عنها الحضور الفعلي لأهل الأدب رأيا وتدوينا, وفي خلال ذلك فضاءاتٌ وانجذاباتٌ متنوِّعة مختلفة التَّأثير, سواءٌ في حقول الإبداع أو في حقل النَّقد, وسواءٌ عند الكُّتاب والقارئين؛ فضاءات يسرع إليها نفر و يتثاقل عنها نفر آخر أو لا يستطيعُها, أو لا تسمحُ له الظروف بذلك, ويهتمُّ هذا بما لا يبالي به ذاك, لاسيما في ميدان الأدب الواسع الأرجاء المتنوِعِ الأفياء, حتَّى قيل عنه "إذا أردت أن تكون عالما, فيكفيك علم واحد, وإذا أردت أن تكونَ أديبا فتوَسَّع في العلوم"، وهذا هو الرأي الذي وافقه عبد الله كنون قائلا: إنَّه رأيٌ "ما يزالُ صحيحا حتَّى الآن، فإن الأدب ينتظم جميع أبواب المعرفة"([121]).

بل حتَّى الشِّعر قد تُستحدَثُ فيه أغراضٌ جديدة, وتطغى على ما سواها من أغراض, فقد كَثُرَ مثلا "الشعر الوطني عند العرب في العصر الحديث كثرة عظيمة حتى طغى على غيره من الأغراض الشعرية"([122]).

من هنا تجد النَّقاد أنفُسَهم يحسبُ أحدُهم للغَة حسابا كبيرا, ويُحرِّجُ على من يغلطُ فيها من المبدعين شعراء وكتَّابا تحريجا عسيرا, في الوقت الذي يتركَّزُ اعتبار ناقدٍ ثانٍ للأسلوب والصُّور والبيان, وفي خضَمِّ هذا تطالعُك جوانبٌ متعدِّدَة ونوافذ متنوِّعة يلجُ الناقد منها بنقده, قد يراعيها جميعا مراعاةً كلِّيَّة في بعض الأحيان, لكنَّه في أكثَر الأحيان لا يراعيها إلاَّ مراعاةً أغلبيَّة, على حسب ما في نفسه من رهافة, وما في عقله من نباهة, وما في ذاكرته من حضور, ممَّا يجعله يتذكَّرُ شيئا وتغيبُ عنه أشياء, ويعلمُ أمورا وتندُّ عن ذهنه أمور أخرى, لذلك يتجدد النقد ويتنقح ويخطو أكثر وأكثر نحو الصوَّاب, كلَّما تجدَّدت العمليَّة النَّقدِيَّة وتكرَّرَ النَّظَر وتوفَّرَ الاستيعاب، إذ "ازدياد الجودة [متوقف]على كثرة النقد" كما يقول الثَّعالبي ([123]).

121- عبد الله كنون "خل وبقل" المطبعة المصرية، تطوان، بدون، ص 4، بواسطة أحمد الشايب "الدراسة الأدبية في المغرب الأستاذ عبد الله كنون نموذجا" منشورات مدرسة الملك فهد للعليا للترجمة بطنجة، مطابع سبارطيل، ط 1، سنة 1991م، ص 141.

122 - عبد الله كنون الحسني "الشعر الوطني في الأندلس" مجلَّة الرسالة" العدد 105 - بتاريخ: 08 - 07 – 1935م, ص23.

123 - عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: 429هـ) "يتيمَة الدَّهر في محاسن أهل العصر" ت: د. مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، سنة 1303هت/1983م، ج1/ 26 .

والحق أنَّ الأسباب ربَّما حالت دون وصول النَّاقد إلى الاشتغال بجانب من الجوانب الأدبيَّة وحقل من حقولها, بل زاويةٍ من زواياها, فهذه النَّظريَّات اللِّسانِيَة لتأخُّر ظهورها وتباطُئ حضُورِها نقلا وترجمةً, لم تصل إلى الأقطار العربيَّة عند الهوَّاة والمُعتَنِين, بله الكلِّيَّات والجامعيين؛ إلاَّ بعدَ سنين وسنين, مِمَّا جعل الاهتمام بها يقل ويضعُفُ, بحيث لم يرتفع إلاَّ بعد تمام الشُّيوع, ودوامِ الذُّيوع والانتشار, لهذا السَّبب كان الأستاذ كنُّون من أولئك الذين لم يكتبوا في هذا المجال المستحدث كما كتب غيرهم من المعاصرين, وإن كانت الخلفيَّة الفلسفيَّة الأيديولوجِيَّة المنحرفة لبعض النَّظريَّات الأدَبِيَّة حدت بأمثال الأستاذ إلى الإعراض عنها, ونبذها لموقعها القَصِيِّ الجافي والبعيد المتنافي مع التَّصَوُّر الصَّحيح, لاسيَما وأنَّ النقد في توجهاته الحديثة لم يعد استكشافاً للنص؛ وإنما أصبح تعقيداً له؛ وذلك لأن النقاد لا ينطلقون في تحليلاتهم من داخل النص في ضوء جماليات اللغة العربية ومحاسِنها الكبار، وإنما يُكَرِّسون كل جُهْدهم النقدي في إخضاع النصوص للرؤى والمصطلحات المستوردة من وراء البحار, وهذه وجهةٌ كانت ولا تزال والواقع منظورٌ فيها لا تُخطِئُه العُيُون قائما حاضرا, وإن لم يكن على هذه الوجهَةِ جاثِماً قاصرا.

بيد أنَّ الأستاذ لا يطرد في رفضه، ولا يمشي على طول الخط في تَحَفُّظِه؛ بل ربَّما مازج في رؤيته بين أدبين أو مذهبين أو رأيين أي بين اثنين ليستحدث ثالثا، وذلك المزج لا يتمثل في إخضاع الأدب الأجنبي إلى الرؤية العربية فإنَّ هذا أمرٌ ظاهر وشيء بدهي لا بدَّ منه، لكنَّ المقصود الموائمة بين وافدين كلاهما أجنبي عن ثقافتنا، ومحاولة المشاكلة بينهما، والذي يجلي هذا الطرح ما يلي:

المذهبان الواقعي والرُّومنسي:

يُبَيِّنُ الأستاذ في خضمِّ تطويره للرؤية التي لا تحتم لونا واحدا على حدة في عملية النظر، بل تمزج بين الألوان بلا غضاضة ولو كانت متفردة في الرؤية، لأنَّ هدا النوع مِن التَّفرُّد سمة محمودة؛ فيوضِّح أنَّ المذاهب لا يمكن أن يعمل المرء في إطارها المجرَّد وسمتها المحدِّد مع الانفكاك الكامل من المذهب الواقعي الرَّائج الاعتيادي, فالطَّبع ولو كان مذهبًا أدبيًّا يستحيل التخلُّصُ منه جملَة, والحيدة عنه برمَّته تماشيا مع مذهب رومنسيٍّ جديد, وهذا

هو الواقع الحاصل, الذي من خلاله يقول الأستاذ:

"والذي يظهر أنَّ ما بين المذهبين أقربُ من أن نجعَلَهُما متدافعين, فنجدُهما يتواردان على كثير من الأدباء فيظهر أثرهما في منتجاتهما الأدبيَّة, ويصعُبُ بذلك ردُّها إلى هذا المذهب أو ذاك, وأكثَرُ أدبائنا الواقعيين اليوم لا يلبَثُ أن يستحيل رومانسيًّا أصيلا كُلَّما غنَّى همومه وأحزانه" ([124]).

إنَّ ملاحظات الأستاذ للظواهر العامَّة والخاصَّة التي تمظهر بها النَّقد الأدبي في المغرب خاضعة لرؤيته الشخصيَّة التي لا تحرص على مراعاة المقاييسس الغربيَّة في استجلائه, وهو يؤكِّدُ هذا قائلا:

"فنحنُ بهذه الظَّاهرة العامَّة ولحرصنا على عدم إخضاع الأدب العربي لمقاييس النَّقد الأجنبِيَّة عنه؛ لا نُعطي أمثِلَةً من أدب المغرب تعتمدُ إحدى النَّزعتين أو غيرَهما من النَّزعات التي تشيعُ في الأدب الغربي, بمعنى أنَّنا لا ندرُسُ ما نُقَدِّمُه من أدَبِ هذا الجيل الأعلى؛ أُسُسَ النَّقد العامَة. وإن لم يَكُن به فقر في ناحِيَة من تلك النَّواحي. معتقدينَ أنَّ بلوغَ الأدب العربي إلى أوج كماله هو الذي سيُقَرِّر قواعد النَّقد الجديدَة الخاصَّة به, ويجعَلُ حدًّا لهذه الفوضى الأدَبِيَّة التي تُضِلُّ أكثَر مِمَّا تهدي" ([125]).

إنَّ من ارتقاء الأدب إلى الكمال، وتطور نظر الأدباء العرب إلى النصوص الإبداعية وما فيها من أنواع وأشكال، قبول فنِّ المقالة، تلك التي احتفى بها الأستاذ أيما احتفاء، بل كان من روادها الكبار النجباء، فالمقالات –كما يفيدث الاستاذ- "باب جديد في الأدب العربي على اعتبار المعنى الحديث للأدب الذي يرمي إلى عدِّ جميع الأشكال الكلامية التي يستخدمها الإنسان للتعبير عن آرائه بلسانه أو قلمه، سواءٌ في الدَّرس الفني واللغوي أو البحث العلمي والفلسفي موضوعا للأدب يجبُ أن يُدرس ويُبحث بروح أدبيَّة محضة"([126]). فالأستاذ يفيدُنا بهذا العرض السريع، والإيحاء البديع؛ أنَّ بعض الأشكال الكتابية كالكتابة

124- المرجع نفسه.
125- المرجع نفسه, ص 90
126- عبد الله كنون "النبوغ المغربي"، ص 326

الفلسفية ليست عَصيَّةً على التطويع إذ يمكن أن تبلل بماء الأدب الرقراق وتضمخ بقطر الندى الشاعري حتى تتهذب وتلين، ففي مكنة البارعين أن يقاربوا بين النصوص الفلسفية ونصوص الأدب إذا هم كتبوها بالروح الأدبية العالية، خلافا لما هو سائد من أن الفلسفة فلسفة والأدب أدب ولا مجال لتمازجهما ولا للمقاربة بينهما، لأجل تناقض طبيعة كل منهما، غير مدركين أن جينات النص يمكن أن تسافر من نص إلى آخر لو توفر لها كاتب لقلمه جناحان!

إنَّ أدب المقالة لون جديد من أشكال الكتابة في العصر الحديث، تأتي بعده في الوسم والحجم الأقصوصة ثم القصَّة، هما اللتان سنرجئ الكلام عليهما إلى آخر مبحث من الرسالة عند تناولنا للرواية ومذهبها، ومناهج كتابها لدى الإبداع الروائي.

وما دمنا لم نفارق بعدُ الحديث عن فن المقالة ولمَّا نضع القلم من بين الأنامل، فلنذكر قطعة من مقاله في سياق ما نحن بصدده من تطور أفكاره من خلال تتابع أعماله.

فانظر إليه إذن؛ وهو يستلهم من وحي التاريخ في نقده الأدبي حين كَتَبَ محَلِّلا, تحت عنوان "تعليق وتعقيب" قائلا:

"قرأت في (الرسالة) الغراء في باب (من هنا ومن هناك) من العدد التاسع والسبعين، كلمة عن نسب لامرتين الشاعر الفرنسي الملهم واحتمال أن يكون متسلسلاً من أصل عربي كما كان يقول هو عن نفسه. وللتعاون مع الباحث في هذه المسألة أقول:
إنني وجماعة من الأدباء، منذ مدة قريبة كنا تذاكرنا في هذا الموضوع، وبعد استعراض ما قيل فيه ما جلبه الأستاذ صاحب المجلة، جوزنا على تقدير عربية الشاعر أن يكون بين اسمه واسم أسرة العمارتي صلة ما، ولا سيما أن أصل الاسم هو ألا مرتين أي العمارتي كما نكتبها بالحروف الإفرنجية. وأسرة العمارتي هي من الأسر المنتشرة في هذه الجبال الريفية، والتي يغلب أن يكون أهلها من عرب الأندلس المهاجرين إلى المغرب. فهذا مما يزيد قوة الاعتقاد بعربية لامرتين.

نعم هذه النون التي في الطرف ليست في اسم الأسرة المذكورة، ولكن لا مانع أن تكون من

تصرف الألسنة الفَرَنجية في الاسم كما هو معهود منها اليوم مع هذا الاختلاط العظيم، فكيف به قبل؟ وعلى كل حال فهذا التعليق القصير ربما يلقي بصيصاً من النور على هذا البحث الطويل" ([127]).

فتأمَّل كيف يخوض في مسائل البحث الأدبي معلِّقا إيَّاها على التبحر في التَّاريخ, وتحليلها في ضوء الدراية بواقع الأمم والشُّعوب, ووزنها بميزان اللُّغَة وعلم النَّسب, وهذا ما يؤكِّد على أنَّ سعة الاطلاع كفيلة بترجيح كفَّة ناقد على آخر, وخليقَةٌ بأن تهديه إلى ما لا يعنُّ لسواه في خيال, ولا ينحطُّ له في بال, وأن يظفر بما لم يظفر به أقرانه، كل داك بعد البحث والمجالسة وتلاقح الأفكار مع إخوانه، وهو ما يشي بروح التطور والتقدمية إلى الأمام يوما فيوما لدى ساحة الفكر والنظر.

لقد أسهم الأستاذ في تكوين حركة نقدية كان فقدانها سببا كبيرا في تخطي إنتاجات بديعة رماها الزمن في حيز الإهمال، وقضى عليها انعدام التوازن بين الإنتاج الأدبي والنقد الفعال.

فإنَّ "أعمالا أدبية كثيرة، بعضُها جيِّد؛ تصدر ويَلُفُّها صمتٌ كثيف، ومنها ما يسقط في النسيان لعدم وجود حركة نقدية .. [و] لا شك أن التوازن بين الإبداع الأدبي والنقد أثمر حركة نشيطة وصحيَّة شهدت أجيالا متتالية" ([128]).

فجيل الأستاذ كنون بصفة عامة كان جيلا محظوظا بالقياس إلى ما بعده من أجيال.

ومن أمثلة ذلك النشاط أن لمجلات كانت تطفح بكتابات النقاد وكان الأستاذ كنون لاهتمامه الشديد بالأدب مشاركا فيها تمام المشاركة ولو في أهون القضايا، فا هو يُعَلِّقُ على من حَسِبَ أنَّ بشر بن عوانة مجرد شخصية وهميَّة وشكَّ في وجودها لأنَّها شخصيَّة من شخصيَّات بديع الزمان الهمذاني المصطنعة في مقاماته أمثال الحارث بن همَّام وأبي الفتح الإسكندري, فبيَّن الأستاذ كنُّون أنَّها مرَّت به بهذا الاسم في مطالعاته واستخرج له من المثل

127 - مجلَّة الرسالة "البريد الأدبي", العدد 86 - بتاريخ: 25 - 02 – 1935م.

128- جمال الغيطاني "المجالس المحفوظية" دار الشروق، ط 1، سنة 1426هـ/2006م، ص 79.

السَّائر لابن الأثير ما يدُلُّ على حقيقة حياتها, وما قالته من الشِّعر, ثُمَّ ختم ناقدا مقامَة البديع عنها بقوله: "وخدمة للأدب فقط كتبت هذا التعقيب، وإلا فحياة بشر لا تثبت بمثل هذا الذكر استطراداً، على أن قصته التي حكاها البديع تسف حتى تلتحق بالخرافات لما فيها من المتناقضات" (129).

هذا مع أنَّه لم يكن عصر الحاسوب في ذلك اليوم, ولكن صدقَ من قال : "العلم ما دَخَلَ معكَ الحمَّام", وكذلك كان الأعلام, فأين هم في هذه الأيَّام؟

إنَّ المجلات العلمية والأدبية شرقًا وغربًا رحبت بإنتاج الأستاذ العلامة عبد الله كنون طيلة حياته، وكانت مجلة الرسالة وهي في صدر المجلات الأدبية بالشرق العربي تحتضن آثاره،

وهو في مقتبل عمره؛ لأن حديثه فيها عن المتنبي دل على نضوج فكري ملموس!

فأين نجد أمثال هذا الفكر وقد طغت على الدنيا الفلوس؟

ثم قد بقي لنا في خلال هذا المبحث كلام عن الشاعر ونقده، ولنبينه في سطور بادئينه بالسؤال الآتي:

هل شرطا عند كنون أن لا ينقد الشِّعر إلاَّ شاعر؟

والجواب: أنَّ الجاحظ رحَلَ والناس كلهم يعلمون أنه أديبٌ كبيرٌ وناقد فذ و في الوقت نفسه يعلمون وربَّما ينسون إذا طرح عليهم السُّؤال الآنف الذِّكر أنَّ الجاحظ ليس شاعرا, فكأنَّهم يتَّفقون ثُم يعمل النِّسيان عمله في القوم فيختلفون!, يقع ذلك لعدم الاستحضار؛ أكثرَ ممَّا يقع لعدم الاستبصار والتَّفَهُّم.

ومع هذا فإنَّ الأستاذ كنون قد خرج عن دائرة النقاش فهو ناقد شاعر، قد مارس كتابة

129- المرجع نفسه.

القصيد في مطلع أيامه وفي وجه عمره إلى آخر حياته، فلا ريب أنه ذو خبرة بنقد الشعر طالما قد عاناه وعالجه كتابة وإبداعا.

فإن التجربة الشعر مفيدة في نقد الشعر على كل حال و إن لم تكن لازمة لنقده لزوما، ومرتبطة بجودة النقد دوما، كما قدمناه في نموذج الحاحظ، وفي ذلك القناعة والكفاية لكل ملاحظ ومتأمل، ولكل متدبر ومجربوصدق الشاعر إذ قال:

علمتُ بتجريبي أمورا جهلتها ** وقد تُجهلُ الأشياء قبل التجارب.

فهي قد تجهل، كما يكون الجهل نسبيا بالنقد وآلياته وفنياته ومناهجه إذ عدمت التجربة الشعرية، نعم "قد"، نقول "قد" وندرك أنها لا تعني أن الأمر لازم بالضرورة، وفي كل حين، بل هي كاسمها "قدقدة" وليست شرطا يدوم سرمدا، ولا ينفك عن النقد أبدا.

الفصل الثاني: الفكر النَّقدي عند كنُّون

المبحث الأول : التجليات والتَّأثيرات.

المبحث الثاني: أدبيات الخطاب الكنُّوني.

المبحث الثالث: إجراءاته النقدية في قراءة النصوص.

المبحث الأول : التجليات والتَّأثيرات:

يتجلى الفكر النقدي عند الأستاذ في أمرين، أولهما المادة الفكرية للنقد والثاني آليات توظيفها وطرائق التعامل مع ما يخالفها، من هنا لزمنا توضيح قوانين الفكر النقدي عند الأستاذ وأدبياته وقواعده، حتى نقترب من الموضوعية في هذا المضمار، ونبنيَ المعيار شيئا فشيئا ولبنةً لبنة، فـمعلومٌ أنَّ الأجواد أمثال الأستاذ كانوا يتغايرون على بنات الأفكار, كتغايُرالعاشقين على بنات الأبكار.

وفيما يلي بيان ما يتجلى فيه فكر الأستاذ نقديا تحت العناوين الآتية:

1- كنُّون بين الثَّابت والمتحوِّل:

يجِبُ أن نقول بدءا في قضِيَّة الثَّابت والمتحوِّل؛ أنَّ المستشرِق الفرنسي جاك بيرك صرَّحَ "في أَحد المجالس قائلا: "كُنتُ أَظُنُّ أنَّني أوَّلُ مَن تَنَبَّه لفكرَة الثَّابت والمتحوِّل, وأوحيتُ بهذه الفكرَة إلى الكاتب السُّوري أدونيس ليُمحوِرَ حولَها أُطرُوحَتَهُ للدُّكتوراه, ويُفَصِّلَ القولَ فيها, وهذا ما فَعَلَه, ولكِنَّني -يقول جاك بيرك- بعدَما قرأتُ تأبينَ الشَّيخِ الإبراهيمي لمحمَّد ابن شَنَب في سَنَةِ 1929؛ تَبَيَّنَ لي خطَأُ ظَنِّي, وتأَكَّدتُ أنَّ الإبراهيمي أشارَ إلى هذه الفكرَةِ إشارَةً جَلِيَّة, فهو الحائزُ بالسَّبق"([130]).

ولعلَّنا نستشفُّ هذه الفكرة في إيحاءات القرآن الكريم لدى بلاغته العاليَة, ومراميه البعيدة, فعند تعرُّضه لحادِثَة إغواء إبليس أبينا آدم كيما يأكلَ من الشَّجَرة حكى الله تعالى قائلا على لسان الشَّيطان الماكر مبيِّنا أسلوبه في الدِّعايَة والتَّزوير وطريقة إقناعه لآدم عليه الصَّلاةُ والسَّلام بالكذب والخداع: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ **الْخُلْدِ** وَمُلْكٍ لَا **يَبْلَى**} [طه: 120], وهيَ الآيَة الوحيدَة التي ذُكِرَ فيها الخلدُ مقابل البلى, ولا ريبَ أنَّ الخلد

---

130 - محمد الهادي الحسَنِي "قضايا وآراء", نشر الشُّروق للإعلام والنَّشر, القبَّة, الجزائر, ط 1, سنة 2013م, ص 141.

يشيرُ إلى الشيء الثَّابت الذي لا يتغيَّر, وأنَّ البلى هو المتحوِّل لأنَّه من عوارض الأشياء لا من جواهرها, فكأنَّ إبليس بالغ في غوايته لتروجَ حيلته زاعما أنَّ الأكل من الشَّجَرَة تلك, يجعلُ الآكِلَ في نعيمٍ خالدٍ ثابت لا أثَرَ للمتحوِّلِ فيه, بحيثُ أنَّ البلى الذي هو من المتحوِّلات سوفَ يدوم ويصيرُ هو نفسُه ثابتا أيضا, و تتمُّ بذلك نعائمُه, وتدوم به نسائمُه, ويَكونَ من الفالحين, وكان ذلك أغرى للمُخاطَبِ حتَّى يزل, وأوقَع في نفسه كيما يَقع.

فالقرآن يشير إلى قضيَّة الثَّابت والمتحوِّل لمن يتدَبَّر ويحاول الاستنباط, لأنَّ إبليس أراد أن يصوِّرُ مجتمعا بل مُلكاً قد التحقَ المتحوِّلُ فيه بالثَّابت المستَقِلِّ الملائم, وأصبح العَرَضُ فيه كالجوهر القائم, واكتسى البلَى لَدَيه صفَةَ الخلود الدَّائم.

ثُمَّ إنَّ الإبراهيمِيَّ لعظيم اطِّلاعه وكبير فطنته, وكونه من المفكِّرين الأفذاذ؛ تكلَّم بهذه النَّظريَّة الفائقة كلاماً برَّاقا, وأشار إليها مُجَلِيًّا سبَّاقا؛ في مجَرَّد تأبين, فكيف لو تعرَّض لها بالشرح وبالبيان والتَّبيين, لا كأدونيس الذي تعرَّض فقَرَّض, وفحصَها فأمرَض, ووقع في خلطٍ أطول وأعرض!!!

وتأبينيَّتُهُ التي ذكر فيها فكرةَ الثَّابت والمتحوِّل, يحسُنُ أن نورِدَ منها موضع الشَّاهد, فلقد قال إنَّ البصير النَّاقد هو "الذي يَرَى أَنَّ مُشَخَّصاتِ الأُمَم منها جوهَرٌ ومنها عرَض,وأَنَّ الجوهَرَ منها هو الصَّالحُ للبقاء, وأَنَّه لا يَدَ للفردِ ولا للجماعَة في كما يشاءُ أوكما تشاء, وأَنَّ تطوُّرَهُ موكولٌ إلى تدبير الاجتماع لا إلى تدبير الجماعات, وأَنَّ العَرَضَ منها هو مَحَلُّ التَّبديل والتَّغيير, يصلُحُ لزَمَنٍ فيؤخَذ, ولا يصلُحُ لآخَر فيُنبَذ, فالمحافَظَةُ على جوهر المقوِّمات ليست محافَظَةً؛ وإنَّما هيَ حفظٌ للقومِيَّة مِنَ الاندغامِ والتَّداخُل, وعمادٌ لها أن تَتَداعَى وتَسقُط, وأمَّا الأعراض فهيَ قُشُورٌ تتحوَّلُ وتزول, فهيَ كأوراق الخريف توجَدُ وتُعدَم, والشَّجَرَةُ شَجَرَة"([131]).

---

[131] - محمد البشير الإبراهيمي "أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي" جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي, طبع دار الغرب الإسلامي, بيروت, لبنان, ط 1, سنة1997م, ص 46 .

وأنتَ إذا بحثت فيما حبَّرته يَدُ الأستاذ كنُّون تجِدُه واعيا بهذه النظرية بصرف النظر عن حدودها عنده، وهو لم يكن ليجهل أنَّها مستلهمةٌ من وحي الفكرة التي يعرفها جميع العلماء حينما يقول حكيمهم: "الحقُّ يتغَيَّرُ لبُوسُه, ولا يتغَيَّرُ سوسُه".

فهذا جزء من الكل، له العلاقة الخاصَّة بنظرية الثابت والمتحول التي نادى بها الأدباء في هذا العصر، وارتفع صيتها من أبواقٍ وحسب أذواقٍ شتَّى !، ولكنَّ الأستاذ من بينهم لم يشد نغمة أخرى تخالفها، لكننا نود أن نبيِّنَ أن تلك الحكمة المذكورة آنفا لها ارتباط من ناحيتها بأمرين:

أولهما: قضيَّة تجديد الخطاب، والتي ستنعرَّضُ لها فيما بعد.

وثانيهما: قضية نسبية الحقيقة، لا سيَّما في ميدان النقد، وهي التي نعالج حيثيتها عند الأستاذ كنُّون باختصار لدخولها في الفكر النقدي لديه.

2- رؤيته لشرعية الحقيقة وعدم الأخذ بنسبيتها المطلقة:

إنَّ العقل الواعي يقر إقرارا بأن الأحكام البشرية هي نسبية من ناحية اختلاف الناس عليها ومدى اقترابهم أو ابتعادهم عن إدراكها، لأنَّ الحقيقة ليست مختلفة في ذاتها بل في الأنفس المختلفة عليها، من هنا فإنَّ الحق مقرر ثابت سواء زعم هذا أن الصواب معه أو حكم عليه غيرُهُ بالخطأ، والناس دوما يذكرون مقولة الإمام الشافعي "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب" لإثبات نسبيَّة الحقيقة التي استعلنت في الفلسفة ثم ساحت في العلوم والآداب منذ أن نادى بها أنشتاين، وتبعه الكثير من أدباء العصر ممن لم يحققوا أقوال ولم يتحققوا بفلسفتها كنصر حامد أبو زيد في كتابه "النص السلطة الحقيقة".

بيد أنَّ هؤلاء يغفلون في تمثلهم بكلام الشافعي أنَّه هو نفسه لا يعني أن الحق غير ثابت' لأنه عنده مطلق في ذاته، لا يعتريه شك في صوابيته، لكن عدم اطلاع عليه بالقين وكونهم لا يستطيعون الجزم إلاَّ على وجه غلبة الظن هو الذي جعل تلك المقولة الشافعية تخرج من بين شفتي الإمام الحكيم.

فالحقيقة كلها شرعية في عالم المثل و في حيز التجريد لكن من الذي اطلع الغيب فرأى الصواب الذي توحي السماء بكونه كذلك، ومع ذلك هناك كثير من الأحكام التي ثبت حقها يقينيا دون ريبة، سواء كانت أحكاما جزئية أو قواعد كلية.

فقضية الشريعة والحقيقة المستلهمة من حياض التصوف ليست الموحي لأنشتاين بتأسيس نظريته، ولئن كانت هي الموحية فالخطأ خطأٌ ولو جاء من قريب.

ولقد أباح الإسلام "لمتَّبعيه البحث والنَّظر في الأصول الدِّينِيَّة ناهيكَ أنَّه طالَبَ المتَمسِّك بالدَّليل, وكرَّه الإيمانَ بالتَّقليد, فكانت هذه الإباحَة فاتِحَةَ رُقَيٍّ كبيرٍ في الأفكار وثمراتِها, إذ لا يخفى أنَّ الحُريَّة في البحث تؤدِّي إلى تَحَّاكّ الآراء, وتنازُع الأفهام فتتجلَّى الحقيقة من خلالِ هذه المنازعات الأدَبِيَّة, بل تتأدَّى العقول إلى باحات لا حدَّ لها من العلوم الاجتماعِيَّة التي عليها قوامُ الجماعة وحياة الأمَّة." ([132]).

فالرأي الجمعي هو المؤدي بالعقول إلى الجتماع وبالآداب إلى الاتساق، ويكون حينئذ أحرى بإدراك الصواب الذي لن يغيره انحياز القلة له، ولا نفور الكثرة عنه.

بيد أنَّ الحقيقة يبين بتلاقح الأفكار واجتماع الأنظار؛ مثلما يحصل الغيثُ وتكثُرُ الأمطار باجتماعِ سُحُبٍّ شَتَّى، ومن الكلمات التُّراثِيَّة: "التقليد لغير المعصوم مذموم, وفيه عمى البصيرَة" ([133]).

ومن البصيرة المتوقدة أنَّ الأستاذ عرف كيف يحقق التوازن بين مطلقية الحقيقة في عالم المثل ونسبية إدراكها غالبا في عالم الحس، بيد أنه لا يقول ديني صواب يحتمل الخطأ؛ كلا فديانة الإسلام لا يعتريها شك في صوابها ولكن الخطأ في نسبة الاحكام الجزئية إليها، وبالمقابل لا يقول لغتي العربية لغة القرآن صواب يحتمل الخطأ او أن غيرها أفضل منها، ذلك لا يكون أبدا ولكنه قد يدخلها اللحن وتصيبها الركاكة والأساليب الفهيهة التي غالبا ما

---

132 - محمد فريد وجدي "دائرة معارف القرن العشرون – الرابع عشر –العشرين", دار الفكر, بيروت- لبنان, بدون, (264/5).

133 - المرجع نفسه, (265/5).

جاءت من تأثر الكتاب واصطناعهم أساليب الكتابة الغربية مثلماغ دخل اللحن على الألسنة الفصيحة حين اختلاطها بالأعاجم، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فقد استطاع الأستاذ التوفيق بين جدلية احتمال كون الصواب في بعض المسائل عند الآخر ورفضه للتقليد أشد رفض وأقواه، وأعظمه وأعلاه، وهذا التوفيق المذكور نابع من قدرته على التَّأليف بين المتباينات، وهو الأمر الذي نحاول بيانه شيئا ما وضرب أمثلة عليه.

3- تّأليفه بين المتباينات:

إنَّ "الثَّقافَة العربيَّة كانت مطالبَة بأمرين: أحدُهُما التَّقَدُّم إلى الأمام , وثانِيهما: النَّظر إلى الوراء, وواجِبُنا إذن أن نؤلِّفَ بينَ مطلبين متباينين, مطلبُ البادِيَة , ومطلبُ الحاضِرَة, مطلبُ التَّماسُك القدي, ومطلبُ التَّفَرُّق والنَّثر" ([134]).

و من تلك المتباينات التي يطلب التأليف بينها ما يلي:

أ) - جدلية الحركة والسكون:

هذه من الأمور التي واءم فيها الأستاذ بين متطلبات الحياة العلمية ومتطلبات النهضة الأدبية، بحيث لم يختلف عنده الدين مع الإبداع، ولا الفلسفة مع الإمتاع.

ب) - الأصالة والمعاصرة:

وذلك بأن استشرف المستقبل في ضوء الحاضر والماضي، وزاوج بين الروح العصر وبين التراث مستلهما أمجاد الأجداد، وتاريخ الأعلام من الأجواد.

ج) - القديم والجديد:

فالقديم لا يزال جديدا عند من لم يسمع به إلا لساعته كأنه جاء لحينه، ولا يصير قديما إلا ريثما يأتي الجديد بحيث لو أتى ولو منذ لحظة صار قديما بالقياس إلى ما بعده، وهكذا الإنسان فإنه كائن فنان كما يقول شاكر، يظل فكره في تطور ونمو دون وجود محطات

---

134 - د. مصطفى ناصف "النَّقد العربي: نحو نظريَّة ثانِيَة",نشر عالم المعرفة, مارس 2000, ص 40 .

تاريخية فاصلة بين مرحلة وأخرى فصلا حاسما إذ مراحل التدني وجد فيها النابغون، ومراحل الرقي والازدهار وجد فيها الكسل العلمي والمعرفي، والعبرة بما غلب، بيد أنه لا يحدد الغلبة أي إنسان، وما دام لكل عصر مستجداته فأي افتعال للتناطح بين عصرين هو هذا، أي افتعال!

د) - الثبات والمرونة:

وذلك ما حققه في ناحية الثباث على الثقافة والهوية مع قابلية الأخذ عن الآخر.

هـ) - العاطفة والعقل:

ففي حيز الإبداع قد يتعارض الفكر العقلي مع الشعور العاطفي، بيد المآلفة بينهما ليست مستحيلة، إذا ما أرخينا العنان للعاطفة ترتع رياض الشعر والفن، وجعلنا العقل يتدخل بقدر الملح في الطعام بحيث يقتصر تدخله على حارستها في حدائقها الغناء حتى ترجع سالمة غانمة، كالطيور التي تغدو خماصا وتعود بطانا، لتعاود الكرة ريثما يطلع فجر جديد.

وننبه إلى كل هذه المذكورات إنما سميناها متباينات على سبيل التجوز وإلا فما دام التأليف بينها ممكنا فلا حاجة لأطلاق لفظ التباين عليها، وإن كنا نراعي كونها كثيرا ما يحدث بينها الخلاف إلا أن ذلك لا يجعلنا نتراجع عن إلطلاق اللفظ المذكور في ظل غمكانية الصلح الادبي والفكري والإبداعي الذي يجمع أشتاتها جميعا، ثم لا ننسى أن نقول إنها كلية قد جرى الكلام عليها في خلال هذه الرسالة لكننا نوسمنا الفائدة في استخراجها على حدة، ليس كل القراء بمستطيعين فعل ذلك، لا سيما ونحن لهم أشد الحرص على الانتفاع، خاصة في هذه المتباينات التي هي المحك في براعة البارع ونبوغية النابغة غدا هو حقق فيها المآلفة وأحسن بينها الملاءمة؛ وكل أحد يعلو المراتب التفوقية بحسب ذلك الإحسان.

وهذا الشعر الذي هو حديث النفس لا حديث العقل، لا يعني أن العقل لا دخل له فيه البتة، بل قد بيَّن الجاحظ (ت: **255**هـ) أن الشاعر يحتاج من عقله في شعره ما يهديه إلى سبل الرأي ومن رأيه ما يصعد به في درجات التصوير الفني، قائلا: "من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا «1» ، وزمنا طويلا، يردد فيها نظره، ويجيل فيها

عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله، زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات، والمقلّدات، والمنقّحات، والمحكّمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذا، وشاعرا مفلقا" ([135]).

4- البحث والاستقراء:.

إنَّ الاستقراء عند الأستاذ أعلى منزلة من التَّأمُّل, لكونه تعمُّقا في البحث, فهو يقول عن البلاد التي غلبت عليها النَّزعة المادِيَّة, أنَّ "الدِّينَ أصبح فيها ظاهِرَةً هامِشِيَّة, فلم يبقَ له دورٌ في حياتِها اليومِيَّة يستوجِبُ التَّأَمُّلَ فيه فأحرى التَّعمُّقَ والاستقراء" ([136]).

إنَّ من منهجِيَّته في بحث أيِّ حادِثٍ من الأحداث أو شخصِيَّة من الشَّخصيَّات, أو ظاهِرَةٍ من الظواهر سواء كانت ظاهرة أدبيَّة أو علميَّة أو تاريخِيَّة, أن يُدلِفَ إليها من أفضل الطُرق المفضيَة إليها إفضاءً, ويأتيها من حيثُ يجِبُ أن تُؤتى إيتاءً, مُقَرِّرا أنَّ "ذكرى أيِّ حادِثٍ تقتَضِي أوَّلا وبالذَّات التَّعرُّضَ لتاريخ ذلك الحادِث, وتحديد زَمَن وقوعِه, ليُطابِقَ وقتُ الذِّكرى الحادِثَ المذكور, لا من حيث الظُّروف الزَّمَنِيَّة التي وقَع فيها فحسب, بل ومن حيث الأحوال والملابسات التي صحبته وارتبَطَت به, فإنَّ أيَّة ذكرى إنَّما يُرادُ بها التَّأمُّلُ والاعتبار, ولا بُدَّ من توفير الأسباب المادِيَّة والمعنويَّة التي تُعينُ على تحقيق هذا الغَرَض المُتوخَّى من الذِّكرى".

إنَّ الأستاذ طه حُسين كتب "ذكرى أبي العلاء" بحثا وتأمُّلا, وليس لمجرَّد الذِّكرى الباهتة فضلا عن الباردة, ذلك بعظِّ النَّظر عن أنَّه في بحثه أحسَن أو أساء, لكنَّه على كُلِّ الأحوال تأمَّل ونظر, بيدَ أنَّ التَّأمُّل شيء, والاستقراء شيء آخر, كما يستفاد من تقرير عبد الله كنُّون, لهذا فكُلُّ تعمُّقٍ في بحث يحدو بالنَّاظر إلى الارتقاء لمكانة الاستقراء والاقتراب من حياضه, بخلاف التَّأمُّلَ المحضَ.

135- عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ:"البيان والتبيين" دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة 1423 هـ، 8/2 .

136 عبد الله كنون "جولات في الفكر الإسلامي" مطبعة الشويخ, تطوان,المغرب, 1400هـ/1980م, ص 5 .

الفكر النقدي الكنوني بين الشعر والنثر:

في الشعر كانت له اليد الطولى, من ناحِيَة قوله والتَّرنُّم به في شَتَّى الأحيان ومختلف المناسبات, وفي عديد من الظّروف الدَّاعِيَة, والبواعث الحامِلَة على الإنشاد.لكنَّه كان ذا شاعريَّة متأنِّقَةٍ بالفحولة من جهة, ومن جهةٍ أخرى رقراقَة منسابة, بيدَ أنَّ كثيرا من شعره امتاز بالمباشرة والوضوح, كسائر شعر متعدِّدي التَّخصُّصات والفنون. فلقد سَمَّاه النَّاس بالشَّاعر الأكتب لكثرةِ ما يُعطِّرُهم به من القصيد, غير أنَّه موفَّقٌ إلى حدٍّ ما في اختيار البحور الملائمة لموضوعات نظمه.

أوَّلا الطبع والصَّنعة:

العبرة عند الأستاذ دوما بما عليه النص من جودة سواء انفصم عن صاحبه في مدة وجيزة أو طويلة، وسواء أنجزه ارتجالا أو أعدَّده نزالا، بمصارعته ومحاولة صنعته لبلوغ الجودة والإتقان، والحسن والإحكام، ممَّ يشحذ الملكة وينمي الإبداع، لكنه في الوقت نفسه لا هو ولا غيره بمنكر أن من أضيفت له إلى تلك الممارسة موهبة سماوية في رحاب الفن يكون أفضل ممَّن ليس ذلك، على أن النص إذا كتبه هذا قد يكون أفضل من نص ذاك، فالموهبة لا تعطي لصاحبها تفوقا على من عانى من اكتساب الملكة حتى حذقها، أو تمِدَّه بالتَّغلُّب في جميع الأحوال، خاصة وأن المواهب تحتاج إلى الممارسة والمدارسة حتَّى تُصقل وتزداد، وذلك هو احتياج الطبع إلى الصنعة كيما تهديه في بعض طرق السَّداد.

وبرغم ما نقول مطولين أو مختصرين في ناحية الإبداع هذه من تقديم الطبع أو الصنعة؛ إلا أنَّ النقد لا يقول واحدٌ إنَّه موهبة لأنها من نصيب الإبداع، فإذا قيل للطبع يدٌ في النقد فنعم، أمَّا أن يقتصر عليه كاقتصار المبدع الموهوب، فلا، إلاَّ إذا كان الطبع هو الانطباعية، وذلك ما يرفضه روح النقد ويتبرَّأُ منه لسانه.

وهذا الأستاذ كنون يشيد بنقده قصيدة دون أن يعرج على طبع ولا صنعة، ناظرا للنص الأدبي الشعري كما هو، فيتكلَّم عن القصيدة الوضَّاحِيَّةُ في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها للإمام أبي عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي المعروف بابن بهيج (كان حيا سنة 496هـ) قائلا:

"هذه قصيدة من أروع الشعر وأبدعه، في مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، اشتملت على ذكر فضائلها، وفضائل والدها أبي بكر الصديق، ومجادلة الخصوم المبغضين لها المتقولين عليها، ومحاجتهم بالدليل من الكتاب والسنة في أيمان صادق ودفاع حار، وبالواقع التاريخي الذي لا نزاع فيه من سيرتها العطرة وسيرة أبيها الخليفة الأول رضوان الله عليه، وكل ذلك بأسلوب بارع وبيان رفيع، ونظم محكم متين، وإلى هذا وبقطع النظر عن كل اعتبار، فالقصيدة تعبر عن عاطفة إنسانية رفيعة لأنها تتخذ موقف المساندة بجنب سيدة شريفة أثناء أزمة هي أعنف أزمة تمر بها امرأة في حياتها، فتنافح عنها وعن كرامتها حتى تحتفظ لها بسمعتها الطيبة وذكرها الجميل.

ومما أبر به صاحب هذه القصيدة أنه جعلها على لسان السيدة عائشة نفسها، فبعد المطلع الذي يوذن بمقصوده تخلص في البيت الثاني إلى إعطائها الكلمة، فجعلها هي التي تناظر وتفاخر وتدفع في نحور الأعراء بسلاح الحجة والبرهان الذي يطوقهم الخزي والعار، فلو أنها رضي الله عنها نطقت فعلاً بشعر في الموضوع لما زادت على ما احتوته هذه القصيدة، وهي من هي قوة بيان وشدة عارضة.

وهذا مما يدل على بلاغة منشئها، ومقدرته البيانية، وتمكنه من صناعة الشعر، فضلاً عن رسوخ قدمه في المعرفة بعلم الحديث والسيرة النبوية والتاريخ وسائر العلوم الإسلامية.

وهذا نص القصيدة:

مَا شَـانُ أُمِّ المؤمنين وشَانـي ** هُدي المُحِبُّ لها وضَلَّ الشَّـاني.

إنِّـي أقـول مُبَيِّناً عن فَضْلِـها ** ومترجِـماً عن قَـولها بلِسَانـي.

يا مُبْغضي لا تَأْت قَبْرَ محمَّدٍ ** فالبَيْتُ بيتـي والمَكـانُ مَكانـي.

[إلى أن قال:]

خُـذْها إليكَ فإنَّمَا هي رَوْضَـةٌ ** محفوفَةٌ بالـرَّوحِ والـرَّيحــانِ.

صَلَّى الإلــهُ على النبيِّ وآلِــهِ ** فَبِهـمْ تُشَـمُّ أزاهِـــرُ البُستـانِ" ([137]).

137- مجلة المناهل، تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الرباط- المغرب، العدد السادس، السنة الثالثة، رجب 1396هـ/ يوليوز 1976م، (ص:25 - 34). وانظر - كتاب القصيدة الوضَّاحِيَّةُ في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها للإمام أبي عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي المعروف بابن بهيج (كان حيا سنة 496هـ)، اعتنى بها: محمد صالح يعقوبي، دار البشائر الإسلامية ـ لبنان ـ الطبعة الأولى 1423هـ/2002م (ص374 - 377).

وعدادُها ستَّة وخمسونَ (=56) بيتا, و ما أود التنبيه إليه أن الأستاذ العلامة الأديب عبد الله كنون أول من حقق هذه القصيدة معتمدا في ذلك على النسخ المخطوطة التي وقف عليها، وهي أربع نسخ, و طبعها و نشرها بالمغرب، ضمن مجموع من القصائد الفريدة كقصيدة (أنجم السياسة) و (الشقراطسية) و غيرهما، و قد صدر هذا المجموع عن دار الثقافة بالدار البيضاء، سنة 1410 هـ، وكان مدحه إيَّاها عن رؤية نقدية واثقة، ونظرةٍ صائبة صادقة في تقييم العمل الأدبي.

ثانيا: عدم التلازم بين تقويم البيت الواحد وتقويم قائله:

فهذا بالنسبة للقصيدة أمَّا عن نقد البيت الواحد على حدةٍ فقد وُجد من قال بأنه لصغر مساحة القول فيه لا يكون مجالا مفسوحا للبلاغة، وبالتالي من الخطأ مدحه والتعجُّب من بيانه، لأجل أنه لا يحصل نظرةً مستوفية على صاحبه تمكِّنُ الناقد من تصنيفه، لكن هذا القول لمَّا ربط بين الحكم على البيت الواحد برمته والحكم على الشاعر بكليته دعا الأفاضل إلى رد قوله، ذلك أنه لا علاقة بين الحكم على البيت وتقييم صاحبه، فالأول كائن سائغ، والثاني لا تكفي فيه قصائد، فضلا عن البيت الواحد، فمدح الجزء لا يعني بالضرورة مدح الكل، فالتقييم الكلي لا يقوم إلا على الكليات، والتقييم الجزئي يقوم على الجزئيات كجزئية البيت المفرد، فهذا شيء بدهي ولا إشكال.

لكنَّ الأستاذ العقَّاد إزاء هذه القضية في مدح الناس بيتا وذمهم بيتا آخر, وقولهم من قديم :"أفضل بيت قيل في الوصف هو كذا, أفضل بيت قيل في الرِّثاء هو بيت كذا, وأحسن بيت في الغزل هو البيت الفلاني", فقد انتقد العقاد في بعض كتاباته, هذا التَّوجُّه منكرا أن يكون الجمال جزئيًّا لأنَّ الحكم تابع للكل فجمال المرأة ليس قاصرا على شعرها حين يكون وجهها قبيحا, وليس لقامتها إذا كانت بشعة المنظر, والحقُّ أنَّ قول الأستاذ العقاد مقبول من الناحِيَة الكلِّيَّة للحكم, لكنَّ الذَّهاب إلى إنكار الجزء هو إهدارٌ للأحكامِ الجزئيَّة, وهيَ كائنَةٌ لا محالة, فلا زال الناس في الماديَّات وفي المعنويَات يمدحون شيئا و يذمون شيئا في نفس الذَّات التي يوجِّهون إليها آراءهم فيتوافقون أو يختلفون, ولا يعزب عن أيِّ إنسان أنَّ الفتاة قد تكون حسنة القوام, لكنَّها بذيئة الكلام, أو جميلة العينين لوزيَّتاهُما تَسحَرُ من يراهما حتَّى لكأنَّهما تقولان له تعال إليَّ فيقبلُ مسرعا, في حين يصُدُّه عنها أنفُها فيرتَجُّ, لأنَّه مقوَّسٌ مُعْوَجٌّ, حتَّى

لتجدهم يقولون: فلانة ليس فيها إلاَّ العينان اللَّتان إن لم تقتلا ناظرَهُما أرديتاهُ عليلا, وفلان ليس فيه من جسمِه إلاَّ شعره إذ كان جميلا, وتلك المرأة ما لها من حسنٍ سوى أنَّها بيضاء, والأخرى يا لها لو كانت بيضاء لكانت فاتنة, ولاغتدت أجمل من هذه الكائنة!!!

فكذلك الشَّأن في قصيدة من القصائد قد لا يكون من بيانها إلاَّ بيتٌ واحد, و قد يكون البيت يتيما فيمدحُ أو يذمُّ, كقول امرئ القيس:

أفسدت بالمَنِّ ما أوليتَ من نعمٍ ** ليس الكريم إذا أسدى بمنَّان.

وهو من بدائع الكلام, الذي يلتقي مع معاني آيات الإعجاز القرآني العظيم.

و ها هم أولاء المشاهدون لآثار المسلمين في الأندلس, يمدحون أشياء من سائر البناء و لا تعجبهم أشكال من الدُّور أخرى, وخذ مثلا بالكاتب العملاق المتعدد الفنون واللُّغات, والمتنوِّع العلوم والتَّخصُّصات, البحَّاثة الموسوعي "جوزيف ماك كيب", فهو يذكر, حين شاهد أعاجيب البناء وفنون المدنيَّة والعمران في الأندلس؛ أنَّهم لا يهتمُّون بالشَّكل الخارجي للمبنى, فإذا دخلت فيه تهت في أفيائه, ووقفت مشدوها لأناقَةِ بنائه, وحَذَاقَةِ نافورته وفنائه, إذ كان العربُ يركِّزون اهتمامهم بالدَّواخل, بيدَ أنَّ عمرانهم تحفة من التحف النَّوادر والبدائع الفريدة, وإتقانا مصوَّرا في جنَّاتٍ بهيَّة وحدائق عجيبَة وقصورٍ مشيدَة, وفردوسا فائق الزينَةِ والعَبقَرِيَّةِ والجَمال.

يقول عن جامع قرطبة: "الناس من جميع أنحاء الدنيا يسافرون إليها ليشاهدوه, ... وهو آيَةٌ لا نظير لها من الهندَسَة والبناء, وظاهر هذا المسجد لا يستولي على اللُّب. ولم يكُن المغربيُّون الذين كانوا يفضِّلُون الإقامَة داخل البيوت أكثَرَ مِن خارِجِها يهتمُّونَ نسبيًّا كثيرا بالمظاهر. وأمَّا في الدَّاخل فهناك العجائب" ([138]).

[138] - جوزيف ماك كيب "مدنِيَة المسلمين في إسبانيا" ترجمة د. محمَّد تقي الدِّين الهلالي, دار الكتاب والسُنَّة, عين شمس الشرقية, مصر, ط1, سنة 2007م, ص 53.

فهذا وصف وإخبار, قد يلتمس منه القارئ أنَّ "ماك كيب" يعيب العرب في عدم اهتمامهم الكبير بالمظهر الخارجي للبيوت والمساكن والقصور, لكنَّه لا يجُرُّ الحكم على الكُلِّ, بل الحكم هنا جزئيٌّ واقعٌ على شيء معيَّن فقط, فلا محالة يتوقَّفُ عنده ولا يتعدَّاه.

وتأمَّل إلى ما يتمَثَّلُ به الكتَّاب والمؤلِّفون من الشِّعر حين يعالجون قضِيَّة أو يقرِّرون أمرا يتناسب مع قولِ شاعر, تجد المتمَثَّل به لا يعدو البيت أو البيتين في أكثر الأحوال, فتراهم يكتبونه مستأنسين داعمين به كلامهم, بالغين من خلالِه مرادهم إلى حيثُ يقصدون.

وكذلك كانت الحِكَمَ لا تعدو البيت الواحد, ولأْيًا ما تكون في بيتين بله مقطوعةٍ شعريَّة!

وأنت خبير بقول النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم: "أصدَقُ كلمَةٍ قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ (139)" (140), مع أنَّها صدرٌ فقط, أي هي مجَرَّدُ نصفِ بيتٍ وليس بيتا كاملا حتَّى, بله قصيدَة فضلا عن قصائد شَتَّى, ومع ذلك جاءها الحكم الجزئيُّ عليها فكانت مضرب المثل لمن يعقلون.

وليس خفِيًّا عن فطنةِ الفطِن أنَّ الذَّاهب في غياهب نسف الأحكام الجزئيَّة ولو على أبيات الشِّعر سيُواجه معضِلَةً تصُدُّه عن بابه, وتطيحه من ركابه, ذلكَ أنَّ القصيدة ربَّما كانت نصفَ حسنَةٍ بأن تكوَّنت من عشرة أبياتٍ مثلا ولم يكُن فيها من الشَّاعريَّة إلاَّ خمسَة, فماذا هو قائل في الحكم عليها أبالحسن أم بضِدِّه؟, أفتغلبُ الخمسَةُ خمسَةً مثلها؟, فعسى ولعلَّ!

كيفَ وقد تساوى الطَّرفان, بحيثُ إن قال بهذا ردَّه عن حكمه طرفها الآخر, ولم يجد سبيلا, بل يجدُ الإنصاف بالحكم على الأنصاف, أي أنصاف الأشياء و النِّصفُ إنَّما هو جزء في هذه المحاكمة النَّقدِيَّة, فلا بُدَّ من اعتباره, ووضعه في الحسبان.

139 - هو مطلع بيت تمامه: وكل نعيم لا محالة زائل. بَيدَ أنَّ نعيم الجَنَّة لا يزول فمن هذه الوجهَةِ كان انتقادُه, وبيته هذا تاسع الأبيات من قصيدة بلغت إثنين وخمسين بيتا يرثي بها النعمان بن المنذر, وانظر ديوان لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري (ت: 41هـ) اعتنى به: حمدو أحمد طمّاس, دار المعرفة, ط1، 1425 هـ - 2004م, ص 85.

140- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب, باب باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه, حديث رقم 3628. وأخرجه مسلم في صحيحه، في أوائل كتاب الشعر, حديث رقم 2256, واللَّفظ له.

ثُمَّ إنَّ الحكم الكُلِّي الإجمالي على شيء لولا تراكب الأجزاء لما كان, ولولا الجزء المتضامُّ مع أخيه أو إخوته لَمَا حكم ناقد عليه بحسن أو بذم, وما دامت الأشياء إنَّما تأخذ أحكامها الأغلبِيَّة سلبا وإيجابا مِن تعويض جزئها الزَّائد في حُسنه لجزئها النَّاقص, وتتفادى دُنُوَّ بعضها ببعضِها الباقي المُكسِبِها عُلُوًّا؛ فلا جرَم أنَّها رابحة عن طريق تعويض خسارتها الشِّعريَّة بأبياتها الرِّبحِيَّة النَّاجحة في ميزان النَّقد, وبالتَّالي فالجزء هو المرجع واللِّسان في ترجيح هذه الكِفَّة على أُختِها تلك, فهل بعدَ هذا يتجاسَرُ ناقِدٌ وزَّان, ليقطَعَ بمذهبِه لسان الميزان, فيُمسي من المطَفِّفين؟!!

إنَّ بودِّنا أن نبسط الدَّلائل الذَّوقِيَّة والمنطِقِيَّة على القِضِيَّةِ هذه, لولا أنَّ حجم الرسالة يشُدُّ لجام مدادنا, وزمام ركابنا عن الصَّولة والجولةِ والإقدام, فحسبُنا ما سُقناه, وهو كافٍ إن شاء الله.

لكننا لا نغادر القضية حتَّى نُطلع القارئ على مثال حيٍّ ورأيٍ ناصع فيها للأستاذ كنون، فقد قال الشاعر:

ما هزَّ عطفيه بين البيضِ والأسَلِ ** مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي.

فيعلق الأستاذ على هذا البيت الجميل قائلا:

"بهذا المطلع المطرب وحدَه, وهذا البيت البليغ المفرد, مدَح محمد بن أبي العباس السَّمعاني عبدَ المؤمن بن علي الذي استعادَه منه واستعادَه, وأمرَهُ بأن يقتَصر عليه, وأجازَه فيما يقول العماد الأصبهاني في كتاب الخريدَة بألف دينار قائلا له: لقد قلت في هذا كُلَّ شيء" ([141]). ثمَّ ذهب الأستاذ كنُّون يقيم الحجج والبيِّنات ويُرسي الدَّلائل على ذلك قائلاَ:

"نعم لقد قال فيه كلَّ شيء. أليس قد مدحه بالشَّجاعة والتَّفوُّق فيها, حتَّى نفى عن غيره أن يكون هازا عطفيه مثلَه, في الوغى المرتفعة بين السُّيوف اللامعة؟

وانظر أنتَ إلى رشاقَة هذا التَّعبير و ما فيه من الحُسنِ والجمال , أليس يدعو إلى الإعجاب بحسن خَلقِ عبد المؤمن قبلَ الإعجاب بحسنِ خُلُقه, وبرشاقَة قدِّه واعتدال مشيَته قبل شجاعة

141 - عبد الله كنُّون "النبوغ المغربي في الأدب العربي" ط 2, بدون, (110/1).

قلبه وثبات جأشه؟ وفوق هذا وذاك أليس قد دعاه بالخليفة؟ وهذه هي الأمنيَة الحلوة التي طاما تمَنَّاها ملوك الإسلام وحلموا بها في منامهم, حتَّى المضروب على أيديهم منهم, فيَعُدُّونَ الشرف الصَّميم والفخر العظيم والغاية التي لا قبلها ولا بعدَها أنيُنعتوا بالخليفَة, .. لذلك فعبدُ المؤمن النَّاقد البصير يحِقُّ له يُشير على السَّمعاني بالاقتصار من القصيدَة على مطلعِها هذا لأنَّه كما قال قد جمع كلَّ شيء يمكنُ أن يقولَه شاعر في ملكٍ ذي صولَةٍ وبأس مثل عبد المؤمن" ([142]).

ثُمَّ علَّل الأستاذ كنُّون أحقِيَّة ذلك الاقتصار بعلَّة نفسِيَةٍ دافعة, تتخلَّلُها علَّةٌ حقيقيَّةٌ واقعة عند أذكياء المجرِّبين من النبهاء, فقال:

"وهو من جهةٍ أخرى خَشِيَ أن يدرُسَ البيتُ ويضيعَ في تضاعيفِ القصيدَة, فإبقاؤه على حاله من الفردِيَّة أدعى إلى حفظِه وسيره وتخليدِه في النَّاس" ([143]).

وتأمَّل كيفَ ركَّب الأستاذ جملته الأخيرة هذه, فإنَّه ذكر الحفظ وهومن أسباب سير الشيء المحفوظ في الناس, ثُمَّ ليس كُلُّ سائرٍ يُخلَّد, فإذا كُتِبَ له الخلود فتلك درجةٌ أعظم من مجرَّد السير.

فعبارات الأستاذ دقيقة مضبوطة, وهي بالأناقَة مشروطة, وإنَّنا لنحمدُ هذا القلم, ونشكر ذلك العلم الذي أبدع وأفاد, وصال فأجاد.

ثالثا: قصيدَة النَّثر:

كسائر ما يدلي به من أفكار ويختاره من آراء عن بحث وبيِّنة, اعتاد الأستاذ على ألاَّ يقول قولا إلاَّ ومن ورائه حججُه وبراهينه, ذلك ما ينفي عنه الانطباعيَة في المواقف, والمزاجِيَة في القناعات, فهو الرَّجُل الذي لا تهديه عاطفتهُ وحدَها إلاَّ وهيَ مستصحِبَةً العقل البصير معها, فلا الهوى يقوده, ولا محض التَّفكير المجَرَّد الجاف الخالي عن الذَّوق الرَّقيق يتحكَّم في توجُّهاته, تلك هي النَّمطِيَّة العقليَّة المتَّزنة في رؤيته وأحكامه.

لم يكن يحِبُّ أن يُسَمِّي الأشياء بغير مسمَّياتها, لأنَّ ذلك يخالفُ طبيعته التي لا تعرف الخَفاء

[142] - المرجع نفسه (110/1).
[143] - المصدر نفسه (110/1- 111).

والتَّلَوُّن, من هنا فقد جهر برأيه القاضي بإبعاد النَّثر من حَيِّز الشِّعر, مُبيِّنا أنَّ قصيدة النَّثر ضربٌ من الخداع الذي يُرَوِّجُ به المفلسون من تُجَّار النَّظم قصيدَهُم, وفي الوقت نفسه لم يعزل الأستاذ النَّثر من حَيِّز الشَّاعريَّة وإن لم يكن شعرا ولم يسمَّى باسمه لأنَّ طبيعته ليست من طبيعة الشعر, ولا معدِنُه من معدِنِها, فربَّ نثرٍ فيه من الرُّوح الشِّعريَة أكثر من كثير من الأشعار, لكنَّ هذا لا يسمح له أن يُعدَّ شعرا, ولو تحت ذريعة عدم المشاححة في الاصطلاح, لكون التَّشاحح المنفيَّ هاهنا موضعه عندما لا يؤدِّي إلى اشتباه, وهو الأمرُ الحاصلُ فيما يُسَمَّى بقصيدة النَّثر, إذ هي تزيلُ الفوارق بين الشعر والنَّثر فيُمسِيَان سواء, وهذا ممنوع في الفنون والعلوم وإن تداخلت, فالاصطلاح حينئذٍ يزيُدها تداخُلا وانمزاجا وتشابها, حتَّى لا يصير بينها حدٌّ فاصل, ولا فرقٌ ماثل, وتصبح الأجناس الأدَبيَّة ذاهِبَةً في الانقراض.

لذا؛ كانَ المنع أولى, ولحقائق الفنون أجلى, ولماهِيَة الأشياء أحفظ وأبقى, وتلك هي حقيقة الأمور أن لا تحور ولا تغيَّر أو ينالها التشويه.

وكما أنَّه لا يجوز تشويه المسمَّيات فكذلك لا يجوز تغيير الأسماء لأنَّه يفضي إلى تغيير تلك المسمَّيات و قلبِ حقيقَتِها, وكلُّ ما أفضى إلى ذلك وجب أن يُقابلَ بالمنع والامتناع, وهو ضرب من الزور والخداع, والعاقل لا يُسَمِّي المُفَرَّقَ مجموعا فكذلك لا يُسَمِّي المنثور منظوما, وما دُمنا لا نُسَمِّي المتباين متَّحدا, فكذلك لا نُسَمِّي النَّثر قصيدا, وإلاَّ ظَلمنا صُورَ الأشياء, وأسأنا بالغ الإساءة إلى الجواهر بتزوير المظاهر والأسماء, وإنَّه لا يعمل شيئا من هذا الفاهمون فضلا عن ذوي الألباب, بله أن يُنكِّسوا المعاني والمباني والألقاب, ويضعوا هذا في مكان ذاك, وقديما قيل في تعريف الحكمة: "هي وضعُ الشَّيء في موضعه".

إنَّ لكُلِّ شيء حدُّه وتعريفه, إذا نحن ضممنا إليه ما ليس من حقيقته دون قصد فهو الخطأ قد جاء توظيفُه, فإذا تفاقَمَ الأمر حتَّى بلغ أن يكون الخطأ متعمَّدا فهو تحطيمُ الشَّيء وتحريفُه, فأين لقصيدة النَّثر بعدئذٍ من محِلٌّ في رحاب الشِّعر أين؟!, بل من أينَ لنا أن نَسَمِّيها قصيدة, وهي بعيدة عن القصيد .. بعيدة!!

وربَّما صَحَّ لنا أن نتمَثَّل في هذا المقام بقول القائل:

إنَّ الغراب بأرضنا يستنسِرُ.

بيدَ أنَّ الغراب ذاك إنَّما استنسر لمَّا خلت الأرض من نسورها, أمَّا قصيدة النَّثر فيا ليتها فعلت فعله, بل هي تستنسر والأرضُ ملآنةٌ بنسور الشِّعر وصُقوره, كأنَّما تريدُ مُناطحَتَهُم, فلم تضرهم وضَرَّت قرنها وهوَت, طريحَةً صَريعةً لليدين وللفَم!!

ولنا بعدُ أن نقول بكُلِّ اطمئنانٍ وبيانٍ [الخفيف]:

سَمِّ نسرا هذا الغراب ولكـن ** لا تسمِّ المنثورَ باسمِ القصيدِ.

إنَّ ماءً يَبقى اسمُه مَعْ حَمِيمٍ ** ليس يبقى إنْ يَشتَعِلْ كالوقودِ ([144]).

هذا موقفنا بصراحة لا مكان فيها للمداراة فضلا عن المداهنة، فقد رأينا الكثير من النقاد يسالمون، ويخافون من الإدلاء بآرائهم خوفا من أن تقصيهم الساحة الأدبية بأدبائها وقرائها، وتجانفا لجرح مشاعر زملائهم من الذين يقيمون معهم المساجلات ويحضرون وإياهم الندوات والمؤتمرات لا سيما إذا كانوا من المشارقة الذين لم تظهر ظاهرة ولو كانت بائرة إلاَّ وتحمسوا لها، لرغبتهم العظمى في الجديد وتسارعهم إلى التجديد كيفما كان؛ لمجرد أن يحوزوا فضيلة السَّبق إليه، كمثل ما فعل صلاح عبد الصبور المصري فإنَّه لما فات المصريين أن يكونوا هم أول من استحدث الشعر الحر؛ انتدب هو للقيام بالتنظير له قبل أن ينظر له الآخرون.

إن الكسل العلمي كالجبن المعرفي، وهو ما نلمحه في بعض كتابات الأستاذ المعاصرين وإن كانوا كبارا في العلم والنقد والمعرفة، فنجد منهم –بكلِّ أَسف- ألوانا من هذا الإرضاء لما عليه جمهور الساحة الأدبية من رفض للأفكار المناهضة لما يحبون، والضرب على صاحبها بالإهمال رغم دعوى الرأي والرأي الآخر ورحابة الصدر لتقبل الآراء المخالفة، فهؤلاء النقاد والأدباء الكبار يلوذون كثيرا بما يمكن أن نسمِّيه "النقد البارد" لما لا يتفق مع

144 - يقال ماءٌ حميم أي ماءٌ ساخِنٌ حار, يُنظَر محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري "لسان العرب" دار صادر, بيروت, ط3, سنة 1414هـ, مادَّة (حمم), (153/12).

رؤيتهم وأحكامهم من قضايا ومسائل، وهم بذلك يظهرون ملائمين بين المتباينات بطريقة خاصة لا تجدي نفعا، ولا تقبل عند الواضحين سمعا، وتلك هي المغالاة في مراعاة الآخر، ونحن وإن كنا لا ننفي هذه المراعاة إلاَّ أننا نرفض التغالي فيها، وحسبنا أن نفعل كما فعل الأستاذ عبد الله كنون من الأخذ بقاعدة "مراعاة الخلاف" كما هو مفهومها عند علماء أصول الفقه الذين حاربوا التقليد ونظروا لفقه الخلاف، وذلك بالاعتداد بها عندما يكون مجرد واصف لا مناقشا، وحينما يصبح لرأي الآخر وجاهة، وتكون دلائل الرؤيتين متقاربة، فحينئذٍ يكفكف الناظر من الجزم برأيه ولا يذهب بعيدا في تخطئة خصمه معالجا المسألة أو القضية بنوع من البرود، لكنْ ليس بنوع من المداراة أو الجمود!

ذلك، لأنَّ الناقد قدوة، ومن شأن المقتدين به أن يحاكوه، فإذا كان حاله على ما وصفنا أصبحوا يتأخرون بتأخره، وبذلك يتراجع النشاط النقدي دون أن يمضي في تطوره، إذ لا يخفى أنه كما يكون الأديب يكون القراء، وكما يكون الناقد يكون الشعراء، وهذا ما سنوضحه فيما يأتي.

رابعا: الكشف عن التناسب الطردي بين النقاد والشعراء:

إنَّ الأستاذ قد أرسى البُنيان, بِبَيان أنَّ النَّاقد إمامٌ للشَّاعر عليه أن يترسَّم خطاه, ويبلُغ في اتباع سيره إلى منتهاه, فهو الموجه إلى أحسن الوجوه, وهو الدَّالُ الخبير بمخاطر الطَّريق, إنَّه في كُلِّ ذلك الهادي الخِرِّيتُ والصَّديقُ الرَّفيق, لا يترُك ضالا إلاَّ بصَّرَه, ولا سائلا إلاَّ نوَّرَه, يعلو بنقده, ويرتقي في الحُسنِ برَدِّه, فيعلو الشِّعر ويرتقي الشُّعراء تَبَعاً له.

لكن؛ عندما تنعكس الفهوم والأقوال, وتنقلب الأمور والأحوال؛ لا تَرى سوى الصُّورة الطَّبيعيَّة قد احتَلَّ فيها القدمان موضع الرَّأس, وصار البدَنُ بلا كساء, والسُّقم بلا شفاء ولا طبيب.

ذلك بأن تدنو ملكة النُّقاد فيمسونَ مع الشُّعراء في قَرَن, بل ربَّما فاقهم أولاء وقادوهم إلى حيثُ ألقت رحلها أمُّ قشعَم, فيسرعون إلى الوهدَة حتَّى يلتقوا جميعا في منازل الهبوط ودركات الحضيض, ليُدَبِّرَ الأمور الأدبيَّة حينذاك معوَرٌ بعدَ معوَرِ وسطَ سُدُف الظَّلام, بتوجيهات مستلهَمَةٍ من وحيِ الصَّفير وظِلال النَّقيق, كما قال الشَّاعر:

إذا غابَ ملاَّحُ السَّفينَة وارتَمَت ** بها الرِّيحُ يوماً دَبَّرتها الضَّفادِعُ.

وأقول مُتَمِّما:

فَمَهما رأيتَ الحالَ يهدَأ لا يرى ** ركونا إلى حُسنِ القيادَةِ طامعُ.

كمثل شعوبٍ في التَّنازُعِ شِقوَةً ** إذا راحَ حُكَّـامٌ ولَم يبقَ وازِعُ!

وأيًّا ما يكن الحال تدبيرا حسنا أو سيِّئا, و شأنا قويًّا أو ضعيفا ومنزلة عاليَة أو دنِيَّة بالنِّسبة للنُّقاد والشُّعراء, على السَّواء؛ فالأصل أنَّ النَّاقد مرآة الشَّاعر باطِّراد, كما يكونُ هذا تبدو صورة ذاك بلا تضاد, و أنَّ البصيرة النَّقدِيَّة كلَّما اغتدت صحيحة مصقولة؛ ظهرت المشاهد الشِّعريَّة مليحَةً غير معلولَة, مُغتَنِيَةً بِبَهاءٍ عُجاب, ومنظرٍ خلاَّبٍ لدى النَّاظمين, وإلاَّ كانت لوحات الكلام الفنِيَّة مجَرَّد مجموعَةً من الصُّوَرَ المستوخِمَة.

لهذا؛ "يرى عبد الله كنون أن الشعر المغربي ضعيف، وضعفه آت من عدة عوامل منها قلة الحصيلة اللغوية عند الشعراء، ومنها عدم التمكن من قواعد الشعر، يقول: "ولقد وجدت ذات مرة في قصيدة لأحد الشعراء الذين منحوا الجائزة الأولى تفعيلة زائدة في بيت من أبيات القصيدة. ومن الغريب أن هذه الزيادة المباركة مما يدل على أنه كما يكون النقاد يكون الشعراء" ([145]).

ولهذا السبب استحسن ديوان (لمحات الأمل) للشاعر عبد القادر المقدم، وعدَّه "خاليا من عيوب الوزن والقافية التي قلما يخلو منها شعر ينشر في هذه الناحية من نواحي المغرب"([146]).

فخلل القافية عيب والانكسار الوزن عيب آخر، خلافا لمن يقحمون هذا الانكسار وذاك العثار في قالب التجديد، وشهادة الأستاذ كنون في هذا الصدد بأنه لا يخلو أي شعر ينشر في أي ناحية من نواحي المغرب من تلك العيوب؛ دليل على نفور الناس من القصيدة العمودة ولياذهم بالحر الحر وشعر التفعيلة لأجل الضعف المستكن، والقصور الفادح، وليس لاجل التجديد، إذ المجدد هو من يحب تغيير الشيء لأنه تعايش معه مدَّةً وألفه، أمَّا هؤلاء فيجددون الشيء الذي هو جديد بالنسبة إليه فيهرعون للشعر الحر وهم لمَّا يألفوا فضلا عن

145 - عبد الله كنون "خل وبقل" ص: 202, بواسطة خشان خشان "قضايا عروضية في النقد المغربي الحديث - منتديات واتا الحضارية.

146 - عبد الله كنون "واحة الفكر" ص: 133 - (وانظر مقدمة لمحات الأمل),بواسطة المرجع السَّابق.

أن يؤلِّفوا وينظموا قصائد الشعر العمودي، وذلك هو الهرب الحديدي المغطى بأسمال الفكر التجديدي الرقيق!

ولطالما قال النُّقاد في سياق الذَمِّ لشاعر من الشُّعراء, إنَّ شعره نثر موزون, وليس في شعره إلاَّ مزيَّة الوزن, فإذا كانت قصيدة النَّثر مجرَّد كلام منثور ثُمَّ هو غير موزون, فماذا هي إذن, وكيفَ نُسَمِّيها, لاسيمَّا إذا كانت خاليَةً من الشَّاعريَّة البلاغيَة, فبأَيِّ حقٍّ تُسَمَى شعرا حينئذ؟!

أَلاَ إنَّ أحقَّ الأسماء بها اسمُ: "النَّثر الفَنِي" شريطة أن تكون بليغة رائعَةً كأنَّها الشعر, أمَّا أن نكَسِّر الأوزان ليصير الكُلَّ نثرا متجاهلينَ أنَّ الوزن نوع من الإيقاع الخارجي المشكِّل للظاهرة الصَّوتيَّة, وللذَّائقَة العربيَّة البديعة في فنِّ القصيد, وَصُنع النَّشيد, وقرض الشِّعر؛ فلا, ثُمَّ لا, ثُمَّ مُحالٌ.

لأنَّه لا يُعقَلُ وُجودُ فنٍّ شعري لا يقوم في إطارٍ مُعَيَّنٍ وشكلٍ محدَّد, والشِّعر أبرزُ ما فيه ظاهريًّا لدى المسامع هو الوزن, فكيفَ يُسمَحُ بالتَّخلِّي عنه مهما اختلفت قوالبه وتعدَّدَت أشكالهُ التي هي بمنزلة الجسد الذي تَحِلُّ فيه الرُّوح الشَّاعريَّة حالَ تخَلُّقِه وتكوينه, وكيفَ يُمكنُ –بعدَ ذا- أن يُعدَّ الكلامُ قصيدَةً بدونه!!

لعمري – وما عمري عليَّ بهَيِّنِ – إنَّ هذا هو التَّجديد الذي يقضي بالفن على الفن, ويُلِمُّ ما أهدَرَهُ في كفن, ليرميه في مقبَرَة الأجناس الأدبيَّة, القائمة على ضياع الحدود, وإذابَة الفوارق بين أنواع الفنون, لتصير ممتزَجَةً مختزَلَةً, وهلامِيَّةً مهلهَلَة كأنَّها معجون, جاعِلَةً جميع عصائر الأَدب مُجَرَّدَ عصير واحد هو عصير اللَّيمون!!!

إنهم لا يستطيعون عصر أنفسهم لإبداع شعر عمودي موزون !!

وإذن؛ فزعم الضعفاء أنَّ الوزن ليس جوهريا في الشعر، فدلك ضعفهم الثاني حين يعجزون عن إدراك أن العروض يجسِّدُ في ثناياه مميِّزات الذَّوق العربي، من جهة، وأنَّ الوزن من -جهةٍ أخراةٍ- ضروريٌّ في الشعر – كما يقول المازني- "وليس هو بالشيء المصطلح عليه ولكنَّه جوهري لابد منه وإن شئت فقل هو جثمان الشعر , وليس يكفي أن تدعوه ثوبا يخلعه الشاعر على معانيه فتشير بذلك إلى أنه شيء منفصل عن الشعر , لأن الإنسان لم يخترع

الوزن ـ لا، ولا القافيةـ ولكنهما نشآ منه , ولا شعر إلا بهما أو بالوزن على الأقل" ([147]).
ومعنى هذا أنَّهُ لم يخترع الوزن و القافية قبل الشعر (!) ولا أضافهما من بعدُ إليه !!

و إنما هما منه و فيه ؛ وروحه التي عليه ؟!

فالموازين ليست "اصطلاحا بالمعنى المعروف , إنها الخضوع التلقائي للقوانين الشعرية دون أن يصطلحوا عليها أو يتواضعوا على صياغتها سلفا , فقد أوجدها عامل التدريج خلال الزمن الطويل , حتى صارت قائمة في الذهن ظاهرة على اللسان , غير منسوبة لأحد بعينه بل للعرب جميعا , بحيث تتم الاستجابة إليها على نحو آلي عفويٍّ لا أثر للصَّنعة فيه" ([148]).

بيد أن هذا المنحى العفوي لا يعني إقصاء الضرورة الشعرية كلية، ولا إيقاع البيان في ورطة حتى يتحتم اللجوء إليها، وهي الأمر الذي نعالجه فيما يلي:

خامسا: بين القافيَة والضَّرورَة الشعريَّة عند كنُّون:

إنَّ الشِّعر السَّاحر هو الذي يتحكَّمُ الشَّاعر فيه كتحكُّم الملاَّح في سفينته, يُناغِمُ عُبابَها, ويُنادِمُ رُكَّابَها؛ حتَّى إذا ما اضطَرَّ إلى تحويل اتجاهه أو تغيير مساره؛ لا يكون ذلك بسبب جنايَةِ اختياره, أو نقص تجربته و قلَّةِ اختباره, فحينذاك يرتكبُ ملاح الشِّعرِ أخَفَّ الضَّررين في بحر القصيد, قانعا بسلامة الشّيء الأهَمِّ في النَّجاة بحسن إدراكٍ وتحديد, ولا يذهبُ الذَّهاب البعيد, بحيثُ تغرَقُ معانيه في موجَةِ قافيَةٍ عاتِيَة!, أو تصطدمُ مراميه بأحدِ جبال القوافي الجليدِيَّة العاليَة!!

والأصل ألاَّ تحتم قافيَةٌ معنى ركيكا على شاعر, فإذا هو منزَلِقٌ متورِّط, وإذا هو في حياض النَّقد مذمومٌ مفَرِّط.

فهذا هو الأساس الذي تبنى عليه عمليَّة اختيار معاني الأبيات في دروب القوافي, ممَّا أصَّله الأستاذ كنُّون وبيَّنَه, ولنأخُذ نموذجا تطبيقيًّا في ذاك:

يقول "زكي مبارك:

فَصَبْراً أيُّها القَلْبُ ** عَلى مَا يَفْعَلُ الحبُّ.

---

[147]- ينظر؛ د. مصطفى درواش " تشكل الذات و اللغة في مفاهيم النقد المنهجي" بدون، (ص 220 فما بعدُ) .

[148]- عيسات قدور سعد "بين الأدب والأصول: النَّفس الرَّائق في ضبط الفائق", غير منشور؛ ص 26 .

…………… ** وكل معشق خِبُّ.

فيعلق الأستاذ كنون على البيتين قائلا: "ولعنة الله على القافية التي تضطرنا لأن نجعل معشقنا خِبًّا" ([149]).

والخِبُّ بالفتح والكسر هو الخدَّاع الخبيث ([150]), فلعلَّ الشَّاعر قصَد الاحتيال فإنَّ الخب يحتاج إلى الحيلة في ما يأتي وما يذر, كتحايل المعشوق في النَّأيِ عن العاشق حتَّى يزدادًا جريا وراءَه و تعلُّقا به, لكنَّ ذكرَ المعنى بهذا اللَّفظ القاسي لأجل مراعاة القافيَة يدُلُّ على قلَّة الذَّوق الشعري لدى النَّاظم, لكونه لفظا ينطوي على خلفيَّة شعوريَّة ملتصقَةٍ بمعناه تكونُ أقربَ إلى الذَّم والقدح, ممَّا لا ينبغي أن يلَوَّحَ به على المعشوق فضلا عن التَّصريح له به, فكيف يجعل البشاعة تلتقي مع الحُبِّ دون أن يَشعُرَ أو يحس؟!, ذلكَ أنَّ الإحساس قدرٌ زائدٌ على الفهم المُجَرَّد, فإذا بالشَّاعر يُنزِلُ لفظَ "الخِبِّ" من الأبيات منزلَة القُبحِ من الجمال!, ولكأنَّه ما عمل ذلك البيت –كما يقول الرَّافعي فيما يُشبِه ما نحن فيه-؛ "إلاَّ في ساعَةِ همٍّ قارَبت بين نفسِه ورأيِه, فمازَجَت بين رأيِه وعمله, فجمعت بينَ عَمَلِه وغلَطِه" ([151]).

فتلك هي مراعاة الشَّكل على حساب المضمون, ولعمري كم يتساهلُ الشعراء إذا اعترضهم ذلك, حتَّى إذا واجهتهم الحقيقة النَّقدِيَّة العريانة لم تُجدِهِم معارضَتُها بتفلسُفهم المعهود، ولم يبق في جعابهم ما يحصِّل أَيَّ اقتناع, أو يحفظ أيَّ بُرقُعٍ أو قناع.

فالأستاذ كنُّون انتقد المعنى المذكور في لفظه المستبشع, لأنَّ السِّيَّاق يُقليه, والجوَّ الكلاميَّ لموضوع القصيدة ينفُرُ عنه؛ والصُّورة الشِّعريَّة البهِيَّة تهرُب منه, ذاكرا علَّة مجيئه, وسبب وروده, وأنَّ القافيَة جنَت على الشِّعر هاهنا, فكأنَّها ضرورَةٌ خفيَّة غير ضرورة الوزن العلنِيَّة, لكنَّها عندَهُ ملعونةٌ غيرُ مرضِيَّة, لأنَّ النَّاقد يرى من ورائها نفسيَّة الشَّاعر المهزومة إزاء المعاني الطَّائرة, فلا تصلُها أخيلَته المقصوصة الجناح, ولا يكادُ القارئ يُبصِرُ أبياته خلالها إلاَّ كعربَةٍ تُساقُ إلى التَّحطُّم بخيُولٍ هائمة دون قائد, فتلك إذن الكارثَةُ التي يتأَسَّفُ بسبَبِها النَّاقد ويأسى لها.

---

149 - زكي مبارك "ديوانه"- السلام - ج 5 - فبراير - 1934 - ص: 42, بواسطة خشان خشان "قضايا عروضية في النقد المغربي الحديث - منتديات واتا الحضارية: www.wata.cc/forums/showthread

150 - مرتضى الزَّبيدي, محمد بن محمد بن عبد الرزَّاق الحسيني, أبو الفيض "تاج العروس من جواهر القاموس" دار, ط, سنة , مادَّة: خ ب ب, (2/ 438-439)·

151 - مصطفى صادق الرَّافعي "وحي القلم" نشر المكتبة العصريَّة, صيدا, بيروت, سنة 2002م, (234/3).

من هنا تعلَمُ مبالَغَة أحدِ الكُتَّاب المغاربَة حينَ قال: "إنَّ الضرورة الشعرية عند نقادنا لم تشغل سوى حيز مكاني ضيق مقارنة بباقي القضايا النقدية الأخرى، فظلت آراؤهم وإشاراتهم خاطفة ومتناثرة إذ اقتصروا على عبارات مثل: (وفعل كذا ضرورة للوزن ..) دون أن يذهبوا إلى ما هو أعمق مثل تقييم الضرائر، وضبط خصائصها، وتحديد مبادئها وأنواعها"([152]).

ذلك بأنَّ النَّقد هو مادَّةُ حساب, لا مجرَّد تعليق على شعر وشرح له أو تصفُّحٌ على بعض معانيه فيغدو مادَّة إنشاء ([153]), فانظُر أيَّ شيء أكثَرُ حسابا للمنقود من عدم انصراف النَّاقد عنه حتَّى يصُبُّ جامَ لعنته على قافيتِه, دونَ أن يراعيَ اضطرار الشَّاعر, ليفهم القارئ أنَّ اعتبار الضَّرورة غير لائقٍ في هذا المقام, وأنَّ حدُودَها لا تَتَّسِعُ لتجمع في رحابها بين الصِحَّة والأسقام, والسَّقطَة والقِيام, والخمود والإلهام, وما شئت من سلبيٍّ كبير المقدار وإيجابِيٍّ له انتبار, أو ما هويتَ من درجَةٍ رائقة, ودركَةٍ ماحِقَةٍ ومردِيَة.

فالضَّرورَة إذا كانت لتلك الحدود متعدِيَّة فهيَ عورة, وليست بضرورَة, والفرق بينهما كالفرق بين النقَّص والنَّقض, وكالتباينُ بين الإقلال والاختلال, إذ كانت الأولى قاطعةً لطريق الرُّقي في مسير الجودَة, لا مجرَّد عثرة لا تضُرُّ ماشيا, ولا تعرقلُ في الشِّعر هادِيا ومبينا, مِمَّا يُجَلِّي للنَّاظر في كلام الأستاذ كنُّون أنَّ الضَّرورة معتبرة بشرط ألاَّ تجعل الهادي كالهاذي, فإذا هو خرج إلى الهذيان, فأين منه الشعر أين, ومتى متى, وشَتَّانَ شَتَّان, وقد تكدَّر – حينئذٍ- الماء وتعكَّرت الأجواء وفَرت الورود من الأشواك, كما تفِرُّ الغزلان بلحمِها من أنياب الهلاك!!

إنَّ الضَّرورة يمكنُ أن يُغطِّي عليها الجمال البياني بسحره البهيِّ كتغطية الأثواب الجميلة على خَرقٍ صغير في بذلة المرء دونَ أن يظهر, فكانت لذلك مسموحَة, أمَّا المتجاوزة لهذا المقدار بحيث لا يمكنُ سترُها لدرجة أن تستعلنَ مقبوحة, فهي ممنوعة وربَّما كانت ملعونة, فكيف إذا لم تكن خرقا وتمزُّقا بل راحت مصوِّرَةً الجلدَ البياني من تحتها فأمست المعاني عاريَةً مفضوحة ووجهٍ كالح مُصفَرٍّ؟!

---

152 -"قضايا عروضية في النقد المغربي الحديث - منتديات واتا الحضارية.

153- يُنظَر مصطفى صادق الرَّافعي "وحي القلم" نشر المكتبة العصريَّة, صيدا, بيروت, سنة 2002م, (228/3).

أمَّا دون ذلك حيثُ الحالَةُ المستساغة؛ فما من حرجٍ, مادامت الضرورة قد خرجت من إطار الكلاحة إلى ظلال السَّماحَة فيأتيها الإذن والقبول, والمثال التَّطبيقيُّ على ذلك قول الأستاذ عن لفظ (دما) من بيت المكودي:

مَوْضِعُ حَتفٍ حانَ فيهِ حِينُهُمْ ** وَرُويتْ أقْطارهُ مِنَ الدّمَا.

"والدما جمع دم مقصور للقافية" ([154]).

فقد جعل القافيَة هي سبب قصر الممدود, دون أن يعرِّجَ على كون ذلك إخلالا أو وبالا, مهما عُدَّ نَقصا ونُزِعَ به إلى الدُنُو والتَّسامح.

بيدأن التسامح ليس منفيا في ساحة الأدب بالتأكيد، وهو يقودنا إلى التجديد تلو التَّجديد، من ذلك موافقة الأستاذ كنون وإشادته بالبحور الشعرية الجديدة، طالما صح وزنها وحسنت موسيقاها ولم تتعثر في الآذان السليمة، وفيما يلي بيان ذلك.

سادسا: كنون والتجديد في البحور الشِّعريَّة:

لمَّا رجع العلامة الأديب تقي الدِّين الهلالي من سفريَّته التي قصد فيها شمال أوروبا لرؤيَة طلوع الشَّمس في منتصف اللَّيل, كتب عند مروره بالأندلس التي ألهبت مشاعر الحنين في نفسه وهَيَّجت فؤاده لقول الشِّعر؛ قصيدَةً رنَّانَة من بحر جديد, وأراها عند وصوله للأستاذ كنُّون فبلغت من إعجابه مبلغا, وكال لها مدحا جميلا, يقول صاحبُها:

"لما مررنا بأرض الأندلس في رحلتنا إلى شمال أوروبا تذكرت أهل الأندلس المسلمين، وما كان لهم من المجد والسؤدد، فقلت هذه القصيدة، وهي من بحر جديد اخترعته. وأجزاؤه أربعة: مستفعلاتكم مستفعلين مرتين. له عروض واحدة صحيحة، لها ضربان، أولهما مذيل، والثاني عار عن التذييل.

وكل هذه التفاعيل بفتح العين ومعناها: مستخرجاتكم مستخرج أيها المسلمين، فالزموا مستخرجاتكم ولا تهملوها.

وقد أحدث العرب المولدون أوزاناً شعرية زائدة على بحور الشعر بعد زمان العرب الأقحاح، ونظموا عليها شعراً كثيراً، ثم جاء زمان الموشحات والأزجال، فاشتغل بها العرب في الشرق والغرب، واشتملت على أدب جم. ونظم بهاء الدين زهير شعراً أخترع له

---

154 - عبد الله كنون "شرح مقصورة المكودي"، المكتبة التجارية، القاهرة، 1356هـ، ص 58.

وزناً خاصاً، وهو قوله:

يا من لعبت به شمول ** ما ألطف هذه الشمائل.

فلا غرابة إذا اقتديت به، وألقيت دلوي في الدلاء. وهذا نص القصيدة:

لما بدا لنا جمالكم ** أضحت قلوبنا أسرى الغرام.

وانبعثت بها مودة ** تنمو وتزدهـــي على الدَّوام".

ونحن نجتزئ منها بهذين البيتين من مجموعها البالغ سِتَّةً وعشرينَ بيتا, ثُمَّ نفسَحُ المجالَ لمؤَلِّفها كي يواصل حديثه بعدَها إذ قال:

"وقد اطلع على هذه القصيدة الأديب الكبير العالم المحقق العبقري عبد الله كنون فأعجبته وأثنى عليها" ([155]) إهـ.

فلم يكن الأستاذ من المتحجِّرين الذين لا يرون فتحا لباب الإبداع في البحور الشعريَّة, وزنا وقافيةٍ, وطريقَةَ أُسلوبٍ وكيفيَّة, بل كان ينظُرُ إلى الشِّعر بعيون الشَّاعريَّة, فعندما تخطئها عيناها يأتي ذمه له, وإلاَّ انتشى بها وسَعُد.

فاعتداده الأكبر ليس بالقالب بل بما يفرغُ فيه, ثُمَّ يكونُ النَّظرُ إلى القالب ملاحةً وشكلا شريطة ألاَّ يُصيبَ بناءه اعوجاجٌ أو تشويه, وما على الشَّاعر من حسابٍ بعدُ إن اخترع بحرا جديدا أو بحورا لا تُنقِصُ من روح الشِّعر بل تزيدُ فيه.

لذلك لا تجده يحمل حملةً شعواء على القوالب, بل تجده يقول في هدوء: "قامت النَّهضَةُ الحديثَة فهزَّت الشِّعر هزًّا عنيفا, تناوَلَ بُنيانَهُ من القاعدة, فكانَ الشِّعر الحر والشعر المنثور" ([156]), ومعلومٌ أنَّ هدَّ البنيان من تحت, ليس من العمل العادِيِّ البحت, بل وراءه مغزى, وبين طيَّاته معنى, ولو كان سببها التَّخفُّف من قُيودِه, بزعمِ تكثيف وجودِه!, رغمَ أنَّ مذهبَ الأستاذ في الشِّعر أنَّه "أشد الفنون الأدبيَّة تقَيُّدا بالمأثورات والمساطر, [و هو مع هذا] أكثَرُها خضوعا للتَّجديد والتَّطوُّر, وذلك من أجل أنَّه كُلَّما ثقُلت شروطُ العمل, أيَّ عمَلٍ كان, كُلَّما حاول العاملون التَّخفُّفَ منها. ويصدُقُ ذلك في الأعمال الادبيَّة كما يصدُقُ في الأعمال المادِيَّة ... وكان اختراع الموشَّحات في الأندَلُس مظهرا آخر من مظاهر التجديد

---

[155] ـ د. تقي الدين الهلالي "الشمس في نصف الليل" , يُنظر "مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة, نشر عمادة البحث العلمي, 1423 هـ / 2002م, العدد: 7 .

[156] عبد الله كنُّون "أحاديث عن الأدَب المغربي الحديث"، ص146 .

والتَّطوُّر للشعر,استهدَفَ تحويرَهُ من ناحِيَة الشَّكل والبناء, فألغى شرطَ التزام القافيَة الواحِدَة في القصيدَة التي أصبحت تُسَمَّى موشَّحا, وجوَّز أن يلتقيَ فيها بحران من بحور الشِّعر بدون أنيدُلَّ ذلك على عجزٍ أو تلفيق" (157).

ثُمَّ يذهَبُ الأستاذ كنُّون في تعليله حُسنَ ذلك التَّوشيح مذهبا بعيدا, معطيا تعليلا جديدا قائلا: "بل إنَّه كانَ أكثَرَ انسِجاما مع الطَّبيعَة الغنائيَة للشِّعر, لاستجابته للأنغام الموسيقيَّة التي تتبَدَّل بحسب مقتَضَيات الفَن آونَةً بعدَ أُخرى" (158).

أمَّا فيما يخصُّ لتجديد من ناحِيَة المضمون الشعري, وما أيبدعه فيه الخيال الفكري, والابتكار العصري, فهو ظهور الشِّعر التَّمثيلي والقصصي, فيُبَيِّن الأستاذ أنَّ الشِّعر "في المحتوى ظهرت فنون من القول وصُوَرٌ من البيان لم يكُن للشعر العربي بها عهد كالشعر القصصي والتَّمثيلي, وامتدَّ النَّفَسُ ي وصف الطَّبيعَة والتَّعبير عن أدَقِ المشاعر الإنسانِيَة والعواطِف القلبيَّة,واختَفَت الموضوعات الشِّعريَّة القديمَة أو كادَت وما بقيَ منها لاقتضاء المناسبات الاجتماعِيَة بقاءَه؛ صار وسيلَةً لبثِّ الأفكار الإصلاحِيَة وبعث الرُّوح الوطَنِيَة.ومِن ثَمَّ وُجِدَ هذا الباب الجديد من الشِّعر القومي أو الوطني الذي خَلَفَ باب الحماسَة في الشِّعر العربي القديم,والذي قُلنا عنه إنَّه طغى على جميع الأغراض الشِّعريَة في هذا الجيل حتَّى كادَ يَكونُ هو الشِّعر كُلَّه, ولم تكن هذه الظَّاهرة خاصَّة بمشرق أو مغرب بل إنَّها وسائر الظواهر التي قبلَها ممَّا برزَ بروزا واضِحا في شعر المشارقَة والمغاربَة على السَّواء" (159).

سابعا: العلم والأدب:

لا شكَّ في تهافُت الرَّأيِ القائل بأنَّ العلم يميت العاطفة ويقضي على الشعر, فالواقع أنَّ "في الدنيا جمال، وفي الدنيا حقيقة، وفي الدنيا خير. أقانيم ثلاثة تَتَّحِدُ في السَّبب وتتصل في الجوهر والعرض، أو هي مُثُلٌ عُليا متداخلة متشابكة، ففي الجمال حقيقة، وفي الحقيقة جمال وهكذا ... فالأدب إنما ينبغي أن يستند إلى شيء من العلوم التجريبية والنفسية والاجتماعية، ويعتمد على ما أثبته العلم في مختلف الميادين والموضوعات، والأديب

157- المرجع نفسه, ص146.

158- المرجع نفسه, ص146 .

159- المرجع نفسُه,ص146-147 .

والعالم إنما يجب أن يتصالحا ويتصاحبا فكلاهما ينظر إلى الطبيعة والحياة من ناحية، هذا يكشف عن حقيقتها وذاك عن جمالها، وهما بعد يتعاونان على بحثها واجتلائها.

فالعلوم على اختلافها إنما هي دروب ما تتشعب وتنحرف إلا لتلتقي في نقطة واحدة هي (الحقيقة). أفتظُنُّ أَنَّ معرفة هذه الحقيقة التي يبذل العالم لها جهوداً جبارة هي سبيل لتجفيف قلبه، وإطفاء معنى الشعر فيه!! لا! لعمري إن العالم الذي يصل إلى حقيقة من الحقائق إنما تمتلئ نفسه في الحال بهذا السرور وهذه النشوة العلوية، فليس أدعى للذة ولا أكثر مجلبة للسعادة من عرفان الحقيقة!! أذكر عالماً من العلماء .. أخذ نفسه بدراسة (البوتاسيوم) في مخبره، فلما عرف حقيقة الجسم قام حول الطاولة يرقص بهجاً طروباً!! وكان أرخميدس يوماً في الحمام يُجري عمليته في سبيكة المعدن ليعرف مقدار الذهب فيها والفضة، حتى إذا لاحت له الحقيقة خرج في شوارع المدينة عارياً حافياً يصيح: وجدتها. ففي خروجه على هذه الحال من العرى والحفاء، وفي صراخه القوي البهيج، صورة جامعة تامة الخطوط والألوان للذهول الشديد الناشئ من اللذة الفجائية الطافرة التي بعثت في قلبه المشاعر والعواطف، وأسالت منه أقصى حدود الفرح والبِشر، وطبعت على شفتيه المنفرجتين بسمة حلوة مشرقة!!

ولعل الحقيقة النفسية أكثر الحقائق مَدعاةً للسرور، فهي التي تهمنا قبل كل شيء لأنها تتصل بنا وتؤلف الجانب الأكبر من حياتنا، فالكشف عنها إنما هو اجتلاء أفق فسيح عجيب، مِلؤه الجمال والجلال" ([160]).

ثُمَّ ألم يكن "محمد إقبال" و"رابندرانات طاغور" عالمين يرفرفين بأجنحةٍ جبَّارَة في سماء الفكر والفلسفَة, فزاد ذلك من شاعريَّتهما ولم ينقِصها, وأثرى مخَيِّلَتَهُما ولم يُشقِصْها ([161]), ووهبهما الحكمة والبيان وفَصل الخطاب, وصار "إقبال" مستفيدا حتَّى من مشاهداته لعبادات الهنود رُغمَ وثنِيَّتها, وجوِّ معيشتهم وروحانيَّتها, ممَّا حدا بالمفكِّر العبقري ابن نبي أن يقول إنَّ ذلك من ضمن ما: "أكسَبَ المُفَكِّرَ الشَّاعر ذاتِيَّةً غَنِيَّةً, اتَّصَفَ بها ضميرٌ يتمَتَّع

---

160 - محمد روحي فيصل "بين العلم والأدب:هل يميت العلم الشعور؟" مجلَّة الرِّسالة, العدد 51 - بتاريخ: 25 - 06 – 1934م, ص 23.

161 - أي يُدخل في أحشائها مشقَصا وهو "نَصلُ السَّهم إذا كان طويلا غير عريض", ينظر, ابن منظور, محمد بن مكرم الإفريقي المصري "لسان العرب" دار صادر, بيروت, ط1, بدون, مادَّة (شقص), ج7/ص 48.

بالعقل وبالعاطِفَة, أي بميزَة الفهم وميزَة الانفعال, هذا الحوار بين القلب والفكر؛ هو الذي يَنقُصُ [الـ] إنسان" المتخَلِّف ([162]).

ألم يكن خطيبُ المعتزلة الجاحظ جامعا بين العلم والأدب, وكذلك خطيب أهل السُنَّة ابن قتيبة الدينوري, فأيُّ منافاةٍ تُذكَرُ في هذا الصَّدد؟!

إنَّ العلم ليس عدوا للأدب, ولن يكون إلاَّ إذا كان الفهم عدُوا للانفعال, وأمست العاطِفَةُ صديقَةً للجهل, غير مؤمِنَةٍ بالعقل, وما ذلك بمُمكِنٍ أبدا ما دام الأدبُ ناهِضا في النَّثر والقريض, والعلم غير عليلٍ ولا مريض, وما فتئت العواطف سليمة, والعقول مستقيمَةً صحيحة.

بل إنَّ استقامة الحياة العقليَّة واتزان أجواء المعيشة النَّفسِيَّة أصلٌ من أصول رحابة الخيال الشعري, وها هو "ماك كيب" الخبير يُبَيِّنُ أنَّ "من المزايا التي اختُصَّ بها المغربيُّون أنَّهم يرون أنَّ السَّعادَة وكمال النعمة إنَّما هو في المعيشَة التي كانت تكفُلُ حظَّ النَّفس والعقل في التَّهذيب على السَّواء, وكانت الدَّرَجة العليا التي أدركوها في الشِّعر ناشِئَةً عن ذلك الرُّقَيِّ الموزون. وكُلُّ الطَّبقات من أصحاب الحوانيت إلى الخلفاء يُنشئون ويُنشدون الشِّعر, وكثيرا ما ترى جماعة من الرِّجال والنِّساء في ليالي الصَّيف في حديقة غناء تعبق روائح رياحينها ي ساحات البيوت الجميلة جالسين يتباحثون في الأشعار ويتنازعون بلطف في المساجَلَة في منتوجات أفكارهم. وكان ولعُهُم بالموسيقى ودرسُهُم لها يُساوي شَغَفَهُم بالعلوم والآداب. وكانت الأندلس حقيقَةً في تلك الأيَّام أرضَ غناء وغرام وأزهار ونوافح طِيب. ولكنَّ هذا الشَّغَفَ بالموسيقى كانَ مزدَوَجا مع شوقٍ **أعظَمَ** منه إلى استقراء العلوم العقليَة إلى حَدٍّ كِدنا نعجَزُ عن فهمِه" ([163]).

فأين التَّعارُضُ بين العلم والأدب؟!, كيفَ والواقع يكذِّبُ هذا الزَّعم ويدحَضُه, وحتَّى الخيال يهرُب من هذا الزَّعم فلا يفرضُه, بل يصحِّحُه وإلاَّ يقرضُه ويجعلُه من القاعدين!

---

[162] - مالك بن نبي "وجهَة العالم الإسلامي" ترجمة عبد الصَّبور شاهين, دار الفكر, دمشق,سورية, ط6,سنة 1427هـ/2006م, ص 185.

[163]- جوزيف ماك كيب "مدنِيَة المسلمين في إسبانيا" ترجمة د. محمَّد تقي الدِّين الهلالي, دار الكتاب والسُنَّة, عين شمس الشرقية, مصر, ط1, سنة 2007م, ص 61.

وأُراني, من مجزوء الكامل؛ قائلا عن صاحب هذا الرَّأي الذي لم يُدرك الإصابَة ولم يصِل إليها:

فكأنَّما وقفــت بـه ** سِبُلُ الحجى دُونَ النَّهِيَّة.

وكـأنَّـما ليســت لــه ** شَـروى نقيـر من رَويَّة.

إنَّ رأيَ الأستاذ كنُّون هاهنا موافقٌ تماما لما أدلينا به من الاستدلال والبيان, فاستمع إليه مؤكِّدا بروعته الكتابيَّة ونزعته الخطابِيَّة مبينا في ثنايا حديثه أن التطور الفكري بوجه عام مقدمة للتطور الأدبي في صفحات كثيرة من كتابه أحاديث في الأدب المغربي الحديث مثلا، واقرأ نموذجا لذلك ما دبَّجه تحت عنوان "على عتبة العصر الحديث" لتشعر بذلك كل الشعور وتلمسه لمس اليد.

هذا فيما يمكن أن يكون وينبغي له أن يوجد, أمَّا ما هو كائن بيننا, وفي دُنيا واقِعِنا, فإنَّ "الحواجز عندنا بين العلم والأدب قوية متينة، وإن شئت فقل إنه ليس هناك صلة بين كلية العلوم والآداب، وأن الثقافة التي يتثقفها الأديب ينقصها (غالباً) قدر ضروري صالح من المعلومات العلمية، .. يستغلها في أدبه. وهذا القدر يلقفه الأديب الأوربي .. وأدباء الطبقة الأولى منهم كانوا على حظ عظيم من الثقافة العلمية استغلوها في منتجاتهم، فأصبحت هناك أنواع .. من التعبيرات والتشبيهات القوية التي تعتمد على الثقافات العلمية .. أما برنامج الأديب العربي فقاصر من هذه الناحية كل القصور؛ ولذلك كان نتاجه قاصراً كل القصور"([164]).

ومنذ زمن عاب الرافعي على شعراء عصر المدنيَّة والصِّناعات, والمراكب الفاخرات, والأضواء والمخترعات, وبدائع العمران؛ أن يتعلَّقوا في تشبيهاتهم الشِّعريَّة بما كان قاله القدماء حتَّى انطفأ في نفوسهم الخيال المبتكر, ولم تخرج أفكارُهم معنى جديدا, فقام ناعيا على شعراء وقته أن ينظروا إلى ما نظر إليه أولئك السَّالفين ممَّن لم يجدوا ما يشبِّهون به إلاَّ ما عرفوه في طبيعتهم وشاهدوه في بيئتهم, إذ سكنوا الصَّحاري والقرى, كيفَ والمعاصرون اليوم في المدنيَّة العصريّة والعلوم الحديثَة يوجَدُ "في بلادهم ما يأخذ بمعاقد

[164] أحمد أمين "التجديد في الأدب" مجلة الرسالة, العدد 7 - بتاريخ: 15 - 04 – 1933م, ص 9.

البيان, ويغنيهم عن جرعاء الحمى وحسك السعدان" ([165]).

وسواء ذلك التشبيه وهذا الأسلوب من التعبير في الشعر أو في غيره "ولنأخذ باب الرسالة، سلطانية أو إخوانية؛ فإنَّنا نجدُها [في عصر ما قبل الأستاذ ولو بوقت قليل] لا تخرج عن الطريقة المألوفة في التزام السجع ولتضمين والأمثال السَّائة، والأقوال المأثورة، واعتماد المجاز والاستعارة والكناية، في أداء المعنى المراد فضلا عن وجوه التحسين اللفظي المتعددة التي تدخل في نطاق الصناعة البديعية. أما المقامة فهي هي من عهد الحريري إلى اليازجي .. فإن أسلوبها المعهود يُعَدُّ من عناصر تصميمها، والتحوير الذي أدخله عليها المويلحي .. في كتابه حديث عيسى بن هشام لم نر من اقتفى أثره في الشرق العربي ولا في المغرب. .. والتأليف بطريقة الكتابة الفنية بقي ينهج الفتح ابن خاقان في قلائده والعماد اغلأصفهاني في خريدته وما إلى ذلك المنحى، في غير فسولة ولا ضعف، ومن غير تطور ولا تحرر أيضا.. إنه لم تكن هناك أيَّةُ محاولة للخروج بالنثر عن دائرة الموضوعات التقليدية فيما عدا بعض البوادر" ([166]).

لكن الحال مع انتشار الثقافة وتقدم المناخ العلمي إلى اللطافة المعرفية والتنور الفكري "تحلل الكتَّاب من قيود النثر الفني الذي كان أسلوبَهم المفضَّل للتعبير في كل موطن، من الرسالة الإخوانية إلى تأليف الكتب .. فبعدَ ان كنت لا تعثر على أثر نثري كُتب بطريق التَّرسُّل إلاَّ نادرا؛ صرت لا تجد من يكتب بطريق السجع إلاَّ فئة قليلة بقيت محتفظة به كما يُحتَفَظ بأحد الآثار الجميلة، وهي إلى الجيل الماضي أقرب منها إلى هذا الجيل، ومن خصوص أفرادها محمد غريط .. ومحمد بن موسى الذي هو البقيَّة الباقية من أعلام هذا الفنّ. [ثم إنه] ليس العجب ممَّن احتفظ بأسلوبه من هؤلاء بل العجب ممن انقلب في فترة قصيرة كهذه من كاتب راسخ القدم في التسجيع إلى كاتب بارع في الترسيل، ونعطي مثالا على ذلك أحمد بن المواز (ت 1341هـ) فـ6إن من يقرأ كتابه في الرسائل السلطانية والأغراض الأخرى في العهد الماضي ثم يقرأ كتابه حجة المنذرين الذي وضعه في هذا

165 - مصطفى صادق الرَّافعي "الشِّعر العربي" مجلَّة المنار, العدد:17, بتاريخ 21 ربيع الثاني 1318هـ/17 أغسطس 1900م, ج3/ص391.

166- عبد الله كنون "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث" ص28-29 .

العهد؛ يجدُ البون شاسعا بين الأسلوبين، أسلوب الالتزام البديعي وأسلوب النثر الحر المتدفق تدفُّقَ الينبوع الثري، وفضلا عن ذلك فإنمه يجد في هذا الكتاب تنوعا في الموضوعات التي طَرقَها يتجاوز حدود ما كان الكتاب قبله يعنون به، ويجد كذلك تعمقا في تناول هذه الموضوعات" ([167]).

وإذن، فهذا التجديد الأدبي والأسلوبي والموضوعاتي إذا لم يكن من أثر تطور الفكر بصفة عامة وأثره الفعال في عقول الكتاب والقراء على السواء، إذا لم يكن ذلك منه فمن أين هو؟، وأنى له أن يكون من غيره، بل إنَّ الشعور الذي يكتب به الشعراء قصائدهم ليس إلا فكرة قد اختمرت وحوَّلها الشعور إلى أبيات.

من هنا فإنَّ العلم والأدب رفيقان، والفكر والشعر صديقان، ولا ينبغي لذلك الترافق إلاَّ أن يستمر، ولتلك الصداقة إلاّ أن تثمر وتدوم.

وهذا لا يعني أن النهضة الأدبية أساس للنهضة العلمية، لكن النهضة الفكرية جامعة لهما، وقيام النهضة أدبيا لا ينفي ترافق النهضتين معا، وتكميل أحداهما للأخرى لا سيما إذا كان العهد كما قال الأستاذ كنون "عهد نهضة متكاملة [ولاسيما أيضا أن نوابغه] كانوا ممَّن سبقوا زمانهم بكثير فجاءت أعمالهم على قدر همَّتهم لا على قدر زمنهم، ولا أدلَّ على ذلك من أَنَّهم لم يُخَلِّفوا مثلهم إلاَّ في القليل" ([168]).

لهذا تجد أنَّ في ذاك العصر قد "حطم الأدباء العالمون الحواجز التي كانت تعزل العلم عن الجماهير، وأسبغوا مواهبهم الأدبية على حقائق العلم فكسوها حلة فتانة قربتها للجماهير، فكانت غذاء لعقولهم وشفاء لقلوبهم ... وبين يدي مثل رائع لهذا الأدب العلمي هو كتاب (النجوم في مسالكها) الذي وضعه بالإنجليزية العلامة السير جيمس جينز، ونقله إلى العربية .. الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني. هو سياحة في الكون على أجنحة الخيال العلمي، تعبر بك ملايين السنين والأميال وتنقلك إلى عوالمه، وتقف بك عند السيارات والكواكب، وتخترق بك الشمس، وتريك أسرار كل هذه العوالم وستنسى نفسك وأنت تسبح مع الكاتب

[167]- المرجع نفسه، ص 45 .
[168]- المرجع نفسه، ص 44 .

كما نسيت نفسي؛ ثم تؤوب منها كما عدت منها وقد امتلأت يقينا بجلال الله وعظمته، وشعوراً بقدرته وبالغ حكمته، وسترى كما رأيت مبلغ غرور الإنسان وهو ليس إلا هباءة حقيرة في جزء حقير من الكون! وتعجب كيف طوعت له نفسه أن يناصب العداء هذا الخالق العظيم الذي دبر هذا الكون
الذي لا ندرك مداه فأحكم تدبيره" ([169]).

وصدق العالم الأديب محمد رشيد رضا حين يقول: "الشعر في مادته اللفظية والمعنوية يتبع العلم، فمن كانت مادته في العلوم وفي اللغة أغزر، كانت قدرته على التصرف في ضروب الشعر أكبَر" ([170]).

إن المناخ الفكري المتطور عجل بتطور الأدب شعرا ونثرا، و"التطور الذي أصاب النثر [كما يقول الأستاذ كنون] لم يقتصر على الشكل بل أصاب المضمون أيضا. فقد أقدم الكتَّاب على طرق الموضوعات الاجتماعية والأدبية والفلسفية والسياسية، وحلَّت المقالة في ذلك محل الرسالة، وظهرت الخطابة الاجتماعية والسياسية بعد أن كانت الخطبة دينية فقط، وظهرت كذلك المحاضرات العلمية والأدبية ونشطت نشاطا ملحوظا، وهذا [بالإضافة] إلى تجديد أسلوب التَّأليف" ([171]).

فأين التناقض بين العلم والأدب إذن؛ بل إن المتناقضات يمكن تطويعها والاستلهام منها بالقدر الذي يتلاءم ما ما يعارضها فتمسي على معه على استواء، ولا تتعارض وإياه في التواء، إذ المناقضة بين شيئين لا يمن أن تكون من كل الوجوه دائما، وهذه الدموع الأصلُ فيها أن تدُلَّ على الحزن لكنَّها لا تقصي من معانيها الدلالة على الفرح، فقد يبكي المرء فرحَةً فيسبل على خديه أكثر من دموع البكاء، وربَّما بدت له في الأحزان سلوة، وفي التَّألُّم نشوة كشأن العاشقين الذين يبرحهم الحب ويُقطِّع أفئدتهم وهم يتلذذون، وهذه البلايا التي تجعل الوجه عبوسا، وتنشئ بملامح المبتلى من كلمات الأسى قاموسا، قد تقترن معها

---

[169] - محمد عبد الواحد خلاف "النجوم في مسالكها. . أدب جديد" مجلَّة الرسالة, العدد 14 - بتاريخ: 01 - 08 – 1933م, ص 86.

[170] محمد رشيد رضا "الشعر والشعراء", مجلَّة الرِّسالَة, العدد: 10, بتاريخ المحرم - 1316هـ/ مايو - 1898م ج1/ص170.

[171]- المرجع نفسه، ص 45-46 .

القهقهة التي تسقط المرء على قفاه، وقديما قيل "شرُّ البليَّة ما يُضحك"، وربما لجأ الإنسان للطرب كي يزداد حزنا على محبوب !

وهذه المعاني جمعها يوما شاعر فقال [المتقارب]:

تَلُـوحُ لنـا سلـــوةٌ فـي الحُــزُن ** ويبـــدو التَّـأَلُّـــمُ فـــي الابتــسامْ.

إذا ما سُررتُ افتكرتُ الحبيب ** الذي راحَ عنِّي فيَقـوى الظَّـلامْ.

لـذلكَ أَلـجَـــأُ للمُـطـــــربـات ** فأزدادَ حُــزنـا علــى المُستَهـامْ.

وحِسِّـــي لَـــهُ لُغَـــةٌ وحـــدَها ** فلا الفهمُ يُنجِـزُ فيــها المهـــامْ.

ولا القلب يَهضِمُ أســـرارها ** ولا العينُ توحي بها في الكلامْ! ([172]).

هذا في مجرد الحديث عن الأشياء التي تشي بالتناقض فيما بينها، ومع ذلك يدخلها التطويع، ويجمع بين مَصِيفِها والرَّبيع، فكيف الحال فيما بين العلم والأدب، غن الأمر هين كل هون ولكن التوهُّم المريض، هو الذي قطع الصِّلَة بين كلية الأدب وكلية العلوم وجعلهما على طرفي نقيض، وهو –بعدُ- مظهر من مظاهر ذاك التوهُّم، وأثر من آثار الجهالة ونقص التَّعلُّم، والأدهى أنه تسبب بوجه من الوجوه في توهم الجماهير أنَّ الأدب لا يرفع الأمة إنما يرفعها العلوم والتكنولوجيا، جاهلين أنَّ النهضة العلمية لا توجد إلاَّ إذا سبقتها نهضةٌ أدبيَّة على مرِّ التاريخ كله، فقد التحدَ هاهنا الدليل النظري مع الدليل الواقعي، ولبسط هذه الدلائل و تفسير هذه القضِيَّة محِلٌ آخر، غير أَنَّنا نعجِّلُ هاهنا بشهادة الدكتور عبد الله الركيبي حينما قال: "ولا يخفى على أحد أنَّ الأَدَبَ كانَ دائما هو الشَّرارَة الأولى التي انطَلَقَت منها [التحولات] الكبرى" ([173]).

فمن دلائل أنَّ النهضة الأدبيَّة من مقوِّمات رقي الأمم وتحريرها, وأنَّها تعكس الهويَّة وتعضِّد روح الانتماء أنَّ الإدارة الفرنسية منعت نشر كتاب النبوغ المغربي للأستاذ كنُّون بقرار عسكري استبدادي يتَدَخَّلُ في شؤون الفكر والثَّقافَة, تضمَّن جزاءا ظالما وعقوبات

[172]- عيسات قدور سعد "أعولي يا جراح"، غير منشور، ص 78.

[173]- عبد الله الركيبي "أحاديث في الأدب والثقافة" دار الكتاب العربي, بدون، ص 127- 128 .

تسلَّطُ على من يقوم بنشره وتوزيعه, حتَّى قال الأستاذ في مقدِّمته للطبعة الثانية منه: "وإذا كانَ لهذا القرار دلالة فهي تأكيدُه لكون الكتاب عملا وطنِيًّا فوق كونه عملاً أدَبِيًّا" ([174]).

بيد أنَّ الدليل الواقعي التَّاريخي لأسبقية النهضة الأدبية على النهضة العلمية قائم من جهة على الاستقراء وهو أمرٌ يحتاجه الناقد وقد أتى به اللغويون في استقرائهم كلام العرب ووضعهم علم النحو قبل أن يتكَلَّم عنه المناطقة في القديم وتعرفه العلوم التجريبية والصناعية حديثا، وهو من جهة أخرى يدل دلالة واضحة على احتياج الأديب إلى العلم بالتاريخ وإلا لولاه لبقيت تاريخ الأدب العربي أشباحا تجول في عقول الأدباء، وسطورا تقبع في بطون الكتب.

لعمري - وما عمري علي بهين – إنَّ النَّاقد عليه أن يعرف التَّاريخ, على الأقل أن يُلِمَّ بتاريخ الكلمات وكيف تطوَّرت دلالاتها بمرِّ الزَّمن وتعاقب الأجيال وتغيُّر الظُّروف وتعدُّد الأحداث وتبايُن الملابسات.

إنَّ النَّاقد في بعض حالاته كالمحلل السِيَاسي الذي يلزمه العلم بالتَّاريخ في كُلِّ الأحوال!؛ بيد أنَّه لا يوظفه توظيف السياسيين بل يُخرجه إخراج المتأدِّبين؛ في إيحاء وانفعال وشاعريَّة، وإلاَّ فلو عُدِم هذا الشَّرطُ فإنَّ التَّاريخ حينئذٍ "لا يدخُلُ دائرَة الأدب إذا كان وصفا مجرَّدا لحوادث ميِّتَة" ([175]) كما يقول الأديب سيد قطب.

ثامنا: كنُّون وأدب الفقهاء ([176]):

عِيب على بعض الشُّعراء استعمال الألفاظ العلمية في الشعر حتى قيل فيها من باب التنقص

---

[174]- عبد الله كنُّون " النبوغ المغربي في الأدب العربي" ط 2, بدون, (10/1).

[175]- - سيد قطب "النقد الأدبي أصوله ومناهجه" دار الشروق، القاهرة، مدينة نصر، مصر، ط 8، 1424هـ/2003م، ص17 .

[176]- وللكرابيسي رسالة اسمها: "أدب الفقهاء" لكنَّها رسالة فقهيَةٌ خالَصة, يقصد فيها بالأدب ذلك الخلق الفاضل الذي يجب على الفقيه أن يتحلَّى به في نفسه وبين طلاَّبه وأمام أقرانه وأترابه, وفي عبادته لربِّه وتعامله مع الناس, وفي الموضوع ذاته ألَّف القاضي أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد الإصطخري فقيه شافعية العراق في عصره [244 - 328هـ] كتابه "أدب الفقهاء", أمَّا رسالة الأستاذ كنون بهذا العنوان نفسه فليست في موضوع الفقه؛ إنَّما هي تصنيفٌ أدبِيٌّ رائع لم يكن له من قبل شبيه ولا مثيل, وسيأتيك فيما يلي بيان عنه.

منها "شعر فقهاء" يقول ابن خلدون: "أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم ابن رضوان كاتب العلاقة بالدولة المرينية , قال: ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس ابن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدت مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له , وهو هذالم أدر حين وقفت بالاطلال مالفرق بين جديدها والبالي فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه , فقلت له: ومن أين ذلك؟ قال: من قوله: ما الفرق, إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب.

فقلت له: لله أبوك إنه ابن النحوي , وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقائهم الجيد من الكلام".

ويضيف ابن خلدون قائلا:

"ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزيرا لملوك بالأندلس من بني الأحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة , فقلت له: أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وإن كان محفوظي قليلاً, وإنما أوتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية, فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات, وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس فامتلأ محفوظي من ذلك وخدش في وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب , فعاق القريحة عن بلوغها , فنظر إلى ساعة معجباً ثم قال: لله أنت , وهل يقول هذا إلا مثلك"([177]).

على أن هذا ليس على إطلاقه والمسألة ترجع إلى الملكة والقدرة على إنشاء كلام تحقق فيه سمات البلاغة كما أن من الفقهاء من استطاع الفصل بين كتابته في الشعر وباقي الفنون الأدبية وكتابته في أبواب العلم, وإن ساعده الكتاب المبسوط على استعمال البلاغة لم يساعده الكتاب المختصر.

وفي بعض كتب التراجم تجد الحط من شعر العلماء بحجَّة أَنَّه ليس كشعر الأدباء كما قال

177 -عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ)"مقدمة" وهي الجزء الأول من تاريخه المسمى "ديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر", ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، سنة: 1421هـ/2001م، ج1/ ص 797 - 798 .

ابن بسام "إن شعر العلماء ليس فيه بارقة تسام".

وهذه كلمة طار بها المترجمون, وقال القفطي في ترجمة شيخ المفسِّرين محمد بن جرير الطبري" وقد كان له - رحمه الله - شعر فوق شعر العلماء"وفي ترجمة الشهاب الخفاجي لابن المنقار قال:" إلا أن شِعرَه شعرُ العلماء، وأدبه أدبُ الفقهاء، وما كل قصرٍ خَوَرْنَق وسَدِير، وما كل وادٍ فيه رَوْضة وغَدِير"

فهل ينطلق هؤلاء وغيرهم في مثل هذا الثلب لشعر العلماء من التسليم لهذه المقولة أو أنهم يرون هذا الشعر لا يرتقى إلى ما يقوله الأدباء من الشعر؟ وهل الشعر والأدب قرينان للجهل؟

لاجدال في أن بعض شعر العلماء فيه ضعف وركاكة ولكن سبب هذا في نظري هو عدم احتفال العلماء بقرض الشعر وتعاطيه لأنهم لا يرونه غاية في ذاته.

ولعمري إن لبعض العلماء قصائد يطرب لها السمع ويهتز لها القلب فما عسى بعض المنتقصين أن يقول إذا سمعها.

بيد أنَّ خير من عالجها بل أوَّلُ من أولاها العناية –حسب علمنا- في العصر الحديث وأتى فيها بما يأت به أحدٌ قبله؛ هو الأديب النابغة عبد الله كنون في كتابه الفريد "أدب الفقهاء".

وهذا الكتاب كفيل بالإجابة عن كل سؤال يدور في هذا الموضوع، مع قوة الحجة ونصاعة الرأي وحسن البيان، فقد ذكر من النماذج الشعرية لعلماء كُثُرٍ ما بعضُه يكفي في إسقاط ذلك الرأي الذي يردده كثير من النقاد والمترجمين دون نظرٍ ولا تأمُّلٍ.

فهذا عروة بن أذينة الفقيه المحدث شيخ الإمام مالك يقول في أبيات تفيض رقة:

إن التي زعمت فؤادك ملها ** خلقت هواك كما خلقت هوى لها.

وكم ترنَّم المترنِّمون بشعر الفقيه الشريف الرضي القائل:

يا ظبية البان ترعى في خمائله ** ليهنك اليـــوم إن القلب مرعاك.

المـــاء عنــدك مبــذول لشاربه ** وليس يرويك إلا مَدمَعي الباكي.

وهذا مجرد عينة "والعيِّنَة بيِّنَة" كما يقولون, أمَّا العيِّنات الأخرى فهي جهيزة التي قطعت قول كل خطيب، وهي الدَّلائل العزيزة التي يفيء إلى ظِلِّها المحققون من بين كلِّ ناقدٍ أديب.

إنَّنا هاهنا لم ننتصر للعلماء لمجرَّد أَنَّهُم علماء، بل انتصارنا للشعر الجيد الذي لو كان لغير

العلماء لاحتفل به المحتفلون ورفعوا مكانته.

بيدَ أنَّ بعض النَّاس – من زاويةٍ توهَّم فيها التَّدقيق- حاول التفريق بين شعر العالم الأديب وشعر العالم الفقيه, فشعر الأول كوردة في روضة غناء, وشعر الثاني كنبتة في أرض قاحلة جرداء, فإذا أبدع الفقيه في الشعر فهو أديب وهذا نادر والحكم للغالب، لأنَّ الفقهاء عادةً يغلب عليهم الطابع الفقهي الجاف فلا تجد للندى أثرا في أشعارهم؟

لكنَّ قائل هذا الكلام, لم يستوعب ما خلَّفته هذه الكلمة في نفوس النُّقَّاد من آثارٍ سيِّئَةٍ, لأنَّ الحكم إن كان لما غلب, لا يعني إدخال جميع الأجزاء في الحكم إلاَّ بعد المعاينَة النَّقدِيَّة المتجرِّدَة في ساحة الإبداع والأدب, فقد ورَّثت هذه الرؤية نفسِيَّةً عامَّة لدى القرَّاء والكاتبين جعلتهم ينظرون دائما لا غالبا !, إلى شعر العلماء بعين السُّخط, ومعلوم أنَّ النَّقد لا يرتضي فقط عيون الرِّضى, لكنَّه في الوقت نفسه لا ينطلِقُ من السُّخط المسبق لمجرَّد الأغلبيَّة المذكورة, فهذه إذن عقليَّة في ساحة النَّقد مكروهةٌ منكورة, وهي التي يجِبُ أن تقابل بالسُّخط لا هو, ذاك أنَّها تدفع أولئك الجماهير إلى الأحكام الجاهزة, وليس شيء من ذلك يصلحُ في النَّقد أو يُفيد, لأنَّه وإيَّاه يتعرضان, ولا بدَّ للبصيرَة النَّقدِيَّة ووسائلها وآلياتها المستعملة في الوصول إلى غاياتها أن تُبعِدَهُ وتُحَيِّدَهُ وترميه,إذ يبدأُ خطواته من عدم النَّزاهة دون نباهة لمجرد أنَّ غالب العلماء ليس شعرهم بذاك, في حين تخطو هي من الموضوعِيَّة ولا تسمِّي النَّقد نقدا بدونها.

والحقُّ أنَ الغالبيَّة المذكورة بلغت عند النَّاس ما لا يقرُّه واقع ولا يرتضيه البحث النَّزيه, إذ غدت تتطَوَّرُ وتتوسَّع في عيون النَّاس حتَّى لم يكد يبقى من الكُلِيَّة شيء, وهذا أيضا من مخلَّفات ذلك الحكم غير السَّديد على الشِّعر باسم أنَّ قائله عالم!

وثالث الأمور صيرورة المرء إلى الخلط في درجات الحُجج,ومقامات الاستدلال, فإنَّه بتلك العبارة المسكوكة "شعر العلماء" تَوَهَّمَ أنَّ ذلك كافيه في إخراج شعرهم من دائرة الجودة والبراعة, بحيث إذا خولف اكتفى بها دليلا على ما يزعمه, فمن ذا العاقل الرَّشيد الذي يُقِرُّه على استدلاله بحكم الأغلب حين يسحَبُه على الأفراد والمعيَّنين, وما أدراه أن ذاك العالم بخصوصه ليس داخلا في تلك الغلبة, فما لهذه الجلبة, وما هذا الفرار من الحلبة باسم حجَّةٍ واهِيَةٍ عند التَّخصيص, وفي ميدان التَّعيين, فإنَّ الحكم بالنسبة للأفراد لا يصحُّ إلاَّ بمعاينتهم

وتبيُّن ما عندهم,لا بإسقاط حكم الجملة علي الواحد منهم, فذلك سبيل جائر في دنيا الأحكام, وإطلاق الأسماء, بل ذلك بريدٌ لتهرُّب المصاب بهذه الطريقة التفكيريَة من البراهين المقامة على شاعريَّة عالم من العلماء, الذي ربَّما قال شعرا لو نسبَ إلى الفرزدق أو جرير لعُدَّ من عيون شعرهما, فيتركها شاهرا بتلك العبارة الآنفة سيف الهوى, والأسف من أنَّه كان باسم شيء ردده النقاد, ولكنَّه ينسى أن ليس صوابا كل ما يقوله الناقد, فرُبَّما هو للصَّواب فاقد, أو على العلماء باسم الأدب واجدٌ حاقد, يذهبُ بالأغلبيَّة مدلِّلا, فإذا انتزع منها واحدٌ بالدَّليل أقام في وجهه تلك العبارة معلِّلا, وربَّما متحاملا, جاهلا أنَّ صواب الكثرة من النقاد في قولهم على الأغلب, ليس صوابا على الجزء, وإلاَّ صار للأغلب حكم الكلِّ, وللمقيَّدِ حكم المطلق وللخصوص حكم العموم, وكينونةُ ذلك بائنَةٌ من الرَّشاد, أجنَبِيَّةٌ عن الصَّواب.

حقًّا؛ لقد أصابت تلك العبارة الفكر بالوبال, وأضفت إلى النَّاشئة بطرائق تفكير خاطِئَةٍ لا تَزال, وكان ينبغي عدم الاعتراض على مثل تصنيف كتاب "أدب الفقهاء" حتَّى تنجلي الغشاوات, ينهضَ القوم إلى الإنصافِ دون تثاقُلٍ ولا سُبات, وبكلِّ موضوعِيَّة وجدارَةٍ وصحَّةِ رؤيَةٍ وثبات, لا أن يقابل بالتَّضعيف, والمضَعِّفُ هو الضَّعيف, صاحب ميزان نقدي فيه غشٌّ وتطفيف!

وبعدَ هذا البيان لا تجِدُ لقول ذلك القائل بالتَّفريق بين شعر العالم الأديب والعالم الفقيه, وزنا يذكر في ميزان الدِّقَة والعدل, لا سيما إذا عُلِمَ أنَّ التَّفريق لا محَصَّل له, إذ كان يطلقُ الفقيه على العالم ويطلق العالم على الفقيه, دون أن ينسى الخبير أنَّ الفقه جزء من العلم, ومن غير أن يخفى عليه أنَّ أولئك النقَّاد أصحاب تلك العبارة المسكوكة وربَّما نقول عنها الصُّعلوكة نظرا لما خلَّفته من نتائجَ سيِّئَة؛ لم يكونوا قاصدين سوى الفقهاء لمَّا عبَّروا بذلك التَّعبير, لكنَّ بعضهم عبَّر بلفظ العلماء والمقصود واحد, فلطالما كان العلماء هم أهل الفقه, سواء كان الفقيه أديبا أم لم يكن, فإنَّ الفقه مثل سائر العلوم لا يتعارض مع الشَّاعريَّة الحَقَّة, بل إنَّ الفقيه أقرب إلى التَّمكُّنِ الشِّعري من العالم الفيلسوف والمناطِقَة المشتغلين بالعقليات البعيدين عن أمور الوجدان التي يقتضيها الشعر ويجول في رحابها, ولا يُرَحِّبُ بمَن ابتعَدَ عن أسابِها!, لكنَّه لا يتعلَّقُ بإبعاده لمجَرَّد أنَّ ذاكَ غير متفرِّغٍ للشعر, وإن كان عدم التَّفرُّغ من أسباب الضَّعف الفنِّي, التي قد تتخَلَّف ولا توجد, كما أنَّ ما في علم الفقيه من جفاف قد

يُنتِجُ في شعره اليُبوسَة, لكنَّ التَّصوير الجميل والمعاني البكر ليست منه ميؤوسَة, ولا عنه مقصورَةٌ أو محبوسَة, فبرُغم تأثير علمه عليه يستطيع التَّخَلُّص إلى الشِّعر النَّدي الفيَّاض, ويمكنُه النَّسج على منوال أكابر الشُّعراء من أهل الفحولَة والجزالَة والبيان, وأن يطبَع نفسَه على الرِّقَة والرَّشاقَة والأدب.

فدونَك صديق خان إذ روى بسنده قائلا:

"أخبرني صاحبنا، الفاضل: أبو القاسم بن رضوان، كاتب العلامة بالدولة المرينية، قال: ذاكرت يوما صاحبنا: أبا العباس بن شعيب، كاتب السلطان: أبي الحسن، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي، ولم أنسبها له، وهو هذا:

لم أدر حين وقفتُ بالأطلال ** ما الفرقُ بين جديدها والبالي؟

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه، فقلت له: من أين لك ذلك؟

قال: من قوله: (ما الفرقُ)، إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب، فقلت له: لله أبوك! إنه: ابن النحوي" ([178]).

وابن النحوي: هو يوسف بن محمد بن يوسف التوزري (التونسي) التلمساني أو أبو الفضل (433 - 513هـ)، من أشهر شعره القصيدة المنفرجة، التي شرحها وخمّسها كثيرون، ومطلعها:

اشتدي أزمة تنفرجي ** قد آذن ليليك بالبلج.

فهو رُغم تأثير عبارات الفقه على شعره في بعض الأحيان, لم يكن ليُخرَجَ من زمرة الشُّعراء ليُعدَّ مجَرَّدَ ناظم, فمثل تلك العثرات تحدُثُ حتَّى للمجيدين, ولئن أتت ابن النَّحوي من ناحِيَة الفقه, فقد تأتي للشاعر المجيد في لحظةٍ ضعف الخيال, أو انكساف البال, أو التَّسَرُّع, وليس الكلام كُل الكلام عن أسباب العثرات فهي كثيرة, فمنها ما يُحذَر ومنها ما يُهدَر, فالفقه تحذر عباراته, ولا يُمكن أن يُهدَرَ هو, والتَّسَرُّع تُهدَرُ مجاراته وينبغي أن يُنتهى منه, إنَّما الشَّأن في العثرات كيفَ تُستخرجُ نواتُها, ويُجتَثَّ نباتُها ويُزال, فيرتقِيَ الخيال بالأديب والعالم معا.

من هنُا ربَّما وجدنا فيلسوفا منطقِيًّا أديبا جزل الشِّعر كثير ماء القصيد, بل الشَّاعر الفحل

---

[178] - أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: 1307هـ) "أبجد العلوم" دار ابن حزم، ط 1، سنة: 1423 هـ- 2002م، ص 166 .

تتفاوت قصائده رونقا وإبداعا, وتختلف أنظار النُّقاد فيها, فهذا أبو حيَّان الأندلسي صاحب البحر المحيط مع امتلاكه لأدوات الإبداع في الشعر من حيث اللغة والنحو، إلا أن شعره تفاوت من حيث القيمة الأدبية، فله مقطعات لا بأس بها جعلت ابن الجزري يقول في ترجمته: (ونظمه في غاية الحسن مع الدين والخير والثقة والأمانة). في حين قال فيه ابن تغري بردي: (ومذهبي في أبي حيان أنه عالم لا شاعر ولم أذكر هذه الموشحة هنا لحسنها بل قصدت التعريف بنظمه بذكر هذه الموشحة لأنه أفحل شعراء المغاربة في هذا الشأن)، وهذه غريبة من ابن تغري بردي، فقد أصاب في أول كلامه، ونقضه بآخره، فليس أبو حيان أفحل شعراء المغاربة في الموشحات، وإلا فأين ابن سهل، وابن الخطيب وأضرابهم من عمالقة التوشيح في العربية وهم من أهل الأندلس.

وأعدل منه قول السبكي وهو الأديب المتذوق: (وموشحاته أجود من شعره) "([179]), برغم كونه من علماء التَّفسير واللغة, معلومٌ أنَّ أدب الأديب قد يقتصر على النَّثر دون الشّعر فيخرج منه ناقدا كبيرا, وإن لم يكن له في الشِّعر نصيب مثل العلامة الكبير, الأستاذ علي الطنطاوي الشَّامي كان نقَّادا نحريرا واسع الجولات, خبيرا بالدَّواوين ما لها وما عليها من هنات, ولم يَقُل بيتا من الأبيات في دهره كُلِّه, بيدَ أنَّه ألَّف كتابا على غرار كتاب كنُّون سمَّاه "غزل الفقهاء".

وإذن؛ فالتفريق يكونُ بين الفقيه أو العالم الأديب, وبين الفقيه أو العالم غير الأديب, هذه هي القسمَةُ الثنائيَّة الصَّحيحة دقَّةً وسبرا, لا القسمة الثلاثيَّة الزَّائدة, غير الرَّائدة, التي مؤدَّاها: عالم فقيه, وعالمٌ أديب, وأديب ليس عالما, وربَّما من قبيل التنكيت نضيف إليهم أديب ليس فقيها!

وبعد؛ فمن دَقَّق في الأمور عرف عواقب ما يقوله, ورحم الله محمود شاكر القائل: "وآفة زماننا تسييبُ الفكر بلا زمامٍ يكبَحُه" ([180]), والخلاصَة أنَّ الفقيه الأديب يُباري الشُّعراء ويُعدُّ منهم إذا كانَ مُبدِعا, فابن حزمٍ مثلا كان فقيها كبيرا بزَّ أقرانه في مصره, ومع ذلك

---

179 - أ. عبد الرحمن الشهري مشاركة عبر الإنترنت في موضوع "شعر العلماء في ميزان النقد الأدبي" ملتقى أهل التَّفسير, 11يوليو (جويلية) 2010م.

180 - محمود محمد شاكر "نمط صعب ونمط مخيف" دار المدني, جدة، مطبعة المدني، مصر، ط 1، 1416هـ/ 1994م، ص385.

هو الأديب الذَّوَّاق والشَّاعر العملاق بين شعراء عصره, كان "شاعرا موهوبا, ومناضلا صلبا, ومسألَةُ الصَّلابَة في الرَّأي والتَّمَسُّك بوجهة النَّظر أوضَح ما تكون عند ابن حزم"([181]), بحيثُ إذا رأيته حسبته الحجاج لشدَّته الفقهِيَّة وصرامته العلمِيَّة, في حين هو الرَّقيق اللَّطيف صاحب "طوق الحمامة", وهكذا تتداخل النَّفسيَّات وتتفاعل في الشَّخص الواحد عدَّة شخصيَّاتٍ ومكوِّنات, وهو الأمرُ الأعمقُ والشَّأنُ الأصعَبُ من تداخُل العلوم والفنون والتَّخصُّصات, فلا يسوغ أن يُقال إنَّ أحسنَ شعر الفقهاء هو من قبيل دعوة البخيل وحملَة الجبان!

والحقُّ أنَّ المعتني بكتب الأدب دراسَةً وتحليلا يجدُ الكثير من الفقهاء هم في الحقيقة أيضا أدباء ومع ذلك أغفلت كتب الأدب ذكرهم, ولم تَخبُر خبَرَهُم, شأن كثير من متنوعي التخصص ومتعددي الفنون, لاسيما إذا غلب تخصص على آخر فشهر به غطَّى على تخصصه بل تخصُّصاته الأخرى, نسيَ النَّاسُ والمؤلفون تلك التخصصات وتعلَّقُوا بما شُهر به من فنٍّ فضَمُّوه إلى أهله, يقع هذا في كثير من العلوم تاريخا وحديثا ولغةً وتفسيرا وأدبا, فتجد أنَّ الكتب لعدم استيعابها ونقل متأخِّرها عن سابقها وصعوبَة إحاطتها بأخبار الناس لم تنصف أهلها, فالأديب هو من تعرفه ويدُلُّك النَّقد النزيه على مكانته وإن كان من الخبايا في الزَّوايا, لا من هو مذكورٌ بين ثنايا الكتب الأدبيَّة فقط, وقل هذا في سائر العلوم والفنون, ذلك كشأن ألفاظ اللُّغة من الخطإ حصرُها فيما كتبه اللغويون في معاجمهم, فقد ثبتت ألفاظ هي من الفصاحة بمكان, لكن أهملتها القواميس لسبب من الأسباب الآنفة الذكر([182]).

وبعدُ؛ فكثير من الفقهاء تفوقوا في الشعر على كثير من الشُّعراء, وحسبُك كتاب "أدب الفقهاء" لعبد الله كنُّون دليلا عليهم, إذ بعثَ الحياة فيهم فَهَبُّوا بالانبعاث, وأخرجهم فرحين مسرورين من بين الأجداث, وهم الذين قالوا أدبا صار مغمورا رغم ما فيه من حلاوة وطلاوة ورِقَّة, وحسبُه إن لم يكن في كُتُبِ الأدَبِ؛ أنَّه في كُتُبِ التُّراث.

181 - د. حسَّان محمد حسَّان "ابن حزم الأندلُسي: عصرُه ومنهجُه وفكرُه التَّربوي" دار الفكر العربي,القاهرة, مصر, بدون, ص56.

182- يُنظر في هذا كلامٌ نفيس للعلامة شكيب أرسلان في مقالة له عنوانها"ليس للغة قاموس يحيط بها", ضمن بعض مقالاته المجموعة في كتاب "مختارات نقدية في اللغة والأدب والتاريخ" جمعها وقدَّم لها سعود المولى, دار الكلمة للنشر ط2, سنة 1983م, ص 135 و 137 و 154.

وقد نسج علي الطنطاوي الأديب الشامي على منوال عبد الله كنون فحبَّر كتيِّبا أصله مقالةٌ طويلة سمَّاه "من غزل الفقهاء", ونحن نعتضد بما دونه في هذا الصدد، لأن كتاب كنون عام في شعر العلماء الفائق، ورسالة الطنطاوي خاصة بشعر الغزل الذي تفتقت به قرائح علماء ليس عددهم بالقليل، فلقد قال لمن عتب على الفقهاء أن يكتبوا شعر الغزل:

"من قال لك يا سيدي إن الله نزه نبيه صلى الله عليه وسلم عن الشعر لأن الشعر قبيح؟ إنما نفى عنه أن يكون شاعرا كمن عرف العرب من الشعراء ورد عليهم قولهم: "إنه شاعر" لأن الشاعر يأتيه الوحي من داخل نفسه، والنبي يجيئه من السماء، وهذا الذي لم تدركه العرب، فقالوا قولتهم التي ردها الله عليهم!.ـ

وأين وجدت حرمة الشعر، أو مذمته من حيث هو كلام جميل، يصف شعورا نبيلا؟ إنما يقبح إذا اشتمل على الباطل، كما يقبح كل كلام يشتمل عليه. ـ

ومن أين عرفت أن العلماء قد ترفعوا عنه، والكتب مملوءة بالجيد من أشعارهم، في الحب والغزل ووصف النساء؟

أو ما سمعت بأن النبي صلى الله عليه وسلم أصغى إلى كعب وهو يهدر في قصيدته التي يتغزل فيها بسعاد... ويصفها بما لو ألقي عليك مثله لتورّعت عن سماعه... وتصاممت عنه،

وحسبت أن التقى يمنعك منه وذهبت تلوم عليه، وتنصح بالإقلاع عن قائله ...

وما سعاد غداة البين إذ برزت ** كأنها منهل بالـــرَّاح معلـــول.

هيفاء مقبلة عجـزاء مدبـــرة ** لا يشتكي قصر منها ولا طول.

وأن عمر كان يتمثّل بما تكره أنت .. من الشعر، وأن ابن عباس كان يصغي إلى إمام الغزلين عمر بن أبي ربيعة، ويروي شعره؟ وأن الحسن البصري كان يستشهد في مجلس وعظه، بقول الشاعر:

اليوم عندك دلها وحديثها ** وغدا لغيرك كفها والمعصم.

وأن سعيد بن المسيب [الفقيه الكبير] سمع مغنيا يغني:

تضوع مسكا بطن نعمان إن مشت ** بــه زينــب فـــي نِســوة خَفَـرات.

فضرب برجله وقال: هذا والله مما يلذ استماعه، ثم قال:

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها ** وأبـــدت بَنـــان الكــف للجمـــرات.
وعــالت فتـات المسـد وخـفاً مرجّلا ** علــى مثـل بـــدر لاح فـي الظلمــات.
وقامـت تَـراءى يَـــوم جَـمـع فأفتنَت ** برؤيتـــها مــن راح مــن عــرفـــات.
فكانوا يرَون هذا الشعر لسعيد بن المسيب!" ([183]).

ثُمَّ هذا مؤلف "الوساطة بين المتنبي وخصومه" الجرجاني كان قاضيا, وكان فقيها شافعيًّا, ذكره الشيرازي في طبقات الفقهاء, وهو مع ذلك شاعر ناقد أديب، فأين الإشكال، وأين ذلك الإزراء بشعر الفقهاء عامة، أو بغزلهم خاصة.

والحاصل؛ أنَّ كتاب "أدب الفقهاء" لا كفاء له في بابه, ولو لم يكن فيه إلا نسف عبارة غدا يتلَقَّفُها القرَّاء عن النُّقَّاد وظَلَّ يحمِلُها عنهم على إطلاقِها حتَّى المطالعُ النَّابه؛ كأنَّها مُسَلَّمَةٌ مِنَ المُسَلَّمات تقتضي الاسترواح إلى كونها بديهَةً من البدائه؛ فيما يخص شعر العلماء خصوصا, حينَ يقولون انتقاصا: (شعر فقيه، أو هذا من شعر الفقهاء ...), فلو لم يكن فيه إلاَّ نسف هذه العبارة التقليدِيَّة لكان مُغنينا فيما نجنيه من الكتاب كُلَّ الغَناء, فكيف وهو فوق ذلك بمراحل, وله إلى الإفادات مدارجُ ومعارجُ ومساربُ ومداخل.

تاسعا: موقف كنُّون من تقسيم الأدب إلى أقاليم:

إنَّه خلال أخذه من المصادرة المعرفيَّة التي كانت طوع يده وفي متناول راحتيه وترجمتها إلى فكر نقدي مستنير ملؤه الحياة والنُّضوج؛ ولم يكن مأخوذا بفكرة المستشرقين حين يُقَسِّمون الأدب العربي تاريخيًّا إلى أقاليم ليصموا ما شاؤوا منها بالضَّعف والانحطاط, وما تأخَّر ينعتونه بنوع من الإيجابِيَّة والحُسن معلِّلين ذلك باحتكاك الأدب العربي بالأدب الغربي, حيث لا يجعلونه نظيرا له بل تلميذا تابعا, أو خديما بائعا لأفكاره ومسوِّقا لها , لا سيما الأدب المغربي الذي إذا كان المشارقة يوما من الدَّهر قد نظروا إليه شزرا, وتقالُّوه خُزرا, فكيف بالأجانب من أهل الثَّقافَة الاستعلائيَّة والتَّنَمُّر المعرفي؟!

بالمنهج القومي مع عبد الله كنون الذي يرى أن الجمع القومي ينفي" جميع الفوارق الاصطناعية بين أبناء العروبة على اختلاف بلدانهم وتباعد أنحائهم، كما ينبغي أن ننفي نحن جميع الفوارق الاعتبارية بين آداب أقطارهم العديدة في الماضي والحاضر. ذلك أن

[183]- علي الطنطاوي "من غزل الفقهاء" دار المنارة, جدَّة, السُّعودِيَّة, ط1, سنة 1408هـ/1988م, ص7-8.

الأدب العربي وحدة لاتتجزأ في جميع بلاده بالمغرب والمشرق، وفي الأندلس وصقلية المفقودتين... وهناك قضية شكلية لها علاقة بالموضوع، وهي هذا التقسيم إلى العصور الذي ينبغي أن يعاد فيه النظر كالتقسيم على الأقطار؛ لأنه كذلك تقليد محض لمنهاج البحث في الأدب الأوربي ، ولعله تقليد له في العرض دون الجوهر، وإلا فليس بلازم أن يكون لعصر الجاهلية أدب ولعصر صدر الإسلام أدب ولعصر الأمويين أدب، وهكذا حتى تنتهي العصور، وتكون النتيجة تعصب قوم لأدب وآخرين لغيره مما لا يوحى به إلا النزعات الإقليمية وهي إلى مذهب الشعوبية أقرب منها إلى القومية العربية." ([184]).

وبإزاء هذا الطَّرح الدقيق, كان بدهيًّا أن ينفيَ الأستاذ الفوارق بين المغرب والمشرق التي تجعلُ لكُلٍّ منهما أدبا خاصًّا لا يلتقي مع أخيه, كلاَّ, ليس الواقع المنظور يدُلُّ على شيء من ذلك أبدا, بل الأدب العربي هو أدب متحاوب عبر تاريخه كُلِّه,فما إن تبرز ظاهرة جديدة في هذا القطر, حتَّى تتعالى أصداؤها في القطر الآخر.

وها هو الأستاذ يُبَيِّنُ أنَّ "الأَدَبَ العربي وحدَةٌ لا تتجزَّأ وأنَّ ما يَجِدُّ فيه من مذاهب واتجاهات هي في نظرنا وليدَةُ تفاعُل أفكار الأدباء العرب, والتَّيَّارات الفكرية الحديثة التي طرأت على الأدب العربي بواسطة الترجمة عن الآداب العالمِيَّة والاطِّلاع على الثَّقافات الأجنبيَّة المختلفة. وليس شيءٌ منها متولِّدا عن طبيعة الإقليم والسُّكَّان وخصائص الجنس والوراثَة كما يحلو لبعضهم أن يعلِّل ذلك" ثُمَّ يذهبُ الأستاذ بنوع من الاختصار موضِّحا حججه العلميَّة والواقعيَّة المستلهمة من لُبِّ المعرفة والمنطق والتَّاريخ على هذا الطَّرح الدَّقيق, مكتفِيًا ببيانه أنَّه لا يستدِلُّ "إلاَّ بأنَّ أيَّ مذهب أو اتِّجاه ظهر في بلد من لدان العرب, لا يلبث أن يتردَّدَ صداه في بقيَّة هذه البلاد وينمو ويزدهر على يد أبناء العرب كُلِّهم. كما كان الأمر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبِّي التي ظهرت في المشرق تجدُ من أبي القاسم بن هانئ راعيا لها في الأندلس حتَّى سُمِّيَ بمتنَبِّي المغرب. وكان البحتُري يتمَثَّلُ في ابن زيدُون, والمعري وابن الشَّهيد يكادان يردان من منبع واحد, هذا في رسالة الزَّوابع والتَّوابع, وذاك في رسالة الغفران, ولمَّا ظهر التَّوشيح في بلاد المغرب وراجت سوقُه بين

[184] - عبد الله كنون: خل وبقل، المطبعة المهدية، تطوان، المغرب، بدون تاريخ، ص: 148-158.

الأدباء المغاربة, لم يلبث أدباء المشرق أن أقبلوا عليه واهتبلوا به حتَّى أَلَّفوا فيه الكُتُبَ الخاصَّة. وكذلك كان الأمر في العصر الحاضر فما أن ظهر بعد الحرب العالميَّة الأولى ما يُسَمَّى بالأدب المهجري من إنتاج الادباء اللبنانيِّين والسُّوريين المستوطنين في الأمريكتين حتَّى انتَشَر في العالم العربي وتعاطاه الأدباء هنا وهناك. وفي فجر ظهوره وانتشار آثار أعلامه كجبران خليل جبران أمين الرَّيحاني ومخائيل نعيمة وغيرهم, كان عندَنا في طنجَة محمَّد الحدَّاد يكتُبُ بذلك الأسلوب ويضرِبُ على تلك النَّغمَة, حتَّى لتحسِبُه أحدَ رواد ذلك المذهب" ([185]).

والحق أنَّه من الصعوبة تحديد الحيز الزماني لرقي فترة وضعفها فإنه ليس بمجرد تولي حاكم ما في زمن ما تتغير وجهة الأدبو يتهافت الإبداع وتخبو جذوة الشعر في صدور الشعراء ويجف ماء النثر الفني في قرائح الكُتَّاب وتجمد الكلمات على ألسُن الخطباء؛ أو العكس، هذا لا يمكن حتى يجعل تاريخ توليه حدا فاصلا بين مرحلة أدبية وأخرى، وتحديدا حاسما بين فترة رقي وضعف فترة تليها؛ إذ "كلَّما امتدت الفترة تشَعَّبَت القضايا وتداخلت الأسباب واختلطت كليات العلم بجزئياته فتدِقُّ المقاييس التي نميِّزُ بها بين الفترات وقد تحتجب، ويتعَلَّقُ النَّاسُ منها بما يكون -ربَّما- أَقَلَّها جدوى في ضبط التحوُّلات الكبرى, ومن أبرز الأمثلة تحديد العصور في تاريخ الأدب العربي فهو كثيرا ما وقع بالاعتماد على أحداث تاريخية ربطَت بين فترات الأدب والأُسَر المالكة وقد أدَّى ذلك إلى إقامة حدود مصطنعةٍ وغريبة احتَرَزَ منها بعضُ الباحثين وحملتهم على الدَّعوة إلى ضرورة إعادة التفكير في منهج تحديد العصور الأدبيَّة" ([186]).

185- عبد الله كنون "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث", ص 87-88

186- حمادي صمو "التفكير البلاغي عند العرب أُسُسُه وتطوُّرُه إلى القرن السَّادس –مشروع قراءة-" منشورات الجامعة طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، سنة 1981م، ص 13 .

المبحث الثاني: أدبيات الخطاب عند كنون:

يتمظهر ذلك فيما يلي:

- مضمونه: تنوع ما بين علمي وأدبي وسياسي.

وكانت مادَّته علمية وأدبيَّة وتاريخِيَّة وثقافِيَّة.

كما تمظهر بشكل الخطاب القومي إذ يتكلَّمُ عن الوحدَة والتَّعاون ويُثَبِّتُ الهويَّة و يؤكِّدُ على بقاء المقوِّمات.

- مكوِّناته: يعتمد على الشعر، ويستعمل قليلا السَّجع في نثرياته, ألفاظ عادِيَة تراكيب سهلة أفكار منطقيَّة, يبدأُ بالحديث من أقرب زاوية إلى الفهم, يمَهِّدُ لما يريدُ قوله, يقوم بيانه على الاستدلال, يعتني بالتشبيه أحيانا لتقريب الفكرة, يذكُرُ الأمثال, ويستشهِدُ بالحكم.

- خصائصه:

المباشرة والوضوح.

إنتماؤه إلى مدرسة المعاني.

تحرُّري لا يعتمد على كثرة الاقتباس من كلام الناس.

خطاب نهضوي: فهو يجمع الأصالة إلى المعاصرة ويستعمل الأخلاق الدينِيَّة في الوصول إلى مبتغاه

خطاب تاريخي يسرد الوقائع ويعبر عن الأحداث.

وصفي: يعتمد على التصوير والتفنن في تلوين المشاهد بسياسة كلامية تمثل المعنوي محسوسا، وتحلق إلى أعالي التشخيص حتى لا يبقى للناظر إلى مد عينيه إلى الأفق.

تحليلي: يقوم على دراسة الحرف والكلمة والجملة والتركيب، ويغوص على المعاني ليظهره في خطابه بمظهر عجائبي مبين.

وبالإضافة إلى ذلك هو خطاب تعليلي من أدبياته أن يشرح الفكرة ويجول في بيان أسبابها فاتحا أبواب التعليل على مصراعيه، حتى يدخل الفهم من كل ناحية قاطعا الشك باليقين حتى لا يبقى القارئ في مجاهل التَّفسير.

خطاب تأثيري شاعري يجذِبُك إلى القراءة ويمشي بك في أرضٍ منبسِطَةٍ لا عقبات فيها ولا حجارةً كلامِيَة عصِيَّة تُعَثِّرُ خطى الفهم., خطاب يتقمَّصُ روح العصر ,لا يقوم على المبالغات, يتعمَّد الاختصار ويحسنه إذا أرادَه. بيد أنَّه ليس خطابا استطراديا, ينأى عن الخطابات الرسميَّة التعليمِيَّة سوى عند الحاجة الملِحَّة مثل تأليفِه كتابه في التَّشريع لطلبة المدارس الحكومِيَّة, ومع ذلك فخطاباته علمِيَّة, لكنَّها ليست علميَّةً بحتة يكتسِحُها الجاف, فأنت ترى في خطابه رونق الأدب وجمال الإحساس حتَّى في المسائل الشَّائكة وانظر تفسيره للمفصَّل مثلا.

خطاب منفتح على جميع الطَّبقات, مطوِّع لكافة الموضوعات طارقا بابها, والجا رحابها.

يخضع الفلسفة للأدب وانظر مثلا جولات في الفكر الإسلامي لترى وكأنَّك تقرأ كتابا في غير الفلسفة والفكر بيدَ أنَّكلا زلت في رحابهما تدور.

خطاب يشرك القارئ في الموضوع ويستعمل علامات الاستفهام أليس ألا ترى معتمدا على الخطابيَّة ووضع حضور القارئ في الحسبان عند الكلام فكأنَّه يُحدِّثُه ويكتُبُ له وكأنَّهُ يُجالِسُه, ومع ذلك لا يتركُ الأسئلَة تحبِسُه بل يُجيبُ عليها أو يلقي بها على وجهٍ الاستفهام الإنكاري الذي محلُّه عندَما يكون المخاطَب عارفا بالجواب, وربَّما موافقا لصاحب الكتاب.

خطابٌ تأسيسي لا يعوِّلُ على التكرار إلاَّ فيما لا بُدَّ منه, ولا يُسئمُ القارئ باللَّف والدَّوران حول نقطة واحدة وبالعبارات نفسها,إنَّه خطابٌ متحرِّكٌ وهوحركِيٌّ إذا قام متكلِّما في ميدان السِّياسَة, لكنَّ الملاحظ أنَّ طريقته في التكرار بديعة يمكن أن تكون شبه تكرار فقط لأنَّ صاحبه ينوِّعُ العبارات ويُغيِّرُ الكلمات أن كان ممَّن حصَّلوا ثروةً لغويَّة واسعة فوظَّفوها بأسلوبٍ بديع يتحرَّكُ ويُقدِم, ويبني ولا يهدِم.

خطابٌ تركيزي لا يُشَتِّت القارئ ويهتمُّ بالإحاطة بجوانب الموضوع حتَّى لا يضيع في

غمرة الكثرة الكلامِيَّة, منطلِّقا من القاعدَة البلاغيَّة المذكورة الحديث النَّبوي "خيرُ الكلام ما قلَّ ودَل".

ثُمَّ هو خطابٌ مَمَيِّز لا يفتحُ لك مجال الرؤية الواسعة ولا يأخذ الحيَّة يحسبُها عصا كحاطب ليل, يعرف منطلقات القول واتجاهات الكلام, فلا يحوِّمُ إنَّما يأتي البيوت من أبوابها ولا يسلُك بك في بُنيَّات الطَّريق ليصل بك إلى الغاية بالتَّشعيب, كلاَّ إنَما هو الخطُّ المرسوم, والكلامُ المفهوم, والحقيقَة التي لا مكان فيها لموهوم, وتلك هي ميزته في مراعاة التَّناسق الفكري والتعبيري معا, والملاءمة بين الدَّال والمدلول في علاقتهما الطَّبيعِيَّة المتناغمة, لا العلاقة التَّنازعِيَّة المتخاصِمَة.

والحق أنَّه يميِّزُ بين الأدِلَّة ويعرفُ مدركات العقول فيخاطبُ العاطفة والعقل معا مزاوجا بينهما بكُلِّ مثنويَّة.

خطابه يرفُضُ التقليد ويتحلَّى بالتجديد أسلوبا ومضمونا, فبصماته عليه وجيناتُ القول منه, ومَوَادُّ الكلام يصرِّفُها كما تشاءُ بصيرته, وكما تُريدُ حكمته ومقدِرَته.

ولقد يذكُرُ الأشعار في ثنايا كلامه, كمن ينثُرُ الأزهار في طوايا أيَّامه, كيما يستنشقَ القارئ عبقَ القضِيَّة المعالجة ويواصِلَ قراءته كي يزداد استنشاقا وتعطُّرا, والأستاذ كنُّون في ذلك يبتغي أوَّلَ ما يبتغي ازدياد القارئ ثباتا وتبَصُّرا, وإنَّما يجعل الأشعار وسيلَته المساعدة على بلوغ الأفكار.

خطَابٌ متَّزن يُصحِّحُ لك الخطأ معجَّلا, ولا يعطيك حجج الصَّواب مؤجَّلا, بل يقيمُك على لسان البرهان في حيِّز الوسطِيَّة والاعتدال.

خطابه مسالم لا ينقُد الغير بشِدَّة وعنف, بل يعرض الفكرة فإن اقتنعت بها ونعمت, وإن لم تقتنع فقد أدَّى مهمَّته, من هنا تميَّز خطابه بكونه يحملُ رسالة,فهو اجتماعيٌّ موضوعي لا خطابا منزويا على الذاتيَة محبوسٌ في حدودِها الخانقة فضلا عن الضَّيِّقة, مع كونه مسالما إلاَّ أنَّه ذو خطابٍ ثائر يرتكزُ على الهجوم, ولا يعجِزُ عن الدِّفاع, وهمُّه الأكبر أن يرفع مدارك القارئ حتَّى يُحِسَّ ويفهم الأفكار ويعيَ الأوضاع, فإذا ارتقى به لما يريد أخذ بيده

متدَرِّجا إلى الإقناع والتقرير, منتقلا من الإجمال إلى التفصيل, فاسمع إليه وهو يقول:

"وإذا أوضحنا معالم النَّهضَة الأدَبِيَّة لجيل المغرب الجديد على الإجمال, وبيَّنا الطريقة التي نتناولُها بها عند العرض المُفَصَّل,فلنشرع في بيان أوجه النَّشاط الفكري العام, لنتخَلَّص منه إلى الإنتاج الأدبي الخالص, كما فعلنا في المرحلتين السَّابقتين" ([187]).

فتأمَّل كيف قرَّر طريقة التناول للقضايا, ومنهجِيَّة التعامل مع الموضوع, ثُمَّ وضع يد القارئ على سياسَة الارتقاء من الإجمال إلى التفصيل, ومن العموم إلى الخصوص, مُبَيِّنا أنَّ ذلك هو المسار الذي اتَّخذه في المرحلتين السَّابقتين, ممَّا يدُلُّ على التنظيم والانضباط بقدر ما يدُلُّ على الإحاطة والاستيعاب.

يقوم خطابه على التلويح بالفكرة والإلماعة إلى المعنى قصد التشويق ثمَّ يدلف إليه بالتحقيق مصرِّحا وموضِّحا وبليغا, مراعيا المقامات حتَّى لا يكون الخطابُ ممجوجا بفوات وقته, وانصرام مكانه اللائق به فيحدُثُ الاضطراب وينقُصُ الفهم ويجيء الازدراء, من أمام ومن وراء.

خطابه يقتبس في النَّادر, فهو كخطاب التَّاجر مالك لسلعة الكلام يقصد به سوقها , ويعرفُ ما الذي يزيدُ نُفُوقَها, لا كأولئك المستأجرين الذين يرددون مثل الببغاوات كلام الغير, كأنَّما يكترونها إلى أجل, أي ريثما ينتفعون بها ويمضون فارغين جائعين ليس لهم من الملكِيَّة شيئا, إنَّهم أصحاب الخطابات البراغماتِيَّة, فأين هم من الخطابات الحياتِيَة, وشتَّان بين الخطاب الكرائي, والخطاب الإجرائي الذي هو من أبناء العقل, لا من بنات الأذن!

خطاباته واعِيَة لا تنظُرُ إلى الفكرة فحسب, بل تدركُ أبعادَها وتُبصِرُ خلفيَّاتها, متفَطِّنَةً لمآلاتِ القول ومصائر الكلام.

وفي الرِّوايَة يستقي خطابُه من معين الخيال, عكس الحال عندما يقوم بالتحليل العلمي للتَّاريخ أو الشَّرح النَّقدي لقضِيَّةٍ أَدَبِيَّة فيكتسي بالموضوعِيَّة,ويعترف من حياض الواقِعِيَّة,

---

[187]- عبد الله كنُّون "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث", ص 90-91 .

فهو كما قال الشاعر:

البِس لكُلِّ حالَةٍ لبُوسَها ** إمَّا نعيمَها وإمَّا بؤسَها.

والخلاصَة أنَّ في خطاباته جميعا يعرفُ كيفَ يقول ولماذا يقول ومتى يقول, وما هو الذي يقال، والذي يجب ألاَّ يُقال.

المبحث الثالث:إجراءاته النقدية في قراءة النصوص:

إجراءاته النقدية في قراءة النصوص:

نتكلم عن النقد وإجراءات قراءته في هذا الصدد، موضحين أن الرؤى النقدية لها خلفياتها الفلسفية والإيديولوجية التي ترمي بجران الفكر ليؤثر على الرؤية ويحتم عليها نوعا معينا من أدوات القراءة تأويلا باسم التحليل، أو تفسير وجوهره التعطيل.

لقد امتلأت الساحة النقدية بالقراء، مؤهلين للنقد كانوا أو دخلاء، حتى ضاقت بهم الساحة من الزحام الفكري وكثرة الآراء بما فيها من خبايا وخفايا قد يعلمها النبهاء وقد يجهلونها, لعدم استطاعتهم متابعتها في غمرة كثرة الصحف والمجلات وما تقذفه المطابع من المصنفات والكتب بلا توقف، حتى تغلب الكم على الكيف وأصبح الغربال النقدي لا يسمح بمرور سوى كتاب واحد من بين آلافٍ من الكتب، وتسأل فتجد الساحة ورقيا مملوءة، ولكنها في الحقيقة فارغة، وتردف بسؤال عن القراء فتظهر لك الشعوب، ولكن قراءتها لغوب، لا إجراء ولا أليات، كأنها قراءة الأموات، ولكنك تغربل هؤلاء مرة ثانية كما غربلت المصنفات فلا تجد بين يديك إلا نزرا، ولا تكتحل عينك سوى باليسير، واليسير كثير في هذا الحال العصيب.

إنَّ ذاك الضيق المذكور قد دعاني هاهنا لأنسج تحت ضلال هذا الجو الشديد على منوال المتنبي حينما قال:

وضاقتِ الأرضُ حتَّى ظَنَّ هاربُها *** إذا رأى غيـــرَ شــيءٍ ظَنَّهُ رَجُلا !!

فأقول:

وضاقت الصُّحفُ حتَّى ظَنَّ قارئها *** إذا رأى غيـــرَ سطرٍ ظَنَّهُ جُمَلا !!

وخالَ عقلُه أرضَ الفكــر عـامِــرَةً *** إذ فوقَـها عَـدَمٌ قد عَـــدَّهُ جَـــبَلا !!

ثم ندلف حينئذ لمواصلة البيان تحت العنوان الآتي:

التَّأويل بين بتر النُّصوص والزِّيادَةِ عليها:

إنَّ تأويل النُّصوص لمن يتأمَّلُ جيِّدا وتكون له عينانِ باصرتان ورؤيَةٌ صحيحَة, هو في

حقيقَته ليس إنشاء لنصوصٍ أخرى موازيَة تنشأُ بجانب النَّص المرادِ فهمه, بل توسيعا لدائرة ما يشسمله النص المقروء دون تحريف ولا مغالاة أو تحميله ما يطيق من الدلالة ومن غير خروج في الفهم عن المعقول، وحتى لا ينتج تأويل النَّص منتجا مفاهيمَ عكسيَّةً, يصحبُها انقلابٌ في الفهم, وبلاءٌ في النَّتيجَة, وظُلمٌ في الحُكم.

ذلك ما يعني البتر التنكيسي للكلام على مذهب {ولا تقربوا الصَّلاة}, بحيث يفيدُ التَّأويلُ ما يُفيدُه البتر, وتلك قارعَةٌ تصيبَ الفهم بالخلل فضلا عن الزَّلل.

فيجب اتباع فهوم أبناء مدرسة النبوة في التَّأويل لنصوص الكتب كما وجب اتباعهم في التَّنزيل, فإذا جابهتم بأنَّ التَّأويل تحريف, قالوا إنَّ التأويل ذكر في القرآن أكثر من التَّفسير, فإن أنتَ رددت معاني التأويل الواردة قرآنيا إلى ثلاثة فقط واحدٌ منها هو المساوي للتفسير والبقيَّة لها معان أخر, وأنَّ مما تبقَّى أن يُطلَقَ التَّأويل على التَّحريف في حين لا يطلق التَّفسير على ذلك, تململوا, حتَّى إذا ما زدتهم في المعاني والشرح والبيان, قالوا نحن نتكلَّم عن نصوص البشر لا غير, فيقال لهم: فكيف إذن تستدلُّون على أولويَّة التَّأويل على التَّفسير بالقرآن الكريم, آخذين هذه النَّظريَّة ومستعملينها على الأقل كقاعدةٍ منها تنطلقون في الفهم والإدراك, فما هذا إلاَّ التَّناقُضُ المبير, وهل القرآن إذن جاء مبيِّنا منهجِيَّة الفهم للنصوص النَّثر والشِّعر حتَّى تستفيدون منه هذه المنهجيَّة النَّظريَّة متَّخذينها أساسا تبنون عليه أفهامكم, بحيث يُعطي كلامكم معنى أنَّ التَّأويل المقدَّم المرفوع المكانة لا يعني سوى الفهم لنصوص أخرى غير كتاب الله,فهل جاء التَّنزيل الحكيم مبيِّنا مرددا التّأويل أكثر من التَّفسير لأجل بيان نصِّه المقدَّس أم ماذا, أيترك توضيح القاعدة في فهم الوحي الإلهي ويجنح لتأسيس قواعد فهم نصوص الشعر والقصيد؟!

ثمَّ إنَّ القرآن فضل لفظ التأويل لأنَّه نص لجميع الأمم وكل الأزمان, فهل تستوي معه نصوص الشعر والروايات والقصص لتكون لها خاصِيَّة النَصِّ المقدَّس العزيز , بحيث تتأوَّل

بتأويلات تجعلُها صالحة لكلِّ عقل ولكلِّ قارئ في أيِّ وقت, هذا ما يقولونه , وافهمه بنور قلبك وناقدِيَّتك الباحثَة تجده لا يختلف قيد أنملة عن الوصف الذي يوصف به القرآن من أنه لكل زمان ولكل مكان ولكلِّ إنسان.

هكذا تجنوا على كتاب الله تعالى وهم يعلمون , ولكنَّ المشكلَة فيمن لا يعلمون, ثم لا يرعوون بعد البيان, لأجل أنَّ ما جاءهم هو نظريَّة أجنَبِيَّة عليها دمغة الغرب.

وإن شئتَ فاقرأ "ما كتبه نصر أبو زيد، وسيزا قاسم في القارئ والنص من السيميوطيقا إلى الهيرمنيوطيقا ومختلف كتاباتها، وغيرهم من الشراح الذين اتخذوا من التأويل منهجاً نقدياً، وستكتشف أن النقد العربي قَدْ وقع تحت طائلة القمع والاستبداد، وأن مستقبله على طرف عكازة " ([188]).

إنَّ من أساسيات العقائد أنَّ التسوية تلك المشار إليها آنفا هي مما يهدِمُ إيمان المرء, فعيب على العربي إذن أن يتعلَّق بشيء يعني فيما يعني مروقا من الملَّة باسم الأدب أو الفكر أو الثَّقافَة.

ومحالٌ أن يكون الإبداع طريقا إلى الإقذاع, والرحمة مسبلةٌ بشآبيبها على كُلِّ الذين أسهموا في أن يشتقَّ للفنون الأدبيَّة اسما يدلُّ على التخلُّق والنَّزاهة, وهذا الاسمُ هو الأدب.

فلا بد من مراعاة أنَّ أوائلنا اشتقُّوا لفنون الشعر والنَّثر جميعا اسما من الأدب, ذلك الدَّالُ على التهذيب والتَّأديب ومحاسن الأخلاق.

إنَّ الأمانة العلميَّة قد عرفناها ولكن ما يجبُ أن نعرفه هو أمانة الفهم, والتي يمكنُ أن نسَمِّيها "الأمانة الفهمِيَّة"وهيَ الواجهة الأخرى لأمانة العلم إذ لا علم صحيحٌ إلاَّ بفهمٍ صحيح وما يقال هنا يقال في الإبداع والفن.

فلو كانت السُّلطَةُ للقارئ لما كان للقرآن معنى, ولما كان لتحدِّيه بلغاء العرب فائدَةً تذكر.

فهؤلاء إن هم إلاَّ كمن قدَّم العقل على الشَّرع لأنَّه آلة فهم النُّصوص, ضاربا بالوحي عرض

---

[188] د. عمار بوساحة "تحت أنقاض حداثة اليباب.. بحث عن مفقود اسمه المصطلح النقدي العربي", مجلة الموقف الأدبي -مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب , بدمشق - العدد 413 , أيلول 2005 م .

الحائط جاعلا الفرع مقدَّما على أصله بل نافيا له، كشأن المعتزلة من قديم، فواغوثاه.

ثم إنه "ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من الناس إلا على ما عرف أنه أراده لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل أحد فإن كثيرا من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله ; يسلك مسلك من يجعل " التأويل " كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص وهذا خطأ" ([189]).

هذا مع الاحتمال, فكيف مع التَّحميل؟!

لقد سمَّوا النَّصَّ نصًّا إذا كان له معنى واحدا مفيدا للجزم بما أراد المتكلِّم فهذا يدور في دائرة اليقين, وسمَّوا الظَّاهر فيما كان محتملا لمعنيين لا يَقطَعُ القارئ المجتهد بأحدِهِما لكنَّه يترجَّحُ له من ظاهره تقديم واحدٍ منهما أي هو "ما دل بنفسه على معنى راجح مع احتمال غيره". وهذا يدخل دائرة الظَنِّ, وسمَّوا المؤول فيما احتمل معنيين فأكثَر فهو "ما حمل لفظه على المعنى المرجوح", بل إنَّ أهل اللُّغة سمَّوا ما له مجرَّد معنيين من الألفاظ مشكِّكا لعدم فصله في معناه من ذاتِ بنائه, فدائرة الظنِيَّات في النَّص المؤوَّل أعظم منها في النَّص الظَّاهر, بل هيَ فيه مجَرَّدُ مرجوحات لا تعني إلاَّ أوهاما,فكيف تأتي التَّفكيكيَّة لتجعلها أفهاما, ثمَّ تزعمُ أنَّ فهوم النَّص عدُدُها بقدر عدد القرَّاء, رُغم كثرتهم تبايُنِ أفهامهم وتضاربِها واختلافها, بل صرَّحوا بأن يفهم القارئ من النَّص ما شاء ,كأنَّهحين القراءةوالفهميصطلحُ اصطلاحات للكلمات حتَّى يفهم منها ما يريد ,وبالتالي ضاعت اللغة وضاعت قوانينُها , وضاع نحوها وصرفها ولميعد للَّفظ معناه طالما أراد القارئمنه معنى أخر ,فاستوت الألفاظ حينها جميعا, ولم يعد الذهب إلاَّ ترابا , والماءُ إلاَّ سرابا, واغتدى الكون لغة وعقلا خرابا يبابا.

189- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (728هـ) "الإيمان" ت: محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، ط 5، سنة 1416هـ/1996م، ص33

إنَّ التَّأويل بخلاف اللَّفظ الصَّريح لا بدَّ أن تختلف الفهوم فيه بين مصيبٍ ومخطئ, ومحالٌ في العقل الحكم بصوابها جميعا, في حين هي متضاربة متعارضة أحدها يرمي لليمين مشرِّقا والآخر موغلا في الشِّمال مغرِّبا, فلا جرمَ أن يدليَ كُلٌّ بحجَّته حتَّى ينصُر المعنى الذي فهمه, بأدِلَّةٍ وبيِّنات, فالتَّأويل يحتاج إلى براهين تؤكِّد المعنى المذهوب إليه عند القارئ بيِّنَةً ومفهوما, وإلاَّ كان تخرُّصا مذموما, فمن الشَّطط أنيكون عاريا عن الدَّليل منزوٍ في زوايا التَّحكُّم وإطلاق المرادات وتحديد المعاني رجما بالغيب, وبالتَّالي فالتَّفكيكيَّة تريدُ أن تعلِّمنا فنون الرَّجم الغيبي الذي هو الرَّجم العَيبي, والقَول بلا دليل عن طريق القضاء على سلطَة النَّص بسلطة القارئ, وهو عين الدَّجل والخبل والتَّعمِيَّة.

وما نرى ذلك منها إلاَّ محاولَة للهروب من شاطئ البرهان السَّاطع لأجل العجز عن البلوغ إليه في خِضَمِّ أمواج الظَّنِيَّات الهائلة؛ بخلقِ جُزُرٍ وهمِيَّة داخِلَ بحر النَّص.

إنَّها الطَّاعوتِيَّة المتسلِّطَة, والدِّكتاتوريَّة المفرِطَة؛ التَّي تتحَكَّمُ في النُّصوص, بجعل القرَّاء مجَرَّد لصوص, يتربَّعون على كراسي دولَة الفهم, ليأمروا المعاني بأن تتوجَّهَ إلى حيثُ يريدُون.

هذا بالنِّسبَة للقارئ الواحد, فإذا كانت هذه سلطةُ متاحَةٌ للقرَّاءكلِّهم فهي الفساد العامُّ,حيثُ يكونُ كُلُّ أحدٍ لغتُه التي يريد, ولوأنَّ الأمر سار على نحو ما تراه هذه النظريَّة لسقط النِّظام, لأنَّ اللغة نظام لا يقبل الخلخلة والحلحلَة والانهدام, ولنقطع التَّفاهم, كما ينقطع التَّحاكم إذا لم يبق للناس نظامٌ يحكمُهم, ولا عدالَةٌ يرجعون إليها, جينما يركَبُ كُلٌّ واحدٍ رأسَه , وذلك هو عين الفوضى والهوان وتحطُّم المعيار.

ولئن كان لنا أن نأخذ من عبارات أهلها لنقذفَ بها في وجوه تنظيرِهم لقلنا: " إنَّ هذه النَّظريَّة مرفوضة بقدر عدد القرَّاء", فإنَّها فيما نقطَعُ به موصلَةٌ إلى قلبِ الحقائق, حيثُ توحي لنا بأنَّ القارئ الذي يحبُّ أن يستقي ماء الفهم يأمرُ الحَفِيَّة أن تأتي إلى الدَّلو لا أن يذهَبَ الدَّلو إليها, وإذا كانت العقول لا تؤدِّي وظيفتها حتَّى تُأمَر , و الماء لا يجري حتَّى يقال له سل, والغُصن يُقَالَ له مِل؛ فحينئذٍ غُبِنت الحقائق, فكيفَ بمن -في ظلِّ هذه النَّظريَّة المفكَّكَة- يقول : "للماء مل, وللغُصنِ سل" ويقترح من عنده القلب بين مفهوم الماء والغصن

كما يشاء ويتسَلَّطُ ويشتهي, فهذا عليه أن يرعويَ و أن ينتهي, وإلاَّ فإنَّه ماضٍّ في التَّخرُّصِ الكثيف بين غابات الجنون, إذ السُّلطة إذا كانت للقارئ, فقد جاء نظامُ الغاب, و عمَّ الهلاك واستشرت الفوضى وانتَشَر الخراب.

ثُمَّ؛ إنَّ لكُلِّ شيء حدُّه, وقدرته وطاقته, سواء كان مادِيًّا أو معنويا, يستوي في ذلك القولُ والفعل, فإذا نحن ولجنا عالم التُّراث بصفَةٍ عامَّة, و دخلنا ميدان المناظرات والرُّدود, وساحَةَ المُساجَلات والنَّقد بصفَةٍ خاصَّة, وجدنا العلماء والأدباء من قديم أطلقوا مصطلح "التَّحميل", ويستعملونه عندما يكون المخالف قد فهم قول خصمه فهما يجعله يحمِلُ المعاني إلى غير وجهتها من جهة, ويُحَمِّلُها من المرادات ما لا تحتمل ولا تُطيق, فإذا تناولنا اليوم نصًّا إبداعيا روايةً مثلا أو شعرا, فمحالٌ أن يقودَنا تحليلُه من نقدٍ بنَّاء إلى نقد هادم, وفهمٍ مُصادِم, ومن إطراء إلى إلقاء, بله أن نجعله يفيدُ معانِيَ حريريَّة وإن لم يكُن مقامةً من المقامات (!), في الوقت الذي يُفيدُ معانيَ من خُيُوطِ العناكيب !!

هذا إذا بقينا في دائرة الأقمشَة والخيوط, فكيفَ انتقلنا إلى الأسلاك, ثُمَّ تخطَّيناها إلى الأفلاك, ليرتحِلَ القارئ مع أبي العلاء في آخرته التي أودعها "رسالَة الغفران".

وإلاَّ ما الذي يمنَعُ أحدَ هؤلاء أن يقرأَ مقطوعَةً لامرئ القيس قائلا إنَّها إحدى أغاني "بيهوفن" الفَنَّان!

ولقد تكَلَّم من تكَلَّم عن الغموض الفَنِّي, الذي يقتضي تنوُّع الدَّلالات, واكتناز النَّص بالمعاني والإيحاءات, فكيفَ لو قارنَّاه بالنَّص ذي المعاني التي يؤلِّفُها القارئ من عنده في ظِلِّ ما تحميلاته الفضفاضَة, واحتمالاته المتهاطِلَة, لا جَرَمَ أنَّ النَّص أعمى مطلَقا, لذلك يلوِّحُ بمعانيه في كُلِّ اتِّجاه, وإذا ساغ لنا أن نطلق على النَّص الغامض بعض غموض أنَّه فنِّي, فليس يُمكنُ أن نسمِّيَ هذا المقابل له بالعمى الفنِيِّ, لأنَّ التَّعمِيَة ليست من أدوات الفن, بل الذين أبدعوا مصطلح الغموض الفنِّي, اشترطوا أن لا يصِلَ إلى حدِّ العماء!

وإلاَّ فقد جاءت والحالَةُ هذه؛ تباشير ليل النَّصِ الأكمه, كما جاءت قصيدَةُ النَّثر في خِضَمِّ الدَّواجي التي ضربت بغطائها على نور الأدب وأضواء الإبداع.

وإذن؛ فالقارئ مكتشف وليس بمؤلِّف على كُلِّ حال, لأنَّ التَّأليف خلقٌ وإنشاء, وهو ليس له أكثَرَ من الاتِّباع والاستطلاع, فلا يصِحُّ أن نسمِّيَ من وجدَ شيئا في طريقه بشدَّة انتباه ودِقَّة نظر أنَّه صنعه, وفرقٌ كبيرٌ بينَ الواجد والمُوجِد, كالفرق بين الجامد والمشتَق, لذا من وجدَ شيئا, ليس منشئا, فالقارئ في عمَلِيَّة الفهم والمطالعة يرتقب حصول أمور والعثور على أشياء بين السُّطور, ولكنَّهُ لا يخترعُها ولا يوجِدُها رغما عنها, بحيثُ يرفدَها من المعاني ما يتبرَّأُ النَّصُّ منه, أو ما لا يوجدُ فيها , وإلاَّ فهو كمن يطلُبُ الولدَ من العقيم!

وإذا كان المتنبِّي قد تكلَّم عمَّن لا يُحسنُ الفهم قائلا:

وكمَ مِن عائبٍ قولا صحيحاً *** وآفَتُــه مِنَ الفَهـــمِ السَّقيـــم.

فإنَّ القارئ التَّفكيكي آفته الفهم العقيم, الفهم الذي يضرب في كُلِّ مضربٍ ويضطَرِبُ في كُلِ مضطَرَبٍ ولا يُقيم, ثُمَّ يهيمُ خابطا خَبطَ عشواء .

ذلك هو التِّيه بلا إجادة, والقراءةُ بلا استفادَة, حيثُ تنعدِمُ الضوابط, وتختفي الرَّوابط, لتأتي خِلْوا عن أيِّ قواعد تَحكُمُ أوتُجدي, أو قائد خِرِّيتٍ يفهَمُ ويَهدي.

يمينا؛ إنَّهم لمسافرون في طريق النَّص دونما زادٍ أو عتاد أو دليل هاد, وليس شيء من ذلك بظافرٍ صاحِبُه أو مُصيب.

إنَّ المؤلِّفَ يعدُّ هو القائد في مسيرة القراءة, يمشي بالمطالعين إلى حيثُ يريد, بحيثُ لو خالفوه وأخذوا وجهةً أخرى فهم حينئذٍ لا يقرأون كتابَة بل يقرأون من خيالاتهم, ووجود نصِّه بين أيديهم كعدمه تماما والحالَة هذه, فلا بُدَّ للمُضِيِّ معه قُدُما من متابعته, فإن هم اقتفوا أثره وتابعوا خطواته, أمكنهم في جولتهم هذه معه أن ينظروا في الطَّريق ما لم ينظُره, وأَن يُبصروا من الأشياء ما لم يُبصِره, وإن كان هو هاديهم في تلك الدُّروب, فهذا أمرٌ مشاهدٌ طبيعي, فالقارئ مجرَّدُ متابع ولكنَّه إذا تنبَّه ووعى استطاع اكتشاف أمور لم يُطلعه عليها صاحبُ النَّص في رحلتهم القرائيَّة, ليصير القارئ النَّاقد البصير في ذاك المسير رائيا ما لم يَرَهُ الكاتب نفسُه, لكنَّه لا يُنتِجُ فهو ما عكسِيَّة باسم التَّأويل, وليس له أن يفهمنا أو يخلُقَ لنا بيئةً جديدَةً وطبيعَةً مُغايِرَة لطبيعة النَّص وبيئته, بمناخٍ خارج تماما عن إطار ذلك الجو

ومحيطه, إلى درجَةِ أن يمضي بنا المؤلِّفُ الأوَّلُ وسط الغابات على اليابسة, فيجعلها القارئ وسط الأمواج في عرض البحر باسمِ أنَّه مؤلِّفٌ ثانٍ, أوي أخذنا الكاتب في نزهَةٍ كتابِيَّةٍ ربيعِيَّة بين الأزهار والبساتين, ليُحوِّلها القارئ إلى رحلة نحو الصَّحراء بين الرِّمال في الحرِّ القائض, بحيثُ يغدو تحويلُه هذا وتغييرُه ذاك ليس مجرَّد تحوير طفيف, أو تعكير خفيف, بل يمسي كنزع زهرة, وغرس شوكَةٍ بدَلَها, وإخراجِ روحٍ من جسدٍ حَيٍّ ليسكنَه الفناءُ ويموت, فأين إذن؛ حلول الرَّبيع في شهر أوت !!

إنَّ هذه الطَّريقَة في الفهم, والعمليَّة في الإدراك إذا ما ولجت دور التعليم وميادين التَّدريس؛ ستكون نتيجَتُها حطاما فوق حطام, وأوهاما خلفَ أوهام, لا تُجنى منها معارفُ ولا تُحَصَّلُ أفهام.

إذ "كيف سيتعلم المتعلمون مع أنَّهم قد يفهمون مما يتلقون ويقرؤون خلاف ما قصد المعلم أو الكاتب تبليغه إليهم؟

ماذا لو قدَّم أحدُ أصحاب هذه الفكرة لتلاميذه في الامتحان قصيدَة المتنبِّي في مدح سيف الدَّولة ثمَّ خَطَرَ للتلاميذ أن يكونوا من أصحاب [القراءة المعاصرة] في إجابتهم؛ فكتب أحدهم: [هذا هجاء مقذع] . مؤوِّلاً كلَّ كلام المتنبِّي على قاعدة الاستعارة التَّهَكُّميَّة!!

وكتب الآخر :[هذا غزل رقيق؛ فالمتنبِّي أسقط على سيف الدولة صورَة الأنثى التي لم يجدها في الواقع !!].

وكتب الثَّالثُ :[هذه قصيدة في الفخر؛ فالثنائية متوهمة فقط، وليس سيف الدولة في القصيدة إلا الأنا الأخرى (alter – ego) للمتنبِّي]

وأمَّا الرَّابع فقدَّم الورَقَة بيضاء !!

فكيفَ يُمكنُ للمُعلِّم أن يُصَحِّحَ إجابات التَّلاميذ بناءً على مذهبه؛ فإن حاكمَهُم إلى معيارٍ ما, فقد ناقَضَ نفسَه, وللتَّلاميذ أن يقولوا له: كيفَ تُحاكِمُنا إلى فهمِك وقد أمليتَ علينا أنَّ كُلَّ القراءات مشروعة ؟!, وإن سار مع منطق القراءة الجديدة فحتَّى الورقة البيضاء ينبغي أن

تُعطى دَرَجَةً, لأنَّ سُكوتَ التِّلميذ عن الإجابَة تعبيرٌ استفزازي عن الثَّورَة على النَّص, ورفضٌ لكُلِّ إسقاطاتٍ عصريَّةٍ على شاعِرِيَّة المتنَبِّي" ([190]).

وإذن؛ فالقراءات إذا كانت كلُّها مشروعة, لم يبقَ لشيء اسمُه "الخطأُ في الفهم" وجودٌ يُعقل, بل إنَّ هذه القراءة النَّقدِيَّة تقتُلُ النَّقد, فلا أحدَ يُعَقِّبُ على ذاك, ولا ذاك يستدرُك على هذا, لأَنَّ الكُلَّ مصيب, في حين أنَّ الخطأ ملازم للطَّبيعَةِ البَشَرِيَّة باتِّفاق النَّاس فلاسِفَة ومفكِّرين ومَن دُونَهُم, وهيَ تتعدَّد بتعدُّد القرَّاء واختلافِ مستوياتهم, لكنَّ هذه الأخطاء يقَلِّلُها ويُضَيِّقُ دائرَتَها الوفاء, الوفاء للصَّواب بالرُّجوع إليه, والوفاء للكتَّاب بحسنِ تَفهُّم نصوصِهم, لأنَّ حسن التَّفهُّم وسيلَةٌ للإصابَة ووقايَةٌ من الغلَط.

إنَّ من الوفاء للكاتب ألاَّ تقوِّله أكثَر ممَّا يُطيق, حتَّى لا نقول أكثَر ممَّا يقول, لأنَّ في تقويله ما لم يقل قد يكون فيه ما يليق به وبنَصِّه, فضلا عمَّا يُطيقه, وإلاَّ صار القارئ خالقا لأشياء هي من عين التَّخرُّصِ ومَعِينه, لا يساعدُ عليها سباق ولا لحاق, ولا يدعمها سياقٌ ولا اشتقاق, وحينها لن تُعادِلَ إلاَّ الكذبَ نفسَه, والتَّجنِّيَ ذاتَه, وتلك آفةٌ من كبير بل كبائر الآفات لا ليس فيها كبيرُ حيلَة.

وصدَقَ مَن قال:

لـــي حيـلَـةٌ فيمَـــــن يَنُمْـ *** ـمُ, وليسَ في الكذَّابِ حيلَه.

مَن كانَ يَخلُـقُ مــا يقُــو *** لُ, فحيلَتـــي فيـــهِ قليـــلَه.

فأينَ العهدُ بين القارئ والكاتب:

حلفت لنا ألاَّ تخونَ عهودُنا ** فكأنَّها حلَفَت لنا ألاَّ تفِي !!

إنَّ النَّصَّ ولو فرضنا أنَّهُ أَسيرٌ لدى القارئ, فإنَّ عليه أن يحسنَ معاملته بحسنِ تفهُّمه, لا

[190] محمد صالح المنجد "بدعة إعادَة فهم النَّص" مجموعة زاد, بدون, ص 47 – 48 , بتصَرُّف يسير.

برحابة توهُّمه, وبنقض العهد الضِّمني الذي بينه وبينه, لكون النَّصِّ مولودا من رحم القريحة, فيجبُ رعايَته بإدراك ما فيه, وليس بصَبِّ جام التّأويلات عليه, وإذا كانت الأرحام لا تجني على بعضها بعضٍ؛ فكذلك ينبغي أن تكونَ القرائح.

بيد أنَّ بعض النصوص هي أصلا تقوم على الانتشار والاحتمال وتداخل المعاني والاشتباه، بطريقة مقصودة من كاتبها يدفعه إليها غرض من الأغراض !، وذاك ما نوضحه تحت العنوان الآتي:

بين الدلالة المضمونة والدلالة المظنونة:

قال تعالى أو { أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ **بِظَاهِرٍ** مِنَ الْقَوْلِ} [الرعد:33] فهذا هو القول المباشر الذي يحمل معناه في لفظه.

وهناك لفظ أخر هو كلام يحمل ما يُخالف بل ربَّما ما يناقض معناه, فيما سَمَّاه القرآن {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي **لَحْنِ** الْقَوْلِ} [محمد:30] وهي الآية الوحيدة التي ذكر فيها اللَّحن في القول, ومرَّة عبَّر القرآن عن هذا المعنى باللَّي, لأنَّه المنزلة الوسطى بين النَّشر والطَّي, إذ الكلام إمَّا أن تُظهره نَشرا, وإمَّا أن تطوِيَهُ سرًّا, وإمَّا أن تجعله في منزلة بين المنزلتين فتلوي به اللِّسان ليًّا كشأن من لا يعرفون الصَّراحة, وهم الذين قال الله تعالى عنهم: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا **يَلْوُونَ** أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران:78], وهي الآية الوحيد ة التي ذُكر فيها اللَّي كشأن أختها التي ذُكر فيها اللَّحن, فليُّ الكلام هو كذب كما سمَّاه القرآن هاهنا ولكنَّه ليس كذبا صريحا, بل هو كلام يجعلك تحسبُ شيئا واللَّفظ معناه دالٌّ على شيء آخر, كعادة من يقررون شيئا بطريقة غائمة أي يجعل لك في ألفاظه جوًّا من الضَّباب الكلامي الكثيف كي لا ترى الحقيقة كما هي, وتتصوَّرُها تصوُّرا قائما على التخيُّل الذي لا يعطيك إلاَّ مخايلا تبعدك عن الصُّورة الأصليَة, بحيثُ إذا بحثت بعدهم وجابهتهم بما عرفت واستيقنت لاذوا بكلامهم محتجين بأنَّهم قصدوا ما لم تفهمه أوَّلا وفهمته أخيرا, وأنَّ مرادهم هو هذا الذي انتهيت إليه,وليس ما أدركته في بداية العرفان, ذلك أنَّ البرهان عندهم ينهض على عدم سدِّ باب الرَّجعة حتَّى إذا

فوجئوا بإدراك المتلقي لحقيقة مرادهم وجدوا الباب مفتوحا أمامهم حتَّى يتنصَّلوا ممَّا تعمَّدوا أن يُخيِّلوه له, بالرجوع إلى ظاهر اللَّفظ وأنَّه لا يعني ما توهَّمه السَّامع, فذلك هو الملجأ الكلامي المفزوع إليه عن طريق الاستعانة باللَّفظ المعلوم على المعنى الموهوم, عند التَّمَلُّص ممَّا أوهمَه الباث للمتلَقِّي من المعاني التي يبعثُها الجو الضَّبابيُّ للكلام حالَ عمليَّةِ البثِّ والإرسال, في حينَ أنَّ اللَّفظ بدون جوِّه لا يقوى على الإيهام إلاَّ مضموما إلى ذاك الضَّباب في عمليَّة تركيب المفردات, وترابط الكلمات, ونوعيَّة الإلقاء, فيكون اللَّفظ المجرَّد هو المعاذ للمرسل لأنَّه خالي من مادَّة الالتواء التي جعلت المتلقي يحسب معنى لا يساعد اللَّفظ عليه, لأجل أنَّ باطن الكلام غير ظاهره, وظاهره غيرُ باطنه, فيتَّسع لجمع مراداتٍ ومشارب, وتعدد مقاصد ومذاهب وتنوُّع ظنون, على حدِّ قول الشَّاعر:

وبين اختلاف السَّكت والنُّطق للنُّهى ** مجَــالُ ظنُــون واشتبـاهُ مسارب.

وإذن فالكلام, إمَّا إعلام أو إعدام , أو ما بينهما و هو الإيهام الذي يعرَفُ ويُعرَفُ صاحِبُه في لحن القول, ممَّا يفيدُنا أنَّ الدِّلالة قد تكون ظاهرة عَلَنِيَّةً مضمونة, وقد تكون غائرَةً باطِنِيَّةً مظنونة.

يقول أحمد شاكر منتقدا اتِّكاء أحد الكتَّاب على قصيدة منقوشة لناقش مجهول في إثبات حقائق تاريخيَّة من عهد الفراعنة, ونفي ما عدا ما ذكرته أبياتُها ممَّا هو مثبتٌ في كتاب الله تعالى, قائلا؛ إنَّ القصيدَة: "فيها من الصِّفات التي يُسبِغُها على فرعون ما هو كذبٌ قطعا, من وجهة نظرنا الإسلاميَّة الثَّابتة في القرآن, والتي لا أظُنُّ أنَّ للمؤلِّف من الشَّجاعة ما يُجرِّئه على أن يُكذِّبَها صراحَة, وإن كذَّبَها ضمنا في لحن القول!!" ([191]).

من هنا فقد كان الأستاذ كنون من الواضحين الصرحاء، الذين يبغضون الصورة التعبيرية الدكناء كما يبغضون اللف والدوران والالتواء، ولا يحبون إلا الجري على نسق التبيين للمراد بأقرب لفظ وأظهره على طريقة القرآن في توصيل المعاني، بالإضافة إلى اتباع أسلوبه المعجز البياني لرسم صور الأفكار على أحسن ما هي عليه في ذهن المتلقي، دون

[191] أحمد محمد شاكر "جمهرة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر – مع أهم تعقبات الشيخ على دائرة المعارف الإسلامية"جمعها وعلَّق عليها واعتنى بها عبد الرحمن بن عبد العزيز بن حماد العقل, دار الرياض, جيزة, مصر, ط1, 1426هـ/2005م, (513/1).

انحراف عن المقصود البارع، أو تعمد إيهام السامع، كل ذلك بجمالية متوخاة في تصوير المفاهيم وتوضيح المعالم وبيان المراد، أي بأدبية تعبيرية رائقة، فلطالما كان الأستاذ كنون يفضل في تعريف الأدب أن يقول: "ولعل خير ما يمكن أن يُعَرَّفَ به الأدب اليوم، هو أنه كل معنى جميل في عبارة جميلة، فيأخذ الأدب من الدين، والعلم، والفلسفة، والفن، لأن كلا من ذلك يشتمل على معاني جميلة في عبارات جميلة" ([192]).

كان الأستاذ كنون في قراءته للنصوص مبتعدا عن مخاطر الدراسات الغربيَّة وما عملته أيديها من تشويه لمعاني البيان العربي عن طريق جهاز الاستشراق الذي فعل ما فعل، بل الأمر –كما يقول نابغة الأدب محمود شاكر- "أكبَرَ مِن ذلك, بل إنَّه أتى أساليب غايَةً في الدَّهاء والخفاء, أفضَت إلى تدمير الوسائل الصَّحيحة التي ينبغي أن يتذرَّع بها كُلُّ مَن دَرَسَ نصّاً أدَبيّاً , حتى يُتاحَ له أن يحْكُمَ على جودَتِه أو رداءته , فضلا عن بلاغته وإعجازه"([193]).

قلتُ؛ وليست تلك الوسيلة غير النظريات الأدبية الغربية في علم اللِّيسانيات, يُضافُ إليها نشر النَّصوص التي تُضعفُ الملكة العربية و تُعَلِّق القارئ والكاتب بأساليب الغربيين في الفهم والكتابة, أساليب غربية هي جيِّدَة عند الغرب لكنَّها تُضعِفُنا إذ لكُلِّ لُغَةٍ جِسمُها وماهيتها و طبيعَتُها, فيكون لهم بذلك ضرْبُ عصفورين بحجر واحد, فتَأَمَّل.

ونحن نقرأ الأدب الغربي لكن ليسَ قبل أن تستوي مَلَكَتُنا في الأدَب العربي , واسْمَع إلى العَلاَّمة محمد على الطنطاوي يقول عن أستاذِه شيخ أدَباء الشَّام سليم الجُندي:

"كانَ يُحَرِّمُ علينا أنْ نُلِمَّ بشيء من الأدَب الحديث أو ننظُرَ في جريدَةٍ مِنَ الجرائد, قبلَ أن نتمَكَّنَ مِنَ الأدَب القديم, ونألَفَ الصِّياغة العربيَّة, وتستقيم مَلَكَتُنا على طريق البلاغة السَّوي

192- عبد الله كنون "التعاشيب" المطبعة المصرية، تطوان، بدون، ص 4، بواسطة أحمد الشايب "الدراسة الأدبية في المغرب الأستاذ عبد الله كنون نموذجا" منشورات مدرسة الملك فهد للعليا للترجمة بطنجة، مطابع سبارطيل، ط 1، سنة 1991م، ص 141.

193- مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393هـ) "الظاهرة القرآنية" تقديم: محمود شاكر، دار الفكر - دمشق سورية، ط 4، سنة: 1420 هـ -2000م، ص 22 .

خَشيَة أن تَدْخُلَ جَراثيم العُجْمَة إلى أُسْلُوبِنا, وأن يَفْشُوَ الضَّعف في بيانِنا" ([194]) .

فهذا نَهيُ أَحَدِ الأساتذة مِن تلاميذ الأديب الكبير علي الطَّنطاوي الذي كان يمنع طَلَبَةَ الأدب من قراءة الأدب الغربي بل حتى الأدب الذي يكتبه العرب المعاصرون كي لا تضعُفَ ملكتهم البيانيَّة, ومستوياتُهم التفكيريَّة, إذ معلومٌ أنَّ التَّفكير غالبا ما يكون بِقَدْرِ الثَّقافة , فإن لم يكن بقدرها أحيانا كمثقف و لكنَّه ضعيف التَّفكير مثلا ؛ فإنَّه لا جرَمَ يحتاج و لو في تفكيره الضَّعيف ذاك إلى ثَقافَةٍ ما , فالمرء لا يُفكِّرُ إلاَّ من خلال المعلومات , و لا يصلُ المتدبِّرُ الشيءَ والمُفَكِّرُ فيه إلى غايةٍ صحيحة ونتيجة حَسَنة ومعلومةٍ جديدة إلاَّ بعدَ أن ينطَلِقَ من معلوماتٍ حاضرة لديه ليصل بها إلى معلوماتٍ غائبة عنه, و كذلك دورة الذهن في الانتقال من المعلوم إلى المجهول.

بيدَ أنَّ الأستاذ مالكا بن نبي تنبه إلى هذا التوجيه المقصود للأدب العلامة مالك بن لا سيما قد عاش في الغرب متابعا توجهات وتوجيهات المستشرقين، وعرفهم من كثب ودرسهم ودقق في تحركاتهم الفكرية و سكناتهم الثقافية، وعواملها الخفية ـــ فقال في كتابه الظاهرة القرآنية : " إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصوَّرُها" ([195]).

ويقصد بالإشعاع التَّأثير السلبي لهذا الاستعمار الاستشراقي على العقل العربي، في الفكر والثقافة والأدب، وفي اللغة ونظرياتها اللسانية، وفي النقد وتحليل النصوص وفهمها.

إنَّ النقد مبني على الفهم, والفهم يتفاوت علوًّا ويتماوتُ نزولا, فيأتي الفهم الأولي للنَّص؛ ثم الفهم المبني على الإدراك الجَيِّد لأبعاد المعاني الأوليَّة؛ ثم الفهم الذي يُحسِن التقاط ما يتخَرَّجُ ويترشَّحُ من معان إضافِيَّةٍ ناتجةٍ عن تعدد القراءة للكاتب نفسه ودقَّة النظر في

194- علي الطَّنطاوي "فكرٌ ومباحث" (ص 211) طبع دار المنارة للنَّشر والتَّوزيع , جدَّة ؛ السَّعوديَّة , الطَّبعَة الأولى 1426 هـ - 2005 م .

195- مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية" تقديم: محمود شاكر، دار الفكر - دمشق سورية، ط 4، سنة: 1420 هـ -2000م، ص 54 .

نصوصه والبراعة في أن يستشفَّ الناقد من كُلِّ ذلك معلوماتٍ عن الكاتب و عن كلامه وطريقة تعبيره وأهدافه وأغراضه وما يتعلَّق بتكوينه وقيمة ما يقدمه ومنزلته فيما يعرضه و مدى قدراته العقليَّة والبيانِيَّة وكيفيَّة إتيانه إلى الأشياء ليشرحها والأفكار ليضعها, وبماذا يبدأ و من أين ينطلق وكيف يفكِّر وإلى أيِّ مدرسَةٍ ينتمي, وأيِّ نفسيَّةٍ هي نفسِيَّته, وما هي أخيرا- في الناس وبين الكتَّاب وفي عالم الأفكار درجَتُه.

وبدهِيٌّ أنَّ مجموع مايستفاد من القراءات للكاتب الواحد مع استنباط ما يمكن استنباطه من كلامه لا يتمُّ بمجرَّد المعنى ومعنى المعنى, بل الإحاطة بكلِّ ذلك هيَ شيء وراء هذين بلا ارتياب.

وقديما قيل "عقل المرء مخبوء تحت لسانه" , وقيل "من تكلَّم فقد عرض علينا عقله", كما قال ابنُ المبارك:

تعاهد لسانك إنَّ اللِّسان *** سريعٌ إلى المرء في قتلِه.

وهذا اللِّسانُ بريدُ الفؤادِ *** يَدُلُّ الرِّجــالَ على عقلِه.

فهو إذن ميزانٌ لصاحبه, ربَّما أدَّى إلى قتله, حتَّى يصبح معدوما, ككفَّةِ ميزانٍ لا شيء فيها, وهو على الأقل يُنَبِّهُ النَّاسَ ويدُلُّ عيونَهُم على عوارته, كما قال طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي:

وإنَّ لسانَ المرء ما لم تكُن له *** حصاةٌ علــى عَوراتِه لدَليــلُ.

وغير خفِيٍّ أنَّ إدراك وزن عقل القائل لاسيما إذا تكلَّم واستطرد وأطال؛ لا يدرَكُ من معنى ما قال, ولا من معنى المعنى اللاَّزم عن كلامه؛ بل هو خارجٌ عنهما كامنٌ وراءهما بحيثُ يدُلاَّن بطريق غير مباشر عليه, إذ هما لا يعدوان أن يتعلَّقا بالألفاظ, فيدل المعنى على المراد من النَّص ومن الكلمة بدرجة واحدة لأنَّه شيء محتوى فيها, ويدُلُّ على معنى المعنى بدرجةٍ ثانِيَة لكونها تابعةٌ للنَّظر الثَّاني في عمليَّة القراءة النَّقدِيَّة؛ أمَّا معرفَةُ المستوى العقلي للكاتب فيدرَكُ خلف اللَّفظ بدرجات.

بيدَ أنَّنا لا بُدَّ أن نقول هنا كلمةً تحدد منازل الدِقَّة ومستويات الخطر في عمليَّة القراءة؛ فالدرجة الأولى درجة العامَّة, والثانِيَة درجة عامَّة النُقَّاد؛ وما بعدها فلأولي البراعة الفائقة في النَّقد والنَّظر من أهل التجربة الطويلة والمراس الشديد في معايَشَة النُّصوص والأقلام ونتائج أهل الفكر, فهذا ما يتعلَّقُ بالدِّقَّة المشار إليها آنفا.

أمَّا توضيح درجات الخطر ومستوياته فتابعةٌ لإدراك المعاني من حيث السُّهولَة والصُّعوبة, فالدرجة الأولى مستطاعة كمثل استطاعة كلِّ مبحر أن يقف في ماء الشَّاطئ على رجليه وإن لم يستوعب الماء جسَدَهُ كُلَّه قائما؛ والدَّرجة الثانية هي مسافَةٌ في الفهم كمسافَة من أبحر مبعدا عن السَّاحل دون أن يصل إلى الأعماق؛ وتليها الدَّرجاتُ الأخراةُ التي لا يجدُ الناقد نفسَه إزاءَها إلاَّ موغلا في عرض معاني النص وما يحيط به ويتصِلُ بجنباته كمثل الذَّاهبِ في عرض المياه ذهابا بعيدا.

فهذه مهارة ولكنَّ صاحبَها على درجةٍ كبيرة من الخطورة لكونها هلامِيَّة شاسعة غير مدركةِ الأبعاد بشكل جَيِّد لذا كانت أحكامها ظنِيَّة غير يقينِيَّة في أكثر الأحيان؛ بحيث كلَّما اقترب الناقد من الدرجة الأولى كانت أحكامه تقترب هي أيضا من اليقين, كاقتراب الآيبِ إلى الشَّاطئ من النَّجاة.

وربَّما قسَّمنا تلك الدَّرجات تقسيما نحاكي فيه الكون الفسيح فنقول هي تباعا نهر يلوه بحرٌ بعدَه محيط.

فمن أراد درر التَّأويل لا يستغني عن اقتحام أمواج المعاني, ليصير كالأسماك ؛ يبحر ما يُبحر ثُمَّ يعود بدرر الإدراك.

إنَّه النَّاقد السَّمكة؛ لكنَّه على شفا هلَكة إن لم يُجِد العوم ويتثبَّت قبل اليوم, ويستجمع قواه ومهاراته.

من هنا كان عبد الله كنُّون مع القائلين بأنَّ"الألفاظ قوالب المعاني" من جمهرة الأصوليِّين وأهل الاستنباط, وذلك كي لا تحمِّل الكلام مالا يحتمل, حتَّى وإن فتحتَ أبواب التَّأويل, فإنَّ هذا التَّحميل هو الفاصل الذَّي بينَ التَّأويل والتَّحريف, بحيث من حمَّل كلاما ما لا يتحمَّلُه

يكون سكَبَ في القالب الممتلئ معنى لا يستقِرُّ فيه, وإنَّما يفيضُ عنه بل ينفَضُّ منه هو يقرؤها في ضوء الأمور الآتية التي يتخذ منها إجراءات في الفهم والتدليل، والنقد والتحليل، بما يوضح صورة النقد في إطار الأدب، كتوضيح الأدب لثقافة الأمة وتجسيد خصائصها "الأدب يجسد عند كلِّ أمَّة خصائصها الثَّقافيَّة في كُلِّ زمان؛ إن لم نقل إنَّه يُجَسِّدُ شؤونها كُلَّها في الحياة والفكر والفن. ولعلَّ هذا كلَّه يُهيئ للأمَّة تأسيس ملامح صياغة نظريَّة نقديَّة عربيَّة أصيلَة قابلَة للممارسَة العملِيَّة في تلقِّي النَّص الإبداعي وفهمه وتحليله وتفسيره, على اعتبار أنَّ النَّقد معرفة؛ له طبيعة خاصَّة في الأدب تتجِهُ إلى فنِّ القول؛ بينَما تَتَّجِهُ في اللُّغَة إلى القول الفَنِّي على حدِّ قول الدُّكتور عبد السَّلام المَسَدِّي"([196]).

إنَّ مقومات النَّقد الأدبي التي عادَةً ما تكون في بدايات تشَكُّلِه؛ ومن الأدوات الإجرائية النقدية في قراءته وتمثُّله؛ ما يلي:

أولا – النَّحو والصَّرف:

وهما الأمران اللذان عول عليهما الجرجاني بل بنى عليهما نظية النظم الفريدة، فإنَّ انتقاد الأخطاء النحويَة واللغويَة وتقويمِها لهي من الإرهاصات التي تقدِّم الخطوات الأولى في طريق النقد واللَّبنات القبلِيَّة في صرحه الشَّاهق, كونُها تُمَثِّلُ جزءا من الأجزاء المهِمَّة في العمل النقدي برمَّته, توصُّلا إلى شموله وكُلِيَّته.

ثانيا - البلاغة والبيان:

وذلك لأجل مراعاة خلو النص من فهاهة التصوير وركاكة التعبير، والنظر إلى مواطن التجديد في البيانن والتي تظهر في:

أ) - اصطناع تشبيهات غير مسبقة مثلا من عدمها حيي يكون النظر إلى كون النص اجتهاديا مجددا أو تقليديا مرددا، فإذا كان نصا مترددا فهي الركاكة حينئذ.

196- أ. د حسين جمعة "المسبار في النَّقد الأدبي: دراسة في نقد النَّقد للأدب القديم وللتَّناص", منشورات اتحاد الكتاب العرب, دمشق, سورية, 2003م, ص 18 .

ب) – وفرة الصور الجمالية والفنية ورسم اللوحات والمشاهد كما عمل الأستاذ نفسه في ديوانه لوحات شعرية وقد شرحنا ذلك فيما مضى.

ثالثا- التنافر بين النص والسياق:

وذلك بوضع معنى يخالف ما ينبغي في مثل ذلك الحال، بحيث لا يتجانس الكلام مع المقام، كمن قول زكي مبارك

فصبرا ايها القلب ** على ما يفعل الحب.

ثم اضطرته القافية على ان يقول، وكل معشق خب، فانتقده الأستاذ كنون من هذه الحيثية، موميا إلى أن القصيدة في الغزل وهذا البيت في الهجاء، فأنى يلتقيان.

رابعا - السطحية والمباشرة:

وذلك كأمثال من قيل فيهم إن شعرهم نثر موزن كما نسب الرافعي ذلك إلى حافظ إبراهيم وأنه خلاصة عمله في شعره الاجتماعي.

وكثيرا ما تتجسد في الشعر للاسيما في تلك القصائد المقتربة من ميزة المنظومات العلمية، والتي تكاد تكون أشبه بها.

خامسا - سوء الفكرة واضطرابها:

وهو خطأ الاستعمال بأن يستعمل اللفظة في غير مكانها، وهو كخطأ المعاني وعدم صوابها، مثلما يقع فيه بعض الكتاب لا سيما في الترجمة، حين يجعل الواحد منهم حافرا للجمل، والحال ان للجمل خُفًّا لا حافرا.

سادسا - الغموض الفادح:

وهو الذي يعنى العي والحصر، وضبابية التصور، وضعف اللغة، ولكي نوضح ظاهرة الغموض نذكر ما قاله الأستاذ الصحفي سعد بو عقبة عن بعض النُّصوص الكتابِيَّة مناقشا أحد الزُّملاء، مبيِّنا أنَّ الكثيرين من المتطفلين على الأقلام " يكتبون نصوصا تصلُح لأن

تكون النُّصوص الأدَبيَّة لتلاميذ الإبتدائي تحمِلُ ألفاظا وتعابير جميلَة ولكنَّها لا تحمِلُ معاني عمَلِيَّة. كلامُك جميل لكنُّه لا يحمِلُ أكثَر من متعَة التَّعابير بالألفاظ عن معاني أنتَ خَجِلٌ مِن قولها و "من يخافُ ويخجَلُ [لن] يكونَ حُرًّا [أَبَدا]" [كما يقول هوارس], .. هناك كتابات شمَلَها التَّعميم إلى حدِّ التَّعويم فهيَ لا تختلِفُ عن كتابات الشُّعراء الأسرى في دهاليز الغموض الجمالي إلى العتَمَة, كقول بعضِهم: رضعتُ المجدَ مِن بزُّولَة القمر!, وقول آخر: استقَرَّت له في بؤرَة الوعي!, وقول ثالثَةٍ: أوزِّعُ فيكُم الثَّديَ وأقطِفُ البنان؟!. الهروب بالشِّعر إلى الغموض جُزءٌ من قِلَّةِ الصَّنعَة والجُبن الفكري والفَنِّي, لكنَّ الهروبَ إلى الغموض بالصَّحافَة معناه اللا معنى واللا صحافَة ... مع تحِيَّاتي" ([197]).

فبهذا المثال المعروض نريد أن نوضِّح أنَّ الأستاذ كان ينتقد أمثال هذا الغموض الذي صوَّرناه في كلام الأستاذ سعد و عقبة الجزائري, بالرُّغم من أنَّه صحافي بيدَ أنَّه أدرك بحسِّه تفاهتة الغموض العقيم الذي يؤدي إلى الظلام أو يحبسُك في نفق, وربَّما جاء بالتَّعبير ناءا عقيما سبهللا كيفما اتَّفق. ولئن دلَّ كلام بو عغقبة على شيء فإنَّما يدُلُّ لى أنَّ الصَّحافة لا تعارض التفوُّق النَّقدي الأدبي, فهذا الأستاذ كنون كان صحافيا وكان ناقدا بارعا وأديبا ممتازا, فما بالُ بوعقبة ألاَّ يدرك من ذلك شذارات, وألاَّ تظهر له منه إشارات, وإنَّما استدللت به جريا على طريقة الأستاذ كنُّون في تجزُّء الاجتهاد وأنَّ من لم يكن ناقدا يُمكنه أن يظفر برؤيةٍ نقدِيَةٍ موقَّتة, ويأخذ من حقل النَّقد بارقة,دون تخوُّفٍ من ردِّ قوله لعدمتخصصه إذ الدَّعاوى المعرفيَّة والمزاعم العلميَة تثبُت حقيقتها بالبرهان وتتجلَّى بالبيان, ولو كانت من صغير , أو ممن ليس له في ذلك التَّخصص شأن خطير, ما دام قوله مبنيا على أسس صحيحة, إذ تلك هيَ الأصول التي يعتمدها المتخصصون في استخراج أحكامهم, وإنتاج آرائهم.

سابعا. خطأ اللفظ:

كالتعبير بمفردة شطح في حين هي شحط وتعني الابتعاد عن الشيء، وهذا وجه انتقادي على

[197] سعد بوعقبَة "صناعة الخوف"عمود في جريدة الخبر تحت عنوان دائم "نقطة نظام" بتاريخ: 11 رمضان 1435هـ/9 جويليَة 2014, العدد: 7488, ص: 24.

لفظةٍ قد غلط فيه عامة الكتاب، وكدلك لفظ الزعتر الذي نشره محمود درويش في الخافقين باستعماله كثيرا، وإنَّما هو السعتر بالسين لا بالزاي كما يشيع.

ثامنا ـ النظر إلى تلاؤم النص مع الغرض:

وهو كتلاؤم المعنى مع الموضوع، بحيث إذا أخل الشاعر مثلا بهذه الحيثية، قام النقد بوضع يده على مكان الاختلال.

تاسعا ـ دخول المنطق الجاف في حقل الشعر أو الرواية:

وقد مضى أن الاستاذ كنونا مزج الرؤية النقدية في النظر إلى النصنوص الواقعية والرومنسية، فإجراؤه النقدي هاهنا يستوحي من رؤيته، فيشترط ألا يستبد الجفاف بالقصة حتى يقتل روحها الفنيَّة.

أمَّا في فن المقال فإنه لا تخرج المقالة فلسفية من رحاب الأدب والجمال إلاَّ إذا كتبت بمنطق خالٍ من الصبغة الأدبية، فمن هذه الحيثية فقط يكون انتقادُها.

وأمَّا في الشعر فقد استثنى الأستاذ من عمل المنطق والعقل فيه ما كان على منوال شعر العقاد المتسم بالسمة العقلية والأخذ بنزعة المنطق المحلق بأجنحة الخيال الأدبي الرقراق.

لقد كان الأستاذ كنون عقاد المغرب, فهو يشترك معه في الاهتمام الأدبي والتركيز على قضايا الدين والفكر, فكلاهما أديب شاعر ومفكر, لكنَّ زميله يربو عليه من الناحيَّة التَّخصصيَّة في علوم الشريعة فكنون مفتيا صار من أعلام المغرب في الدَّعوة والإرشاد , وكنون قاضيا غدا من أهل الحلِّ والعقد في ربوع المنطقة, بالإضافة إلى تضلُّعه العميق في الدِّراسات التَّاريخِيَّة العربيَّة بوجه عام والمغربيَّة بوجه خاص.

إنَّ الرَّجُلان من القامات العاليَّة في الوطن العربي,وهما يمتازان بكونهما ما دخلا مدرسَة ولا تخرَّجا من جامعة على وفرة المعاهد والكيات في القطرين المشرق والمغرب, ومع ذلك بلغا في العلم والأدب مبلغا لم يصله الكثير من حملة الشهادات والإجازات والمؤهِّلات العليا.

من هذا التشابه المومى إليه تدرك محبَّة كنون لكثير من شعر العقاد, فلقد "تأثر عبد الله كنون بالأدب العربي وخاصة شعر شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وأمثالهم.. واستهواه شعر العقاد الذي يتسم ببعده العقلي، هو منحى قليل في شعرنا العربي" ([198]).

بيدَ أنَّ هذا الإعجاب بشاعريَّة العقاد كان من جهة ضآلَة هذا المنحى في شعرنا العربي بوجه عام, فهو لا ينافي أنَّ الشعر العقلي غالبا ما يكون فيه جفاف وقلَّة ماء, لأنَّ الشعر كما يراه كنون هو حديث الروح لا حديث العقل , وحديث النفوس إلى النُّفوس, وشدو البلابل و سجع الحمام على الأفنان الباسقَة, يقول في إحدى مقطوعاته الشِّعريَّة في سياق الجواب لمن جعلوه الشَّاعر الأكتب بتواضع جمٍّ, من بحر [المتقارب]:

وسميت بالشـاعـر الأكـتـب *** ومـا أنــا بالشاعـر الأكتب.

إلي قوله :

ومن الشعر إلا حديث النفوس *** وشجع الحمام على القصب ([199]).

عاشرا ـ إعطاء كل نص طبيعته:

وذلك بمحاكمته على ضوء تلك الطبيعة لا على ضوء طبيعة سواها، فهو حين يحاكم شعر الزهد والحكمة لا يقرنة بمحاكمة شعر الوصف الغزل, ولا ينصب منصَّة القضاء النقدي ليفصل بين أبي العتاهية والمتنبي، بل يجعل المتنبي في موازنة عادلة مع أقرانه كالبحتري وأبي تمام، لا مع أمثال الزهديين والوُعَّاظ.

إحدى عشر ـ تحكيم السياق والنسق في تحليل النص:

وذلك بالنظر إلى المقام الذي قيل فيه لإدراك معانيه واستجلاء مراميه وإيحاءاته، لأنَّ النصوص "ليست بنية لغوية جمالية فحسب، فهي ليست معزولة عن الغرض والوسط والمحيط ... هي بنية ذات دلالة زمنية ونفسية ومكانية واجتماعية" ([200])، وهذه هي القراءة النصية التي لا تكتفي بالقراءة المعجمية بل تضعها في سياق المعاني الجارية في النسق

[198] ـعبد السلام سومع تمسمان مقال بعنوان: الذكرى المائوية لميلاد مؤلف «النبوغ المغربي» العلامة عبد الله كنون" نشر في جريدة العلم : 01-01-2010م.

[199]ـ المرجع نفسه.

[200]ـ أ. د. حسين علي جمعة "المسبار في النقد الأدبي" منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003م، ص26 .

النصي للشعر، وإلاَّ فالذين يريدون أن يفهموا اللغة وهي ليست متاحة لكونها منزاحة، وأن يهضموها كما يهضمون تفاحة؛ إنَّما يبدلون وجهها الصبيح بكلاحة، و"يقتلون اللغة في تابوتٍ من اللغة" كما يقول محمود شاكر.

إثنا عشر - إلغاء اعتبار النص بقائله:

وذلك بالتعويل في التحليل على القول لا إلى القائل، وعدم الزراية بالنص الشعري خاصة؛ لمجرد أنه جاء من فقيه، كما بيَّنا ذلك فيما مضى، لدرجة أن الأستاذ كنونا كتب في ذلك مؤلَّفا كاملا، وكتابا حافلا، هو "أدب الفقهاء".

ثلاثة عشر - الاعتبار بثقافة النص:

النظر إلى مقدار الثقافة في النص المقروء، وما فيه من إشارات إلى أحداث تاريخية، ودقائق علمية، وأمثال وجبال وأشكال طبيعية، وعناصر تراثية واجتماعية وحياتية، وإلى أيِّ مدى هو مشحون بالأمور الموحية بثقافته.

أربعة عشر - الاعتبار كثافةٌ الرمز ووقوعه في موقعه:

وذلك أن يكون النص غنيا بالإشارات متكدسا بالإيحاءات والرموز الدالة على الخصب الفكري ورقة الشعور والتهاب الخاطر مع المحافظة على العناصر الشعرية وهي أربعة:

1 – العاطفة. 2 – الرؤية. 3 – الإيقاع. 4 - الخيال.

خمسة عشر - التعويل على نسبة التَّأثير:

فصاحب النص الشعري أو الروائي أو سواهما إذا لم يهز القارئ ولم يحرك مشاعر الناقد فأيٌّ شيء هو، إنه تجربةٌ شعورية ضعيفة، وقديما قيل "من لم يهز المشاعر فليس بشاعر"، ولسيد قطب كل الصدق حينما قال: "من خصائص الأدب الحي أن يمنحنا القدرة على الانفعال به" ([201]).

[201]- سيد قطب "النقد الأدبي أصوله ومناهجه" دار الشروق، القاهرة، مدينة نصر، مصر، ط 8، 1424هـ/2003م، ص 32

ستة عشر - القافية وعيوبها والوزن وانكساراته:

فقد كان الأستاذ يؤاخذ من يقع في عيوب القوافي لكون ذلك نقصا فادحا ودليلا على قلة الشاعرية، وربما دل على قلة رصيد الشاعر من ألفاظ اللغة، حين لا يجد لاكمال البيت إلاَّ لفظة تخل بالقافية فيضطر غليها، بينما هناك ما يقوم مقامها بأحسن معنى وبلا عيب ولا ورطة، وكذلك انكسار البيت واختلال وزنه، فهل وجدت العروض لإهدارها , وقيام الشاعر بكسرها.

سبعة عشر - الموسيقى الدَّاخلية وإيقاعات الكلام:

لقد ذكرنا هاهنا هذا الإجراء وأنَّ الأستاذ وضعه بمنزلة شريفةٍ من حسبانه لدى قراءته النقدية للشعر؛ وجعلناه بإزاء ذكرنا للوزن والقافية؛ حتَّى نبيِّن للقارئ أن هذه الموسيقى داخلية وهي غير موسيقى الوزن الخارجية؛ بل هي ألوان نغمات المعاني، والتي سمَّاها عبد القاهر الجرجاني "إيقاع الكلام", فهذه الميزة إن قَلَّت يَقلُّ شرف القصيد بسببها، أو يرتفع إذا ارتفعت، فإذا ما كان طافحا بها وهي تتدفَّقُ منه تدفقا فتلك قدسية الشعر حينئذ.

يقول الجرجاني عند تحليله لقول ابن المعتز:

وَإِنّي عَلَى إِشْفَاقِ عيْنِي مِنَ العِدَا ** لتَجْمَـحُ مِنّـي نَظْـرَةٌ ثُمَّ أَطْـرِفُ.

وقول سبيع بن الحطيم :

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعابُ الحَيِّ حِينَ دَعَا ** أنْصـــارَهُ بِـوُجُـــوهٍ كالدَّنَـانِيـرِ.

:"فأبان أن ما تراه من الطلاوة والظرف والحسن والحلاوة والأريحية والنشوة إنما يأتيك من مواقع الألفاظ واختيارها واختيار هيأتها وما الطلاوة والحلاوة إلاَّ من حسن إيقاع الكلام"([202]).

إنَّ الأستاذ كنونا لم يكن ليذهل عن الجانب الإيقاعي في القصيد وقد اهتَمَّ به من قديم زعيم المنظِّرين لعلم البلاغة العلاَّمة الجرجاني ([203]), بيدَ أنَّه لم يكن ليُعطيَها الجانب الأكبر في التَّقويم النَّقدي كما يذهب إلى ذلك كثير من أهل زماننا, أو يمنحها قدرا كبيرا من الاهتمام

202- عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ت:محمود شاكر, ط ص 99.

203 - وقد بين العلامة محمود شاكر أن الجرجاني وضع نظريته لجميع الأمم وكافة الألسنة وليس للعرب فقط، فتأمَّل.

الذي أصبح ظاهرةً عصريَّة في عالم النَّقد, لاسيما ما كان منه مقتصرا على الحَيِّز النَّظري الذي وقع فيه اليوم إسراف, دون حَيِّزه التطبيقي الذي أصابه المعاصرون بالإجحاف, وهو القائم على توظيف المعلومات والفوائد, وهذا الشَّيء الأهَمُّ الذي يلزم منه الخروج من المُجَرَّد إلى المنظور المُشاهد, وهو الأمر الذي ينبغي أن يكون الأعم, لأنَّ الالتجاء إلى القضاء نقدًا؛ لتحضير الحكم اجتهادًا؛ هو الغاية المتوخَّاة عند النَّاقد الأديب, والفاهم الأريب, غايَةٌ لا يُوصَلُ إليها سوى بالانتقال من التَّنظير والمُبايَنة، إلى العَمل والمعايَنة, إذ هي تقومُ بإنجاز الحكم وفعلِه؛ بدل الاقتصار على قوله, والتوقف عند مجرد دراسَته باللِّسان, بل تأتي نازلةً بتلك الدِّراسَةِ إلى الميدان, وتَتَوَجَّهَ بها نحوَه مباشَرَةً ومُخابَرَةً ومِرَاسا.

ثمانية عشر ـ الاعتبار بمقدار التشخيص والخيال:

وذاك أن الخصب الفكري والتحليق الخيالي في سماء الشعر وحسن الوصف والتشخيص؛ يضمن ريادة للشاعر وتفوقا في قصيدته، وحتى على أقرانه ونظرائه، وبقدر ما يعلو في التحليق ويشتد، بقدر بما يفرح به الناقد ويعتد، وإلاَّ كان النقص على قدر الهبوط، وربما جاء القص لجناحيه فإذا به في وهذة السقوط؛ * مُلَطَّخ الوجهِ من ماء و من طين * !

تسعة عشر ـ الاعتبار بالمبدأ الوظيفي للنص:

فالنص عندما يقرأُ نقديا يمكن النظر إليه وظيفيا بإجراء أسئلةٍ مفادها:

هل حقق النص وظيفته، هل وصل لمبتغاه، هل بلغ هدفه، هل وظيفته الإبلاغ فتحققت، أو التهديد فتوثقت، أو غيرها من الظائف التي تفتَّقت واستعلنت من خلالها مضامين نصوص الباث لإيجاد صداها في المتلقي، وهذا من النقد الداخلي للنص والذي يقترب من منهج التحليل الجمالي وما ينتهي إليه من مفاهيم دلالية ([204]).

عشرون ـ مقدار الاحتيال على المعاني:

فإن الكاتب إدا لم يقدر على اصطناع قدر كاف يتميز به من هذا الاحيال وقع في حبالة النقد

204ـ ينظر؛ أ. د. حسين علي جمعة "المسبار في النقد الأدبي"، ص38

لا محالة ولا تدري بعد ذلك أي نوع من الخطإ يقع فيه، بيد أنه سيكون فادحا بلا ريب.

واحد وعشرون - انطباعية النص بطابع العصر:

لقد ظل الأستاذ كنون يفكر، كيفَ يُدخِل اللُّغة العربيَّة في مشاغل العصر ؟, تلك هي المسألة الأساسيَّة التي ظَلَّت تراودُه, وتساورُ خاطره, وتجولُ في مشاعره، من هنا كانت عملا إجراءيا محمودا يكسي الشاعر الذي يطبع نصه بطابع عصره نوعا من الكمال، لا سيما إذا استوحى من بيئته ومدينته الحضارية أنواع التشبيه وضروب الخيال، ونفض عن قلمه غبار الإبل والصحراء والرمال!

وبعدُ؛ فهذا برمته ما يشكل الأدوات المفتاحية، والقراءة الانفتاحية لدى الأستاذ كنون في نقد النصوص وتحليلها، والتي أرسى بنيانها فيما تفرق من كتبه مؤلفاته الغزيرة، تلك الرامية إلى إحياء اللغة العربية جهد قوَّتها، متمثلة قول الرافعي:

"إنَّ الأمة لا تحيى إذا ماتت لغتها , ولن تموت لغة أمَّة حيَّة".

ولنا أن نقول هاهنا كلمات عن شروح المنظومات والدواوين لكونها نصوصا يجرى تحليلها من جهة، ولأنَّها تلتقي بسبيل ما نحن فيه من الحديث عن الإجراءات النقدية، موضحين أثرها على النقد.

فإنَّ النقد لمَّا كانت بداياته تقوم على اللُّغة لكونها الباب الأوَّل للمرور على المعاني والتوغل في ميدان البلاغة وساحة الاطِّلاع على أسرار البيان العربي فإنَّ النَّقد اللُّغوي استقام مبكِّرا بسبب براعة الأوائل في علوم اللُّغة واقترابهم من معينها الصَّافي ومشربها الأوَّل, فظهرت لذلك شروح غريب القرآن وبإزائها شروحات الغريب والوحشي من الشِّعر الجاهلي, وتساوقت الشروح مشكِّلَةً لنا معاجم كثُرت وتتابعت وأخذ لاحقُها من سابقها, فكان الاشتراك العلمي, والاستدراك المعرفي, وكان بذلك النَّقد اللَّفظي الذي اتَّسعت دائرَته إلى النَّقد المعنوي والتعقيب على الجمل والأبيات والقصائد والنُّصوص.

إنَّ خدمَة العربيَّة لا تستوي على سوقِها بغير النَّقد، شأنها في ذلك شأن سائر اللُّغات والثَّقافات والفنون, كما أنَّ النَّقد لا يستوي ويعتلي بغير أمرين:

الأوَّل: التفنن في العلم والمعرفة, وتوفر العديد من الآليات العلميَّة في ثقافَة النَّاقد نظريًّا.

الثَّاني: التَّعَمُّق في التَّحليل, ومزاولة النَّشاط النَّقدي في الزَّمن الطَّويل, واستصحاب الدِّقَة في النَّظر عمَلِيًّا.

من هنا كان النُّقاد في الأمَّة أقَلَّ بالقياس إلى الأدباء والشعراء, وكان التَّصَدُّرُ للنَّقد بوصفه فنًّا يحتاجُ إلى إجراءٍ عمليٍّ علمِيٍّ يعرفُ كيفَ يُعامِلُ اللُّغَة فيغوصُ على أسرارها ويقتفي دلالاتها ويستخرِجُ مراميها.

لاسيما "وللعربية أسرار لا يعرفها كل الكتَّاب ولا يطَّلعُ عليها كلُّ ناظم و ناثر .ولذلك لا يصحُّ مع العربيَّة ذلك القول الذي يردِّدُه البعض من أنَّ اللغة "وسيلة" تعبير فقط" ([205]) .

وهذا ما فنَّده حتَّى الفيلسوف اللغوي مشيل فوكو, حينَ بيَّن أنَّ " اللغة تُمَثِّل الفكر, كما تتمَثَّل الفكر نفسَه ... إنَّها ليست أَثَرا خارجِيًّا وإنَّما هِيَ نفسُه" ([206]).

ولقد ظلَّ الأستاذ كنون دهره ينقض دعوى أن اللغة مجرد وسيلة، وينفي هذا الزَّعم الإيديولوجي السَّطحي, الذي جعلَه الفروكوفيليين والمستشرقين – بعد اختراعهم إيَّاه- أداةً لتحطيم الهويَّة الإسلامِيَّة وتغريب المجتمع العربي المغربي لصالح التَّفرنُس "تحتَ شعار (اللُّغة وسيلَة) " ([207]).

إنَّ "ما فعلَه فينا ملوك الفرنسيس وسوقَتُهُم فوقَ ما فعَلَهُ كُلُّ الآخرين, ذلك أنَّ بطشَهُم تجاوَزَ الأجسامَ إلى العقول !!, وقد ينسى المرءُ ما لحِقَه من الأذى المادِّي, بعد فترة, ولا ينسى الأذى

---

[205]- ينظر أبو القاسم سعد الله " أفكار جامحة" , طبعة دار عالم المعرفة سنة 2011 م , (ص 192) .

[206] - مشيل فوكو "الكلمات والأشياء", ترجمة:مصاع صفدي,د.سالميفوت, آخرين, نشر مركز الإنماء القومي, سنة 1990م, ص86 .

[207] - "الحل في تعدد اللَّهجات ووحدَة اللُّغَة المكتوبَة" أحمد بن نعمان, مقالة ؛ جريدة الشروق, العدد:4380, الأحد18 رجب 1435هـ- 2014/05/18م, ص 11.

المعنوي, أبدا, ما بقيَ على قيد الحياة !, وقد يحمِلُ أصداءً منه إلى أُخراه !! " ([208]).

قلت: وكذلك البحور الشعريَّة ليست مجرد قوالب لإدارة القول على ميزانٍ نَغَمِي معيَّنٍ فقط, بل هي ذات أسرار وأغوار لا يدرك كنهها إلا من تضلَّع بها , فليست مجرَّد أداة يأتي عليها الدهر فينالُها الصدأ فتعود غير صالحة للاستعمال , لأنَّها هي نفسُها من أسرار العربيَّة ذاتها, تلك التي كان الشعر الأصيل من أسباب حفظها في الأمة وبقاء شبابها في قلب الحياة .

إنَّ الإضافة إلى البحور الشعرية المعروفة و التجديد المثمر فيها هو معينُ لطافة وتزيين , وزيادة تطوير وتلوين, أمَّا الحذف فهو خطف و إخافة , وجَرْفٌ ونحافَةٌ وتخريب , لا يرتضيه أبدا أديب ولا أريب ولا لبيب, إلا من ناله التدجين فلم يعد بأمين ولا بأهلٍ للغيرة على لغته التي هي شخصيته ولسانه , وهويته وكيانه.

وصدق محمود شاكر إذ قال:

"وإنَّ امرأً يقتُلُ لُغَتَهُ و بيانَها, وآخَر يَقْتُلُ نَفْسَهُ لَمَثَلان, والثَّاني أعْقَلُ الرَّجُلَين!" ([209]).

[208] - "مَن هم الذين يدوسون الشهداء, ويبيعونهم لجلاديهم بلا ثمن؟!" د- علي بن محمد مقالة ؛ جريدة الشروق, العدد:4380, الإثنين 22 صفر 1433هـ- 2012/01/16م, ص 21.

تنبيه:

الدكتور المتميِّز السيد علي بن محمد, هو وزير التربية والتعليم الأسبق في وقت الرئيس الشاذلي بن جديد، وهو الذي طاردوه ووضعوا في طريقه المعوقات وحرقوا بيته لأنه وضع برنامجا للدراسة يخدم اللغة العربية ويهون من سيطرة الفرنسية لغة وفكرا على ابناء الشعب الجزائري، فكان مصيره الإبعاد والاضطرار إلى الاستقالة في أوائل التسعينات من القرن العشرين؛ بقوة الأيادي الخفية التي تعمل لصالح فرنسا في الجزائر، والمتمركزة في شتى المجالات والميادين في بلادنا الحبيبة المسكينة المغتالة!

[209] ـ محمود شاكر , من مقدِّمته لكتاب "الظَّاهرة القرآنيَّة" لمالك بن نبي , طبع دار الفكر بيروت , لبنان, الطَّبعة الخامسة سنة 1420 هـ ـــ 2000 م, ص 50 .

الفصل الثالث : المنـهج النَّقدي لدى عبد الله كنُّون .

المبحث الأول: معايير النقد وسمات المنـهج النقدي عند كنون.

المبحث الثاني: المنـاهج النقدية والمنـهج الكنونـي.

المبحث الثالث: منـهجه الروائي, وأسلوبه في الروايـة.

المبحث الأول: معايير النقد وسمات المنهج لدى كنون.

من المعلوم أنَّ المنهج يتكوَّن من رؤى وآليات تشكِّلُ ماهيته, وتتحكَّمُ في مساره, من الموضوعِيَّة إلى الدِقَّة العلمِيَة,إلى ما بينهما من إجراءات تحدد الوجهة في النَّظر والزاوية في الرؤيَة والطَّريقَة في التفكير.

إنَّ "المنهج طريقة في التفكير العلمي ، يستند إلى مجموعة من آليات التحليل والكشف ، ويلجأ إلى صيغ معرفية اصطلاحية تؤسس لمسيرته" ([210]).

في حينَ أنَّ النَّظريَة بالقياس إلى المذهب كالمذهب بالقياس إلى مجرَّد الاتجاه, والاتجاه بالقياس إلى الفكرة والفكرتين.

ومعلومٌ أنَّ المذاهب الشَّاملَة تُمثِّلُ النَّظريات, لأنَّها واحةٌ رحبَة, ومساحَةٌ خصبَة, تكبُرُ وتتَّسعُ حتَّى لا تتعلَّق بالأدب وحده بل تلقي بظلالها على المنظور العقلي بصفة عامَّة, فتشملُ التَّاريخ والعلوم المادِيَّة والأدبيَّة على السَّواء, إذ هي مذهبٌ للعلم والفن معا, وفلسفَةٌ نظريَّة تضمُ تحت لوائها سُبُلَ الفهم والنَّظر لأنواع العلوم وأشكال الفنون, فهذه البنويَّة كان لظهورها مذهبا فلسفيًا شاملا؛ صدى هائلا أدَّى إلى " استبدال التَّاريخ التَّقليدي (المُسَمَّى التَّاريخ الحدثي) بنوعٍ جديد يُدعى بالتَّاريخ المفهومي, تكونُ مهِمَّتُه إعادة النَّظر ببنيَة ودلالَة الحدث من خلال إقامَةِ علاقَةٍ جديدَة بينَه وبينَ المؤرِّخ" ([211]).

وليس المقصود تصويب البنويَّة أو وضعها في ميزان النَّقد, وإنَّما قصدُنا توضيح شمول المذهب في رؤيته المعيارِيَّة للأفكار وللأشياء وَفقَ منهجِيَّةٍ محدَّدَة وآليات معيَّنة وطرائق مخصوصَة, سواء انتمت أيُّ فكرَةٍ من الأفكار إلى هذا العلم أو ذاك , وتعلَّق الشَيء بهذا الفن أو بالفنِّ الآخر, تلك هي رؤيَة النَّاقد للحياة؛ بما فيها من محسوسات ومعنويَّات, ومواضيع وذوات.

---

[210] - د.محمد سالم سعد الله "النقد الثقافي أزمة منهج أو محنة عمل" مقالة منشورة في موقعه.

[211] - نجلة محمد مجيد "في فلسفة التَّاريخ النَّقديَّة للدكتور جميل موسى النَّجَّار – عرض واختصار", مجلَّة المورد, تصدر عن دار الشؤون الثَّقافيَة العامَّة, الأعظمِيَّة, العراق, سنة 1425هـ/ 2004م, العدد 2, ص 128.

مـن هنـا فـإنَّ "النظريـة تتكامـل بتـوفر شـروط ثلاثـة : (صـياغة افتراضـات ، وصـناعة مفاهيم، وإنشاء مصطلحات)" ([212]).

إنَّ الأستاذ من المؤمنين بأنَّ التكامل في الآراء يجبُ أن يكون, وهو بذلك يؤسس ركنا في عمليَة النَّقد المتحضِّرَة التي لا تقتصر على الجهد الفردي, والنّظرة الأحادِيَة, والأفق الضَيِّق، وإنَّما تكتسي طابع الرحابة والنجابة وبعد النظر، مما يحقق لنا اكتشاف سمات المنهج النقدي من بعيد قبل أن نفترب فنعاين وجه النقد أمام البصر، وكننا قبل ذلك نتبَيَّن معاييره النقدية، لنتعرَّف عليه؛ قبل أن نذهب إليه.

ونحن إذ نتناول ذلك في ضوء أفكاره واستقلاليَّة الرؤية لديه معتنين بتوضيح موقفه من حريَّة الفكر, وحيادِيَّته في طرح القضايا والمسائل والآراء، ومعاييره في النقد ، إنَّما نحاول من خلال ذلك أن نعلي صرح الأدب المغربي الشامخ.

معايير العَمَليَّة النقدية لدى كنُّون:

تميزت شرائط عمله النقدي فيا يأتي:

أوَّلا - الإنصاف العلمي وعدم المحاباة:

إنَّ الإنصاف هو روح النقد التي يتخلق بها الأديب قبل أن يحط سوادا في بياض، بل قبل أن يقرا ناويا النقد والانتقاد، سواء كان المنقود صاحبا أو مغالبا، تلك هي العين النقدية التي يمكن أن نسمِّيها عين الإنصاف، ومحلُّها أن تقع متوسطةً بين عين الرضى وعين السخط اللتان ذكرهما الشاعر بقوله:

وعين الرضى عن كل عيبٍ كليلة ** ولكنَّ عين السخط تبدي المساويا.

فالعيون المنصفة لا تميل إلى هذه الراضية ولا تلك الساقطة، إنما هي عادلة ومن شأنها أن تكون العادلة أن تكون مقسطة، وبالنزاهة مرتبطة.

وفي هذا الصدد، لطالما سألَ الكثيرون الأستاذ كنونا أن يقدِّم لكتبهم, ويُدَبِّجَ بيراعته المتميِّزَة

---

[212] - د.محمد سالم سعد الله "النقد الثقافي أزمة منهج أو محنة عمل" مقالة منشورة في موقعه.

تقريظا لمصنَّفاتهم, فمن ذلكَ أنَّه كتبَ مقدِّمَةً نافعة لكتاب الأستاذ المنوني الموسوم بـ "حضارة الموحدين" فكان من تحصُّن الأستاذ وتنزهه عن المجاملَة في مسائل العلم أن أبدى اعتراضَه على ما ارتآه مخالفا للصَّواب في الكتاب المقَدَّم له, فإذا هو قائل:

"إننا لا نخفي عدم قبولنا لبعض الآراء التي ذهب إليها في بعض المسائل ... "([213]).

ثمَّ ذكرها منها ما ذكر.

إنَّ القراءة لهذا الأستاذ العَلَم, في مختلف ما كتبه وأسالته دواته من سنِّ القلم؛ تفيد المطالع –ولو قرأ له شيئا لا يمُتُّ إلى الأدب بصلَة- تكوينا تطبيقيًّا علميًّا جادًّا في فنِّ النَّقد الذي قوامه الحريَّة الفكريَّة, تلكَ المتجَسِّدَة في سائر ما أَلَّفَه الأستاذ وأنتجته قريحته, إذ إنَّ الفكر النقدي لا تتراءى مخايلُه, و تتبدَّى مناهِلُه؛ في فنٍّ واحد من الفنون, أو علمٍ من العلوم, وإنَّما هو عقليَّة سارية المفعول في كيان الناقد, سواء كتب في هذا الميدان أو ذاك, وعالج موضوعا علميًّا, أو تصدَّى لمناقشَة أدبيَّة, فهو من خلال ذلك كُلِّه يربي للقارئ ملكة الاجتهاد, حتَّى يرتقي أعلى المراتب في مملكَة النَّقد ([214]).

إنَّ من ميزة النَّقد كما يلتمس لمس اليد من كتابات كنُّون؛ أنَّه روحٌ تسري في جسمِ العلم والفَنِّ معا فتعمل عملها الإحيائيَّ الأساسِيَّ الكبير, بحيث لولاه لسقطَت أعمدَةُ العلم وسُقُفُ الفن.

من هنا أنشَأتُ أَقُول [البسيط]:

وليس يُغني عن التِّنقاد غانِيَةٌ ** من الوسائل في علمٍ ولا فَنِّ.

كمثل أعمدَةٍ قد أمسَكَت سُقُفا ** والحقُّ أنَّ الأساسَ يُمسِكُ اثنَينِ.

بيدَ أنَّ عمليَّة الإبداع سابقة على النَّقد غيريًّا, موازيَةٌ له ذاتيا, فبالقياس إلى المبدع ذاتِه فهو يفكِّرُ و يتحرَّى ويقدِّمُ فكرة على أخرى ويرقُمُ خاطرا في شعر أو في نثر ثمَّ يبَدِّلُه, أو يستوحي من خيالٍ ثُمَّ يعدِّلُه, فعمليَّة النقد في حقِّه موازية لعمليَّة الإبداع, أمَّا بالقياس إلى الغير من الناظرين في إنتاجه فالنقد آتٍ بعد معاينة الإنتاج, كالحفر بالقياس إلى الأساس, يكون سابقا عليه, ثُمَّ متقدِّما بين يديه.

بيد أنه قد يقول قائل؛ تلك الحفرةُ نفسُها هي من مكوِّنات الأساس!

---

[213] - محمد المنوني (العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين) دار المغرب الرباط 1977 ط 2, ص6.

[214] -وانظر "تربية ملَكَة الاجتهاد" محمد بولوز, مجموعة الصنوبر,الرباط, بدون, ص 24.

ولكن؛ لا علينا فإنَّه يستطاع القول بأنَّ البصيرة النَّاقدة لا يمكن أن يوظِّف غيرُها في عمليَّة اختيار الأرض الصَّلبة تجنُّبا للهشاشَة -كتجنُّب البليغ بناقديَّته للرَّكاكة-قبل وضع أَيِّ معولٍ على تراب, ليكون هذا دليلا على أسبقيَّة النَّقد على البناء العلمي والفنِّي معا, أو على الإبداع بوجهٍ عام, فضلا عن موازاته إيَّاه!!

ثانيا ـ استقلالية النظر:

إنَّ الجنوح إلى ما فيه دمغة الغرب أصبح ظاهرَة في ساحة الأدب اليوم, وبالمقابل أصبَح ما عليه دمعة الغرب ودموعهم اشتكاء منه, ونقدا له هو الأمر المرفوض لدى الكثيرين, وذلك لأجل أنَّ الغربيين انتقدوه وأبعدُوه فهو من المُبعَدِين, وأجلَبت جدَلِيَّة الإقبال والنُّفور تتضاعف في ركابها أعدادُ المنضَمِّين, فما فرَضه الأجنبي هو المفروض, وما رفضه هو المرفوض, لاسيما في ظلِّ العولمة الطَّاغية الضَّاربة بأطنابها في كُلِّ مكانٍ ومن وراءها دنيا الإعلام المسَخَّر بأدوات التَّوجيه, ولعمري إنَّ ذلك هو عينه الأدب الفكري الأسوَأُ الذي يقابل الأدب العملي السيِّء المستنكر عند جميع الخلائق, من تعظيم أهل المال والسُّلطان والوجاهة, واحتقار الفقراء والمساكين, باحتمال وجوه التَّأويل والمعذرة والعفو عن كُلِّ ما ارتكبته الطَّبقَةُ الرَّاقِيَة من باطل, في حين يفهَمُ من كلام الكادحين ما لم يقصدوه فيظلمون وينتهرون ويغدون في عالَمِ النَّقد الهَدَّام من المقبوحين الذين مكانهم الطَّبيعي تحتَ الأنقاض.

إنَّ ما حدَث في ساحَةِ السيَّاسَة والاجتماع من الطَّبقيَّة, صورَةٌ لما حدثَ ولا يزالُ في السَّاحَةِ الأدبيَّة من طَبقات!, بل ربَّما كان القدرُ بما هو أقبحُ وأشنَع.

حتَّى صار من لا تمييز له يفضِّل كلام الغرباء, على كلام القرباء, فقط لأجل أنَّ هذا اليوم متخلِّفٌ تكنولوجيًّا وإن كان من الأدباء الأفذاذ, وذاك متطورٌ بل يعيش في مجتمعٍ مدنِيٍّ راقٍ ليس له في تقدُّمه التِّكنولوجي إصبعا بله يَدا !

فكلُّ شيء ضِدَّ ما يأتي شرقيا اليوم ,فإن أتى غربيًّا فهو الحلو وإن كانَ مُرًّا, وطعمُ الإبداع المشرقي ليس حلوا وإن كانَ عسلا وشهدا, وعذبا زُلالا , ولكنَّه المرض, مرضُ الذَّوق الفنِّي الذي يتكلَّمون عنه, وعم خاوون منه, ولعلَّه في ساحتهم قد انقَرَض, وصدق الشَّاعر إذ قال:

قد تُنكرُ العينُ ضوءَ الشَّمسِ مِن رَمَدِ ** ويُنكِرُ الفَمُ طعمَ الماءِ مِن سَقَمِ.

وقديما قام العبَّاس بن الأحنَف بالتَّنكيت على من لا عقل له مِن حيوانٍ أعجَم مزريا بالطَّبقيَّة قائلا ([215]):

يمشي الفقيرُ وكُلُّ شيء ضِدُّه ** والنَّاسُ تُغلِــقُ دونَــهُ أبـوابَـها.

حتى الكلاب اذا رأت ذا ثروة ** خضعت لديه وحركت أذنابها!

وإذا رأتْ يومــا فقيــراً عابراً ** نَبَحــتْ عليه وكشَّرَتْ أنيابَها!!

إنَّ الأستاذ أنكر أشد الإنكار إخضاع الأدب العربي لمقاييس النقد الغربيَّة لمجرد أنهم متحضرون، فأدبنا غير أدبهم ولن يكونوا بحال حكاما عليه ونحن محكومون من طرفهم لديه، كأنَّما الأمر لا يعدوا استعمارا من نوع آخر ثقافةً ومعيارا، فأمَّا الاستفادة فإنَّه لا ينكرها عاقل, فضلا عن أديب فاضل, مهما كان نوعها ومن أيِّ صوبٍ أقبلت, لكنَّ انسلاخ المرء من جلده ليلبس جلود الغير هو القضاء على مهجة الأدب العربي في تميُّزه واستقلاليَّته, فهو ليس أدبا ذائبا في آداء الآخرين لاسيَّما في آليات نقده وأُسُسِها المستلهمة من روحه الخاصَّة, وفي هذا الصَّدد يقف الأستاذ كنُّون وقفةً عظيمَة قائمة, ليقول "إنَّنا لا نرى إخضاع أدبنا لمقاييس النَّقد الغربيَّة بإطلاق, ولا ربطه بمدارس الأدب الأروبي من رومانسيَّة وواقعيَّة وغيرها, فضلا عن تقسيمه إلى أقسامه كتقسيم الشعر إلى غنائي وقصصي وتمثيلي .. ذلك أنَّنا من أعدى أعادي التَّقليد في العقيدَة والمذهب, فأحرى في الأدب, فكيف نُسرفُ فيه هذا الإسراف, حتَّى نأخُذ أنفُسَنا بتأَثُّر خطى غيرنا فيما نَعُدُّه مرآةً لشُعورنا وتعبيرنا عن ذاتيَّتنا ؟" ([216]).

ولعلَّ صاحب الفهم المتبصِّر يكتفي بهذه الحُجَّة, وهذا الاستفهام الإنكاريِّ الوجيه, غير أنَّ الأستاذ أضاف موضِّحا بأنَّ "بعضَ هذه الأسماء أجنبِيٌّ عن لُغتنا كالرُّومانسيَّة, لم يستطع مقتبسوه أن يُترجموه .. وبعضُها وإن كان مترجما كالشعر الغنائي فإنَّه لا يُطابق مدلوله اللُّغويَّ عندنا إلاَّ ب تمَحُّلٍ وتكلُّف. ولسنا ننكر الاقتباس من آداب الأمم الأخرى وثقافتها فيما

[215] - شهاب الدين أحمد الأشبيهي (ت 852هـ) "المستطرف في كلِّ فَنٍّ مستظرَف" عالم الكتب، بيروت، ط 1، سنة: 1419هـ، ج 2/ 97 .

[216]- عبد الله كنون "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث", ص88.

تدعو إليه الحاجَة, ويُخصبُ تراثنا الفكري " ثُمَّ استدرك على نفسه في قضِيَّة تقسيم الشعر إلى قصصي وتمثيلي بعدَ أن أنكر إخضاع الشِّعر العربي إليهما انجرارا مع القلم, ضاربا المثال على الأخذ من ثقافة الأمم الأجنبيَّة فيما نحتاجه ويفيدُنا ويخصِبُ فكرنا بـ "الشِّعر القصصي والتَّمثيلي الذي كان أدبُنا خاليا منه" ([217]), مُقَيِّدا إنكاره بقوله: "ولكنَّنا نُنكِرُ الإسفاف الذي يبلُغُ إلى حدِّ اقتباس التَّقسيمات والاصطلاحات التي لا تنطبقُ على إنتاجنا الأدبي مطلقا, فالشعر الغنائي إذا كان له ما يبرِّرُه عند النُقَّاد الأروبيين حين أطلقوه على هذه الأغراض الشعرية التي ليست بقصص ولا تمثيل, من أنَّ الشَّاعر -كما يُقال- كان يأخُذُ قيثارته ويُغنِّي عليها أشعاره لممدوحه أو معشوقته, فإنَّ الشَّاعر العربي لم يكن يُغَنِّي أشعاره قط, وإنَّما كان يُنشِدُها في تعاظُم, واعتدادٍ بنفسه وهوقائمٌ أو راكِبٌ على ناقته كالخطيب أو كالقائد الذي يُحَمِّسُ جَيشَه. بل إنَّ من الشُّعراء من كان يشترطُ على ممدوحِه أن يُنشِدَهُ جالسا كالمتنبِّي. فليس عدمُ مطابقة المدلول اللُّغوي وحدَه هو الذي يمنع من اقتباس هذا الاصطلاح, بل واقع الحال أيضا"([218]).

لكنَّ الأستاذ تساوق مع كلامه فقال ما قال نافيا الشعر الغنائي, لكنَّه يستحيل أن يرى الشعر العربيَّ خاليا من الغنائيَّة, بل قد أثبت فيما مضى نقله من نصوص أنَّ الأندلسيين لم يمانعوا من دمج بحرين معا في قصيدة عندما أبدعوا الموشحات موافقا على ذلك معللا إيَّاه بأنَّه أليق وأحسن لأنَّه "أكثرُ انسجاما مع الطبيعة الغنائية للشعر" ([219])، فليس الغناء المقصود هو أخذ القيثارة والضرب عليها بالإنشاد, كلاَّ, إنَّها الموسيقى الدَّاخِلِيَّة التي يسبح فيها شعر العرب على اختلاف أغراضه, وتنوُّع أساليبه, تلك الطَّافحةُ بالرَّنين, ولطالما وجدنا النُقَّاد حتَّى الأستاذ من بينهم يقولون في تقييم القصائد ومدحها إنَّها رنَّانَةٌ هتَّانة, أو يقرؤون ذلك في كتب الأدب المختلفة ولا يعترضون, فاعتراض الأستاذ كانَ عند اتِّجاه فهمه إلى طريقة الأداء الشعري, ونعم وحقًّا؛ فالعربي لم يكن يُغَنِّي بقيثارةٍ ولا بمزمار, لكنَّ هذا لا يذهبُ بنا إلى نسيان أنَّ الحداء الذي هو نوعٌ من الغناء لاستحثاث خطى الإبل, وما كان يفعلُه المحابون من الإنشاد وقرع الطُبُول, فضلا عن التَّرنُّم بالقصائد وضرب الدُّفوف عليها

[217]- المرجع نفسه, ص89 .

[218]- المرجع نفسُه.

[219]- المرجع نفسه، ص 146 .

في الأعراس حتَّى في عصر النبُوَّة الزَّاهر حينما كانوا يمتثلون لقول النبي صلى الله عليه وسلَّم فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت في النكاح" ([220]), ومعلومٌ أنَّ طابع الغنائيَّة يتجَسَّدُ أكثر ما يتسجَّدُ في الرِّثاء لأنَّه بكاء تلو بكاء والشَّاعرة الخنساء في ذلك دليلٌ ظاهر, بل إنَّ العرب أطلقت الغناء على من يرثي, كما في حديث النِّسوةَ اللُّواتي أنشدن الشعر يُغَنِّين من مات من آبائهنَّ في الجاهِلِيَّة, فقد قال أبو الحسين خالد المدني "كنا بالمدينة يوم عاشوراء والجواري يضربن بالدف ويتغنين فدخلنا على الربيع بنت معوذ فذكرنا ذلك لها فقالت دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة عرسي وعندي جاريتان يتغنيتان وتندبان آبائي الذين قتلوا يوم بدر وتقولان فيما تقولان وفينا نبي يعلم ما في غد فقال أما هذا فلا تقولوه ما يعلم ما في غد إلا الله" ([221]), وعن عائشة قالت دخل علي أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار في يوم بعاث" ([222]), ثُمَّ هذا حديث الصَّحابِيِّ أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم مر ببعض المدينة فإذا هو بجوار يضربن بدفهن ويتغنين ويقلن:

نحن جَوار من بني النجار** يا حبذا محمد من جار.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الله إني لأحبكن" ([223]).

وعلى كل حال، فمن الخير أن نمضي بالقارئ نحو توضيح سمات المنهج النقدي عند الأستاذ كنون، وفيما يلي من كلمات، بيان تلك السمات.

[220]- ابن ماجة "سنن ابن ماجة", ت: محمد فؤاد عبد الباقي, دار الفكر, بدون, ج1/611 , وحسَّنه محمد ناصر الدين الألباني "إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل" نشر المكتب الإسلامي – بيروت, ط 2, 1405هـ - 1985م, حديث رقم:1994 .

[221]- محمد ناصر الدين الالباني "آداب الزفاف في السنة المطهرة" 93 - 94

[222]- محمد بن إسماعيل البخاري "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه المسَمَّى صحيح البخاري" ت: محمد زهير بن ناصر الناصر, دار طوق النجاة, ط 1, سنة: 1422هـ, روه في كتاب الجمعة, باب سنة العيدين لأهل الإسلام, قم: 951, ومسلم ابن الحجاج النيسابوري "الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم", تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي, دار إحياء التراث العربي – بيروت, بدون, رواه في كتاب صلاة العيدين, باب الرخصة في اللعب الذي لامعصية فيه في أيام العيد, برقم: 892 .

[223]- محمد ناصر الدين الألباني "دفاع عن الحديث النبوي والسيرة" ص 24

الأهلية العلمية والأدبية:

ويكفي لزومها الشديد أنَّ العلم أتلفه أنصاف العلماء، والأدب أتلفه أنصاف الأدباء، والشعر أتلفه أنصاف النحاة، وهؤلاء النصفيون في كل علم وفن وإبداع هُم الآفات، "وقد قال بعض الناس: أكثر ما يفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي، هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان" ([224]).

1) الثبات والمرونة:

إن الذي يبدو للمتتبع المطَّلع على الفكر الكنوني يلاحظ أنَّ منهجه ثابت لا يختل، ويمضي فلا يحيد ولا يَنْسَلّ، وهو مع ذلك مرن متكيف مع طبائع الامور وماهيات القضايا معالجةً وتفسيرا، ومعادلَةً واتزانا.

وهو عندما يشرع في تحليله ويبدع في تعليله إنما يتلون بلون المبدأ التحرري المسؤول، ويتبيَّن وجه المعقول، والنفع المأمول الدي يُنتظر منه، وينظرُ من خلاله إليه.

من هنا، فإننا نذكر أحدى الأوعية الفكرية التي تتجسد فيها سمة الثبات والرونة عند الأستاذ، وذلك في تمثيلنا بمدرسة الفن للفن، ومدرسة الفن مع الرِّسالة.

فالأديب الحقيقي؛ يحمل دوما رسالَةً للمتلقي, وليس هو مجرَّد متغنٍّ بأفكار سرعان ما يُبدِّلُها أو يُعدِّلُها فُضحي على غير ما كانت عليه, إنَّه يدور في إطار مرنٍّ متحَرِّك لكنَّه في الوقت نفسه لا يعدو مبادئه الكبرى في الحياة, ومراميه في نشر الفكر الواعي, والإنتاج الإبداعي.

لدى حيثُ يُعلي صرحَهُ كُلُّ ناشِرِ *** وكلُّ نصُوحٍ مِن أديب مفكِّرٍ.

وما إليهما.

فالفكرة التي يؤمن بها أهل البصيرة والنَّقد إذا لم يدعوا غيرهم إلى اعتناقها بعد بثِّ حججها, وبسط براهينها,ووضع المقدِّمات النَّفسِيَّة والتَّمهيدات التَّأثيريَة للجلب أكبر قدر من المعجبين والمقتنعين تحت شعارها؛ إذا لم يكونوا كذلك لم يساعدوا أنفسهم على البقاء في

224- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت 728هـ) "الفتوى الحموية الكبرى" نشر المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، ط 3، السنة 1398هـ، ج 68/2 .

الحياة الفكريَة من جهة, ولم يرتقوا إلى تقدير الفكر من جهةٍ أخرى بالدَّعوة إليه, ولم يدُلَّ ذلك إلاَّ على أنَّهم لا يريدون لغيرهم ما أحبُّوه لأنفسهم في عالم الآراء والأنظار.

إنَّه يستحيلُ أن يكون الإنسان –فضلا عن الأديب- ابنَ نفسِه, بحيثُ يُصبِحُ فنُّه لأجل الفن لا لأجل نفسه والمجتمع معا, فنفس المرء تحمِلُ في طَيَّاتها جزءا من المجتمع الذي خرجت منه, والبيئة التي ترعرعت فيها, والثَّقافَة التي نهلت منها, والشَّخصيات التي تركت بصماتها عليها, فإذا ترك الأديب كُلَّ هذه العوامل المنشئة إيَّاه, البانِيَة لشخصِيَّته ومستواه؛ فإنَّه يَترُكُ بذلك مكنوناته, ويتخَلَّى عن مكوِّناته.

فلقد انتشر اليوم ما يسمَّى بالعولَمة, وهي ما يتعارض كُلَّ التَّعارض مع مذهب الفن للفن,لأنَّ من يعولمُ شيئا يرومُ إلى تعميمه ونشره في النَّاس كما تفعل الأمم الرَّاقيَة في عصرنا, فتسعى إلى بثِّ ثقافتها في العالم, وتحرص على ذلك باذلة مهجتها ناقِلَةً موجَتَها إلى الضِفاف الأخرى بصرف النَّفقات الخياليَّة, لعلمِها أنَّه أعود عليها بالفائدة المادِيَّة والمعنويَّة, وأقوى لحضارتها, وأدعم لساعد مدنِيَّتها, وأعظم لها مجدا وسؤددا وتشريفا, وبالتَّالي لا أحد من أهل الفهم المثالي؛ يأنفُ من هذه الخصال العليا التي يُنشِدُها النَّابهون من ذوي المروءات والتَّطلُّعات إلى المعالي, ولا يأنفُ منها سوى التَّافهين من أصحاب التَّقوقُع ودنو الهِمَّة من الرَّاضين بالدُّون والخساسَة والفكر البالي, بحيثُ لا يرنون بأبصارهم إلى أكثر من مساحَة ذواتهم, ومقدار امتداد أرجُلِهم, غير متجاوزينها إلى الكون الفسيح بأرجائه وأبنائه وأشيائه, وإنَّما كونهم هو أنفُسُهم, وأدبُهم لا يتجاوز فنَّهم, فكأنَّهم لا يؤمنون بتعاون العلوم رغم اختلافها, وتظافر الفنون بمختلف أنواعها؛ على بناء تاريخ وتشييد حضارة تكون خدمتها للمجموع, وإلاَّ فمن غنَّى لنفسه ولم يهتمَّ سوى بعالمه الشَّخصي الصَّغير؛ يُصبح علاوة على أنانِيَّته الفنِيَّة العجفاء, مثلَ مَن يشعل الشُّموع على القبور ولا يُفيدُ بنورها الأحياء.

ذلك هو التَّنوير بلا تبصير, وهو عينُ الفن بلا منهجِيَّة وإنَّما لأجل الفن حسبُ, كالنَّقد لأجل النَّقد فقط.

إنَّ الحديث عن النُّخبة عند العرب يقتضي انخراطا في هموم المجتمع وآماله وقضاياه,

فالنخبة هي الثُّلَة التي اختارها المجتمع لتكون عيونه الباصرة, وآثاره الظَّاهرة, ومنافعه المتجَلِّية, لكونهم ليسوا نتاجا فكريًا وانتهى الأمر, بل هُم الحصيلَة العلمِيَّة تحدوها الحصيلَة العمَلِيَّة, فإذا انضافت إليهما الحصيلَة الأدَبِيَّة أصبحوا بمكانة الزِّينة من الثِّياب, وبمنزلَة الحديقَة من الغاب, والطَّبع الأثيل الفاخر والخطِّ الجميل الباهر من كتاب.

وصدق الشَّاعر إذ قال:

جمال ذي الأرضُ كانوا في الحياة وهُم ** بعـدَ الممـاتِ جمـــالُ الكُتــبِ والسِّيَـر.

إن هذا الجمال على وجه الإجمال هو الذي جعل المرونة تعتلي صرح منهج الأستاذ كنون وسماته وملامحه، فهو كالأرض الخصبة ثابتة، والأشجار الباشقة فوقها نابتة، ومع ذلك تتلون بألوان المرونة كتلون الأرض واكتساء الشجر بالخضرة في فصل الربيع، دون أن يكون طابعها مجرد الاكتساء بل تلجأ للتعرية والتخفف كتخفف الأغصان من الأوراق وإلقاء البليغ كثرةَ الأسجاع تفاديا للتكلف، وهو في خلال ذلك يذهب مذاهبه ويوظف مواهبه بكل اختار واستبصار وتَشَرُّف، وحرية تصرف.

إنَّ هذه الحرية التي يضرب عليها دعاة "مدرسة الفن للفن" نغمتهم هي الحرية المنعزلة، التي تعيش في مقبرة، وأمَّا عند مخالفيهم؛ فهي الحرية الفاعلة العاملة، الناهظة المعتبرة، التي لا تذهَبُ سبهللا, ولا ترضى بغير المسئوليَّة بدلا, ولا بترك المجتمع هملا؛ لأن صاحبها مسؤول، لا متروكٌ سدى ولا منسي يوم الحساب فيما يقول.

من هنا "تعتبر مهمة [النقد] مسؤولية دينية ودنيوية معا، [فالنَّاقد] مخبر عن أحكام .. وهو بمقتضى ذلك يجب أن لا يصدر [رأياً] إلا بعد التحري والمبالغة في تحرير مناط المسألة والتماس الدليل .. عليها, .. [و] يتحمل بذلك عبئا ثقيلا" ([225]).

فالحريَّة التي لا تشتهي أن تكفر, ولا أن تفجر, لأنَّ القناعات تتبع العلوم, وليس العكس, والهوى الكذوب غير الحريَّة الحقيقيَّة إنَّما هو اللَّعب والأنانيَّة وإهمال الحقائق, والتَّعالي المقيت, ومحَصَّلُه الرجعيَّة البحتَة دونَ مراعاة الصَّواب بمعاناة الإخلاص ومكابدَة اقتناص الفوائد والبحث عن الحقيقة والمزاولَة في سبيل ذلك الدراسَة والتَّنقيب والتَّفتيش, لا الهروب

[225]- أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي "موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية"، (ج10/ ص160).

من النَّقد والتَّنصُّل من بيِّناته وعدم الفيئة إلى النُّور كحال الخفافيش.
ذلك رُغمَ أنَّ النَّاقد الخبير يردِّدُ دوما أنَّ العبرة بالحجَّة, وأنَّ "كلامي مُعلِم, وليسَ بملزِم" كما يقول أهل الفهم والنجابة والتحرر الحقيقي.

2) القوة والوضوح:

تلك هي السمة الجامعة بين الوضوح المتعلق بالفكرة، والقوة المتعلقة بالكلمة، فامَّا الأول فإن السمة إذا كانت غامضة حطت من قدر المنهج من جهة، وابتعدت عن عين متبينه من جهة ثانية، ولكن وضوح الأستاذ المستلهم من مبادئ في الحياة علما وأدبا صبغ منهجه بالبريق رغم ليالي النقد الحالكة، وأضفى إليه أشعةً جعلته يشرق لمعانا في عز الضحى النقدي الذي ضحى به كثيرون فلم يبلغوا به الزوال إلاَّ وقد زال!

أمَّا الثاني وهو الكلمة فهي من القوة بمكان عال، ومن الخطورة على رأس جبل وعر، هذا فيما عليه حالها الذاتي فضلا عن حالها النقدي في منهج الاستاذ، ثم هي كل شيء، لأنَّها "تساعدنا الكلمة على التَّأمُّل والتوحد, وقد تؤدِّي إذا أسأنا استخدامها إلى الانفصال بيننا وبين أعزِّ ما نشتهي وهو السَّيطَرة على الحياة. وقد تعوَّدنا إن نهمِلَ إشارات المتَقَدِّمين إلى ما يُشبه مخاطر الكلمَة والإحساس النَّبيل بأنَّ الكلمَة نشاطٌ متنَوِّع يحتاجُ إلى تنظيم. وقد قامَ غيرُ واحدٍ بما يُشبه المشارَكة في نقدٍ ثقافيٍّ رائعٍ للكلِمَة, نذكرُ منهم على سبيل المثال سيبويه وابن قتيبَة والمُبَرِّد وابن جِنِّي وعبد القاهر. في هذه الكتابات المتباينَة المتلاقِيَة إشارات إلى ما يتهَدَّد علاقَتنا بالكلِمَة, ومن ثَمَّ كان حنُوُّ كثيرين على كلِمَة النَّظم, ومن ثَمَّ كانت الكلِمَة تَشُدُّ أزرَ العربي" ([226]).

إنَّ الثقافة الكلامية لا سيما في سياقها المنهجي تسبق كل الثقافات رقمية كانت أو صناعية، لأن كل ما عداها عالة عليها، فـ"الحضارة كلها والثقافة كلها بعلومها و آدابها وفلسفتها عالة على " الكلمة " فلولا " الكلمة " لما كان لشيء من ذلك وجود يعقل ... وإنما أعني بالكلمة كل ما حرص الإنسان على تجويده وإحسانه وأعطاه حقَّه من الصدق والإشراق في أي باب

[226] -- د. مصطفى ناصف "النَّقد العربي: نحو نظريَّة ثانِيَة", نشر عالم المعرفة, مارس 2000, ص 246 .

كان من أبواب الإبانة .

وسواء عندي بعد ذلك أن تكون " الكلمة " بيانا عن شيء أرضاه أو أكرهه , وأوافق عليه أو أخالفه , وأعدُّه حسنا يقال أو قبيحا يعاف" ([227]).

ولقد فرضَ القرآنُ التَّفكيرَ و التَّدبر و جعلهما أمرا واجبا , و صَيَّرَهما قبل الاتِّباعِ مُرتَّبا, فتجده "يأمُرُكَ بالتَّدَبُّر و استعمال الحواس الظاهرةِ والباطنة في وظائفها الفطريَّة قبلَ أن يأمُرَكَ بالاتِّباع .

حتَّى تَطمئِنَّ إلى أنَّك إنَّما تَتَّبِعُ فيما فيه حقٌّ و خيرٌ و رحمة , ثُمَّ إذا أمرك بالاتِّباع فإنَّما ذلك فيما يتعالى عن فِكرك إدراكُه أو يَصعُبُ عليك تمييزُه, أو يخافُ فيه غَلَبَةَ الأهواءِ عليك"([228]).

لهذا فالأستاذ كنُّون كان ضمن هؤلاء الأعلام المفنِّدين لأقوال الكثير من المستشرقين المتهمين للإسلام بمعارضة الإبداع, وتجميد العقل وشلِّ طاقات الفكر الإنساني, وهو الذي قام على بعث الأذهان العقيمة على الحياة, وانتشلَها من الجاهليَّة المهينَة الجهلاء, والمشينة الشَلاَّء, وأخذَها من بين أظفار الممات إلى مراتع النَّجاة، لكن كل ذلك لم يكن سوى في إطار كلمة وكلمات.

3) الرؤية المنطقية والتجرُّد العاطفي:

إنَّ الموازنة بين جدلية الرؤية المنطقية والتجرد العاطفي من سمات المنهج الكنوني التي لا اقصاء فيها للعقل ولا تغليب للعاطفة، تلك التي تبعث على التحيز ولا تساعد على اتساع الرؤية واستقامتها على أسس المنطق الأصيل، دون مجافاة للذوق ولا منافاة لروح التحري

[227]- أبو فهر محمود محمد شاكر "أباطيل وأسمار", مكتبة الخانجي, القاهرة, ط3 , سنة 1426هـ-2005م, (ص 449 - 450).
[228]- ينظر تصدير العلامة الإبراهيمي لكتاب "مجالس التَّذكير من كلامِ الحكيم الخبير" للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس ,,الطبعة الأولى من مطبوعات وزارة الشؤون الدِّينيَّة – الجزائر – 1402 هـ – 1982م, ص 20 .

وموازين القسط.

وفيما غربل به الأستاذ كنون كتابه العجاب "النبوغ المغربي" قوله: "لا حاجَة بي إلى القول أنَّ روح البحث المُجَرَّد التي سيطرت على الكتاب في طبعته الأولى هي التي تتقَمَّصُه في طبعته الثَّانِيَة, وأنَّ التَّثَبُّتَ والتَّحرِّي وعدَمَ إلقاء الكلام على عواهنه, هيَ الموازين القسط التي تحكَّمَت في كُلِّ جملَةٍ من جمَلِه, وإنلم أبالغ فأقول في كُلِّ كلمةٍ من كلماته. ومع ذلك فما أُبرِّئه من نقص, ولا أُحاشيه من خطأ, لعلمي بأنَّ الكمالَ لله, وأنَّ العصمَةَ لا تكونُ إلاَّ لنبي"([229]).

فهذا إذن, هوالمثال الحي للتجرُّد النَّزيه في كُلِّ ما يجري به القلم ويتفوَّه به اللِّسان عموما وفي النَّقد على الخصوص, لا سيَّما أنَّ النَّقد مسؤوليَّة تربو على غيره من الكتابات.

ومثال ذلك انتقاد الأستاذ تحامل المسترق رينهيرت دوزي على الدولة المرابطِيَّة صابا جام غضبه عليها جاعلا إيَّاها السَّبب في اضمحلال الأندلس علما وثقافَةً وفكرا وأدبا, مبيِّنا أنَّ النَّصارى هم السَّبب الأوَّل في ذلك سياسيا منذ اليوم الذي وطئت فيه أقدامهم أرضَ شبه الجزيرة,إذكائهم نار الحرب عليها بلا هوادَة, حتَّى قال شاعر الأندلسيِّين قبل عبور المرابطين إليهم, بأبلغ عبارة:

شُدُّوا رواحلَكُـم يا أهلَ أنـدلُسٍ ** فمـا المُقـامُ بـها إلاَّ مِنَ الغلــط.

الثَّوبُ ينسُلُ من أطرافه وأرى ** ثوبَ الجزيرةِ منسولا من الوسَط.

مَن جاورَ الشَّر لا يأمـن بوائقَهُ ** كيفَ الحياةُ مع الحَيَّات في سَفَطِ ؟

من هنا صرَّح الأستاذ بأنَّه "قد آن للبحث العلمي أن يُنصِفَ دولَة المرابطين ويقول فيها كلمَةً عادِلَةً لا تتأثَّرُ بعصبيَّةٍ بلدانِيَة ولا بحمِيَّةٍ دينِيَّة .. فمن الحقِّ أن يُقال أنَّ المرابطين هم الذين مدُّوا حياة الاندلس السياسيَة, وأبقوها في قبضَة الإسلام زهاء أربعة قرونٍ أخرى, وهذا هو ما يغيظ المستشرق دوزي ومن سلك سبيله في التَّحامُل على الدَّولة المرابطِيَّة.

229- عبد الله كنُّون " النبوغ المغربي في الأدب العربي" ط 2, بدون, (10/1).

وأمَّا اضمحلال الأندلُس معنويا فليس هناك من يُنكر أنَّ الازدهار الذي عرفته في أيَّام المرابطين, ثُمَّ الموحِّدين بعدَهُم, يكادُ يفوقُ ما كان لها منه في أيَّام الخلفاء وملوك الطَّوائف وخاصَّةً في ميدان العلوم والآداب" ([230]).

وعندما عزا المستشرق دوزي تدهور الحياة الفكرية في الأندلس على عهد المرابطين ألمح إلى حادثة إحراق كتاب الإحياء للغزالي, وما بدر من المنصور الموحدي من إساءة إلى الفيلسوف ابن رشد؛ انتقد الأستاذ هذا التَّعليل وزيَّف ذلك الطَّرح قائلا:

"فليت شعري كيفَ غفل عن اضطهاد ابن مسَرَّة وإحراق كُتُب خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الغفلة في عهد المروانِيَّة, وإحراق كتُب الفلسَفَة والتَّعاليم اليونانِيَّة التي كانت في مكتبَة الحَكَم من قَبَلِ المنصور بن أبي عامر, واضطهاد ابن حزم, وإحراق كُتُبه في دولة ابن عبَّاد, ولماذا لم يعتبر ذلك نكسَةً للفكر وبدء اضمحلال الأندلس المعنوي؟

إنَّ مثل هذه الأقوال التي هي أشبه بحديث خرافة منها بحديث العلماء؛ إن دلَّت على شيء فإنَّما تدُلُّ على نزعةٍ خاصَّة أبعدَ ما تكون عن روح البحث والتَّحقيق" ([231]).

فقضِيَّة التَّحرِّي, والترفع عن سفاسف الأقوال والتحاليل, وإبعاد النُجعة بالذهاب إلى أوهى التَّصوُّرات في عالم النقد وتقليب الحقيقة هو الممارسة التي يكسِرُ من أجلها الناقد النَّزيه أقلامَهُ العَشر,حتَّى ولو اقتضاه ذلك أن يقطع أنامل راحتيه كيما يرتاح من فعل شيء من ذلك هوى وتحاملا وسوءَ دِخلَة.

فلقد تعلَّم الأستاذ كنون من مدرسَة الوحيين الشريفين أن من أعظم الأوامر فيهما التَّدبُّر والتَّفكر والانفتاح, ومن أعظم النَّواهي النَّهي "عنِ اتِّباعِ الهوى المُضِلِّ عن سبيل الحق, و عن اتِّباع أهواءِ الذينَ لا يعلمون, وعن اتِّباعِ خطوات الشَّيطان, وعنِ اتِّباعِ أولياءٍ من دونِ الله, وعن اتِّباعِ السُّبُلِ المتَفَرِّقَة, توكيدا للمعنى الإيجابي و إيضاحا للحَقِّ الذي يجِبُ أن يُتَّبَع. إلاَّ أنَّ المُتَدَبِّرين للقرآن لا يخرُجونَ من هذا الاستعراضِ البديع إلاَّ مؤمنين موقنين بأنَّ

[230]- عبد الله كنُّون " النبوغ المغربي في الأدب العربي" ط 2, بدون, (1/65-66).
[231]- المرجع نفسه, (1/66).

الاتِّباعَ الذي يدعو إليهِ القرآنُ, هو عينُ الاستقلال التَّام للفكر و الإرادةِ والعقلِ والوجدان, لأنَّه يحميها من شرور الأهواءِ و يُؤويها إلى حمى الحقِّ وحده, والاحتِماءِ بالحَقِّ الذِّي قامت به السَّمواتُ والأرض, واسْتَقَرَّ عليهِ تَدبيرُ الكونِ ونِظامُه " ([232]).

ولذلك "فتدبُّر القرآنِ واتِّباعُه هما فَرْقُ ما بينَ أَوَّلِ الأمَّةِ و آخِرِها , و إنَّه لفرقٌ هائلٌ ؛ فعدم التَدَبُّر أفقدَنا العلم , و عدمُ الاتِّباعِ أفقدنا العمل. وإنَّنا لا ننتَعِشُ من هذه الكبوة إلاَّ بالرُّجُوع إلى فهمِ القرآنِ و اتِّباعه , ولا نُفلِحُ حتَّى نؤمِنَ ونعمَلَ الصَّالحات {فالذِّينَ آمنوا به و عزَّرُوه و نَصَرُوهُ و اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنزِلَ معَهُ أولئك هُمُ المُفلِحُونَ} الآية" ([233]).

ولكنَّ الجهلاء لا يعلمون أنَّ "هذا الدين جاء يُعَلِّم العقل "أوَّلا", أي حسن التفكير, وحسن النظر, قبل أن يطالب الناس بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجِّ البيت من استطاع إليه سبيلا" ([234]) .

وفي هذا الصَّدد يقول الأستاذ كنُّون إنَّ "الإنسانِيَّة كانت [قبل البعثَة] ما تزالُ في طور النُّمو لم تبلُغ رُشدَها العقلي بعد, فإنَّها بعدَ البعثَة المحَمَّدِيَّة دخلَت في طور الاكتمال والنُّضج الفكري, ولم تبق بحاجَة إلى من يحضُنُها ويرعاها, ويُمَثِّلُ لها المعقول بالمحسوس والغائب بالحاضر, ولكن عليها أن تستعمِلَ فكرَها وتُجيلَ النَّظر ... "([235]).

ثُمَّ إنَّ الأستاذ وضَّح أصل هذا التَّفكير الذي على الأمَّةِ أن تعمَله بالقول : "والأمرُ الرَّائع في أوَّلِ القرآن نزولا هو هذا الخطاب الإلهي السَّامي المتضَمِّن لطلب القراءة من النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم, ولفتِ نظره إلى التَّفكير في خلق الإنسان والإشادَة بالعلم ... ومن ثَمَّ قال كثير من علمائنا إنَّ أوَّل الواجبات النَّظر الموصل إلى المعرِفَة" ([236]).

---

[232]- ينظر تصدير العلامة الإبراهيمي لكتاب "مجالس التَّذكير من كلامِ الحكيم الخبير" للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس, الطبعة الأولى من مطبوعات وزارة الشؤون الدِّينيَّة ـ الجزائر ـ 1402 هـ ـ 1982م, ص 20 .

[233]- المرجِع نفسُه, من كلام الإبراهيمي, ص 26 .

[234]- أبو فهر محمود محمد شاكر "أباطيل وأسمار", مكتبة الخانجي, القاهرة, ط 3 , سنة 1426هـ-2005م, ص 397 .

[235] عبد الله كنون "جولات في الفكر الإسلامي" مطبعة الشويخ, تطوان, المغرب, 1400هـ/1980م, ص 17 – 18 .

[236]- المرجع نفسه, ص 16 - 17 .

ثمَّ علَّلَ ذلك بأنَّ البشريَّة رُغمِ ما "حقَّقت من تطوُّر في ميدان العلم والمعرفة, أصبَحت تتطَلَّبُ معجِزَةً من قبيل ما تأخذُ به من دلائل العقل وقضايا المنطق,لا ما يستهوي الحِسَّ ويمتلك البَصَر فقط" ([237]).

فهذا إذن؛ المنطق الذي لبسه منهج الأستاذ كنون فأصبح من سماته؛ ودليل العقل الذي تقمصه منهجيا وتخلى به عن أثواب العاطفة نسبيا؛ فاغتدى من صفاته، مرتديا العلم ومؤتزا بالأدب، في اتحاد ووثاق، وتعاضدٍ واتفاق، فما هو الميثاق الذي تأسَّسَ بينهما في جماليات النقد ؟

الميثاق العلمي الأدبي للنقد:

إنَّ النقد مهنة من أعظم المهن وأشرفها، ومن من أنبل الأعمال وأتحفها، وإنَّ لكل مهنة ميثاقا يتصف بالمعلومية ويتحلى بالمفهومية وينصبغ بالصبغة الأدبية، ولقد تضمنت إحدى الوصايا المحررة، للأديب الناقد النحْويّ أبي حَيّان الأندلسيّ هذا الميثاق مرتبا بخطوطه العريضة وضوابطه المعتبرة، والتي لا بد لنا من ذكرها ها هنا لزوما لأنه في ضوئها تعوَجُّ منهجية النقد أو تستقيم، فلقد بيَّن أنَّه:

"ينبغي للعاقل أن لا يقصدَ أذى أحدٍ مِن خلق الله -سبحانه وتعالى- إلاّ على حسَب الدفعِ عن نفسه.

وأن يَعذِرَ الناسَ في مباحثِهم وإدراكاتِهم ؛ فإن ذلك على حسَب عقولِهم.

وأن يضبطَ نفسَه عن المِراء ، والاستزْراء ، والاستخْفاف بأبناءِ زمانِه.

وأن لا يبحثَ إلا مع مَن اجتمعت فيه شرائطُ: الديانةِ، والفهم ، والمزاوَلة لما يبحث.

وأن لا يغضبَ على مَن لا يفهمُ مرادَه ، ومَن لم يُدرِكْ ما يُدرِكُه.

وأن يلتمسَ مخرَجاً لمن ظاهرُ كلامِه الفساد [مِن أهل المقاصد السوية لا من أصحاب الأهواء الرَدِيَّة].

وأن لا يُقدِمَ على تخطئةِ أحدٍ ببادي الرأيِ.

وأن يُلزِمَ نفسَ التواضعَ لعَبيدِ الله- سبحانه وتعالى.

وأن يجعلَ نُصْبَ عينيه أنه عاجزٌ مفتقرٌ.

وأن لا يتكبَّرَ على أحدٍ، وأن يأخُذَ نفسَه بحُسن المعامَلةِ-مِن حَسَنِ اللفظِ ، وجميلِ التغاضي،

---

[237]- المرجع نفسه, ص 18 .

وأن لا يركن إلى أحدٍ إلاّ إلى الله– تعالى" ([238]).

إنَّ عدم الركون المذكور في هذه التَّأسيسات هو أحد ضوابط النقد التي تحدو به إلى النزاهة وتقيمه على جادَّة التوسط بين الإسراف والاسفاف، وتنقله إلى حسن التحري في الاشراف على تقويم أي إنتاج إبداعي أو أدبي أو ثقافي أو فكري، عن طريق الدقة في استجلاء معاني الألفاظ لأنَّ أهل كل مذهب وطريقة لاسيما في الخصومات العلمية والمعارك الأدبية إنَّما "يكسونَ نِحلتَهم ومقالتَهم أحسنَ ما يَقدِرون عليه مِن الألفاظ، ومقالةَ مخالفيهم أقبحَ ما يَقدِرون عليه مِن الألفاظ. ومَن رزقه الله بصيرةً؛ فهو يكشفُ به حقيقةَ ما تحت تلك الألفاظِ مِن الحقّ والباطل [في دنيا الآراء] ... فإذا أردتَ الاطِّلاعَ على كُنهِ المعنى هل هو حقٌّ، أو باطلٌ؛ فجرِّدهُ مِن لباسِ العبارة، وجَرِّد قلبَك من النَّفرَةِ والميل، ثمَّ أَعطِ النَّظَرَ حقَّهُ- ناظراً بعينِ الإنصافِ، ولا تكُن ممّن يَنظرُ في مقالَةِ أصحابهِ ومَن يُحسِنُ ظنَّهُ به نظراً تامّاً بكلِّ قلبهِ، ثم ينظرُ في مقالَةِ خُصومهِ! وممّن يُسيءُ ظنَّه به كنَظَرِ الشَّزَرِ والملاحظة، فالنَّاظرُ بعينِ العداوَة يرى المحاسنَ مساوئَ والنَّاظرُ بعينِ المحبَّةِ عكسُهُ، وما سَلِمَ من هذا إلا مَن أرادَ الله كرامَتَهُ وارتضاهُ لقَبول الحقِّ، وقد قيل [الكامل]:

نَظروا بعينِ عداوةٍ لو أنَّها ** عينُ الرِّضا لاستَحسَنوا ما استقبَحوا.

فإذا كانَ هذا في نظرِ العينِ ؛ الذي يُدرِكُ المحسوساتِ، ولا يتمكَّن مِن المكابرةِ فيها؛ فما الظنُّ بنظرِ القلبِ؛ الذي يُدرِكُ المعانيَ التي هي عُرْضَةُ المكابَرةِ ؟، فاللهُ المستعانُ على معرفةِ الحقِّ وقَبولِه، وَردِّ الباطِلِ ، وعدمِ الاغترارِ به " ([239]).

ونعم، لقد حذَّر كل ناقد نبيل من الاغترار بالخطأ ومن غرور النفس به لغرض من الأغراض، أو الإعجاب الطافح بالإبداع الأدبي لدرجة النفور عن كل نقد إيجابي وكراهيته،

238- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ) "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" ت: إحسان عباس، نشر دار صادر- بيروت – لبنان، ط 1، 1997م، ج 565/2 .

239- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة" نشر دار الكتب العلمية – بيروت، بدون، ص 141 .

لهذا يلزم ألاَّ تتحوَّل نون النَّاقد إلى حاء, فيغدو النَّاقد هو الحاقد!, وتلك عيوبٌ تُصيبُ الموضوعِيَّة في مقتل، سواء في اختلافه مع غيره، أو في موقفه من اختلافات النقاد.

فلقد قامت معارك أدبيَّة بين الرافعي والعقاد, وأخرى بين الرافعي والقشاشي صاحب مجلة المصباح, لكنَّ الأستاذ كنُّون لم يتحمَّس لأحدِهما على حساب الآخر, وإنَّما جاء رأيُه في ما دار بينهما ,وموقفه منهما كما يجيء المَّاء الصَّافي والبلسَمُ الشَّافي للجروح, فإنَّ تمرُّسَ الشيخ بالخلافات,لاسيما وقد عرف ضوابطها وآدابها واستفاد من ثروته العلميَّة الدينيَّة في فقهها وكيفيَة التَّعامُل معها؛ أدَّى به إلى مجانبَة التَّهويل, ومحايَدَة التَّأويل, والبروز إلى المخالف بوجه صريح لا التواء فيه, فاستمع إليه و هو يُبيِّنُ موقفه العلمي الأخلاقي فيما جرى بين العقاد والرَّافعي قائلا:

"مضى الأستاذ محمد سعيد العريان مترجم فقيد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي في سبيله يكتب ذلك التاريخ الزاهر، وينشره بشكل مقالات .. وفيها دعا من كان عنده شيء من أخبار الرافعي غير ما ذكره هو، أن يتفضل بالكتابة إليه رأساً أو على صفحات (الرسالة) .. ونحن إجابة لدعوة الأستاذ ننبهه إلى خصومة أخرى كانت قد نشبت بين الفقيد الكريم والأستاذ مصطفى القشاشي صاحب مجلة (الصباح)، ولعلها آخر الخصومات الأدبية للرافعي؛ وقد كانت هي التي أوحت إليه بمقال (صعاليك الصحافة) ... إننا نشفق من هذه الخصومات التي تقع بين كبار الأدباء لأنها في الغالب لا يكون باعثها النقد النزيه، فيسمج عندنا أن ينزل مثل العقاد والرافعي من عليائهما إلى ميدان المهاترة إرضاء لحالة الموجدة وطبيعة الغضب كما وقع في قضية الرافعي والقشاشي، فبينما الصفاء والسلام إذ الحقد والحرب. ونحن لسنا من مقلدة الرافعي ولا من المتعصبين للعقاد، ولكن لهما معاً عندنا مقام سام، وفي أنفسنا لكل منهما حيز لا يشغله الآخر. عرفناها معاً من قديم واغتبطنا بآثارهما كل الاغتباط؛ وكنا نأسف على ضياعهما بين قومهم وعدم عرفان حقهما حتى جاءت (الرسالة) ... وسيكون لهما من الذكر في المستقبل الأيام ما يغطى على غيرهما أياً كان، بل أنها سيكونان علمي عصر النهضة في تاريخ الأدب العربي الحديث، ورمز المذهبين المدرسي والابتداعي المتكونين في هذا الأدب كما يجب الآن... تطرقنا ولو بهذه

الإلمامة الخفيفة إلى وجه الرأي في أدب الرافعي والعقاد، حاسبين أن ما كان بينهما من خصومة إنما هو نتيجة الغيظ وحدة البادرة وأن ما كتبه كل منهما في هذه الخصومة إنما من قبيل ما كتبه الرافعي والقشاش باعثه الظن السيئ والعجلة. وللقوم وفي عمرو بن الأهتم وما كان بينه وبين الزيرقان بن بدر من المنافسة والمشاتمة بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم شافع وعذر" ([240]).

فتأمَّل طريقة الأستاذ كنُّون في معالجة الأمور, وفي اتخاذ المواقف, وحسن التعبير عنها بما يرضي الأشخاص والحقيقة معا, وبما يؤلِّفُ بين نوع المخالفة ووجه الصَّواب, حتَّى تستوي الأشياء على سوقها, وتعرف إلى النَّزاهة والإقناع طريقها.

كُلُّ ذلك ألقى بضلاله العلميَّة على عقل الأستاذ, والنَّفسِيَّة على فؤاده, جامعا بين مداده ووِداده, دونَ أن يعصِفَ بأحدهما, فيما حبَّرَه وقرَّرَه مما يترشح من مجموع كلامه وقسمات بيانه ملامح عباراته, وما له من تأنٍّ وصراحة وحسنُ تلطيف, وتأثير كتأثير الواعظ النَّاصح, والنَّاقد النَّاجح في إدراك مبتغاه, وبلوغ مرماه, وإرضاءه قارئه إقناعا والأخذ بمشاعره تِباعاً إلى حيثُ النُّبل والفهم, والنَّصَفَةُ والموضوعِيَّة, المكلَّلتان بالمَسَرَّة الأدبيَّة والبهجَةِ العلمِيَّة والاغتباط.

ويصدُقُ في حق الأستاذ في جمعه بين رأي العقاد ورأي الرافعي وموقفه المعتدل منهما, بإبرة بصيرته الراتقة، التي تصل بين الآراء الممزَّقَة؛ قول الشاعر [البسيط]:

فانظُر بَنانًا كنُور الفجر لمحَتُه ** تَنجابُ عنهُ الدَّياجي وهيَ فُلَّلُ.

يرِفُّ فيه شُعــــاعٌ مِن قريحَتِه ** إذا تمـــزَّقَتِ الآراءُ وَصَّــــال ([241]).

من هنا؛ فليس لأحدٍ أن يرميَ الأستاذ بالانحراف عن سبيل الموضوعيَّة والنَّزاهة في النقد والتحليل, والآراء والمواقف, وكأنِّي به يقول:

"فلا يتهمنا أحد بحب المعارضة لذاتها من حيث نريد الإحسان ونسلك طريقه , ونقصد الجدَّ

240- عبد الله كنون "بين الرافعي والقشاشي" مجلة الرسالة ضمن البريد الأدبي, العدد 270 - بتاريخ: 05- 09- 1938م, ص 74-75 .

241- أبو فهر محمود محمد شاكر "اعصفي يا رياح وقصائد أخرى" جمع وتحقيق د. فهر محمود شاكر, شرح وتقديم د. عادل سليمان جمال, مطبعة المدني, مصر, ط 1, 1422هـ/2001م, ص165 .

ونروم تحقيقه, فإنَّ العملية النقدية ضرورية لحياة العلم وحركته, وفطانة الذِّهن ويقظته, ودرء سُبات القلب وبلادته, وليس يحب فيها ـ الحريص ـ السبيل العاطفي الساذج, وإلاَّ كان رمي الناقد بالحدَّة والعصبية (!) والشِّدة العلمية ـ إذا لم يكن من ظلمه بدٌّ !، وأمست الوقيعة فيه مذهبا للشائن !!ـ أولى من جعله في مهامه السذاجة وقرارة الفشل والتدين بالتقليد الزائف الأعمى.

فلا بد للإصلاح العلمي من القضاء على ظاهرة النقائص والعيوب و على المبدإ الطرقي القائل: "اعتقد ولا تنتقد"! ([242]), والعمل على تغليب ظاهرة الاستعداد النفسي لتقبُّلِ الحقيقة وإيجاد العقل المنظَّم الذي لا يسلِّم إلاَّ للدلائل الصحيحة , نقضا للخمود وبعثا للحيوية والحركة المعرفية التي تهدم الفاسد و تذمُّه , وتنمي الصالح و تتمه, وتحقق الجدل المحمود بين الحركة والسكون.

وهكــذا ... فالعلم لا يقبل الجمود ولا الهمود !" ([243]).

يقول العلامة ـ الثائر ! ــ عبد الحميد ابن باديس ـ رحمه الله ــ في العدد الأول من جريدته " المنتقد" وهي أول ما دخل به عالم الصحافة مبينا من يتعرض للنقد قائلا :

" ننقد .. القضاة والعلماء .. وكل من يتولى شأنا عاما من أكبر كبير إلى أصغر صغير .. ونناهض المفسدين والمستبدِّين من الناس أجمعين .. لأننا ننظر من الناس إلى أعمالهم , لا إلى أقدارهم ([244]) , فإذا قمنا بالواجب فلأشخاصهم منَّا كلُّ احترام " ([245]).

وسواء الأمر بعد ذلك في نقد الفكر أو نقد الإبداع، وفيما هو جد وما هو من قبيل الامتاع؛

[242]- ولأجل هذا العمى الفكري انتقد الأستاذ كنون الطرقية قائلا: "فأما الطرقي فلا كلام لنا عليه، ومهما بلغ ما بلغ من العلم والفقه ودراسة الحديث، لا يمكن أن يعد من أتباع السنة أو الداعين إليها إلا إذا قلبت الحقائق وغيرت المفاهيم، خصوصا إذا كان غاليا في الطرقية كما هو شأن الكثير ممن أدركناهم وعرفنا أحوالهم" إهـ، ينظر؛ محمد المغراوي "موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية"، ج 10/ ص163.

[243]- عيسات قدور سعد "بين الأدب والأصول: النَّفس الرَّائق فيضبط الفائق"؛ مخطوط, ص 118 – 119 .

[244]- وهذا من معاني قول القائل " إن الخطأ لا يشفع فيه ــ ليكون صوابا ــ أن يجيء من عالم أو فاضل , فإذا صَدَرَ يُرَدُّ كلُّ خطإٍ بحسَبِهِ " .

[245]- د. عمار طالبي "ابن باديس حياته وآثاره ", دار المغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان, الطبعة الثانية, سنة 1403 هـ ــ 1983 م, (82/1 – 83).

والمهم أن يظلّ النقد متلائما، وأن يبقى قائما على منهج منسجم؛ وصورة منهجية طابعها الرفعة، واتساع الرقعة والوضوح.

المبحث الثاني: المناهج النقدية ومنهج عبد الله كنون.

إن المناهج النقدية لا ترتكز إلا على معايير نقدية مثلها، فالمعيار الجمالي يستدعي معايير جمالية، والمعيار النفسي يقتضي معايير نفسية ، وهكذا، وذلك هو المرور من المذاهب الفنِيَّة إلى فلسفة النظر، من هنا لزمنا توضيح منهج الأستاذ كنون النقدي, في هذا الفصل بناء على المعايير النقدية التي عرجنا عليها في الفصل السابق، ونبدؤها بالمنهج الأخلاقي.

المنهج الفنِّي الأخلاقي:

إذا كانت الأخلاقيات آلية حتمِيَة من آليات النقد النزيه, فلا بُدَّ أن تكون معيارا من المعايير النَّقدِيَة في ساحَة الأذواق الأدَبِيَة, وإلاَّ فما الفرق بين اعتبارها إجراءا, وإهدارها انتهاءا, ذلك هو الاختلال في عمليَّة الذوق المنطقي, لأنَّه من المعروف أنَّ الذوق لا يقوم على العاطفة وحدها , بل هو يردِفُ لوزما العقل معها, وهل المنطق إلاَّ نو من أنواع العقلول العمِيَة التي يحتاجها الناقد, لأنَّه مفكِّرٌ بالدَّرجَة الأولى قبل أن ينتقد أو يقوِّمَ، أو يقوم بتصحيح.

إن ما يخالف الخلق منتقد عند الأستاذ ضربة لازب حتى وإن احتوى العمل الإبداعي فنية تعبيرية، لأن هذه الفنية لا تعدو أن تكون شكلا والخلق مضمون، ولا يمكن في ميزان المنهج التفاضلي المراعي للأولويات أن تقدم الأشكال على المضامين، ويضحي بالثانية التي هي بمنزلة الروح على الشكل الذي هو بمنزلة الجسد، وهذا من النظر المنطقي، الذي وضَّحناه في منهج كنون، والاستبصار الخلقي المجتنى عنده من الأصالة الرافضة للمهانة والدُّون.

من هنا واجه الأستاذ –فكريا وإبداعيا- ظاهرة التَّمطُّق بلغة الأعاجم كيفما كانوا لا سيَّما الفرنسيس, موازنا بين جدليَّة تعلُّم اللغة الأجنبيَّة وجوبا, وترك التَّأَثُّر بها هروبا, سواء كان التَّأثُّر يرقى هبوطا إلى دركَة الانتصار لها وتفضيلها على لغة العرب, أو اقتصَرَ على التَّسارُع للنُّطق بها وتخلخل اللِّسان بمفرداتها, متعجِّلا إلى التَّبختُر اللِّساني بإجادَةِ نُطقِ الرَّاءَ غَينًا !

مع علمه أنَّ هذا التَّشَدُّق بلوك المعجب بها بفمه, هو طريقٌ إلى الانتصار لأفكارها, لكون الانتصار لها لفظيًّا؛ طريقٌ إلى الانتصار لها معنَويًّا.

ومن البداهة التَّفريق بين أن تُحِبَّ الوسيلة كتعلُّم لغات الناس لتعليَ حضارتك, حتَّى لا تعدِّدَ

في سوقِ التَّرجَمَةِ خسارَتَك, وبينَ أن تُحِبَّ هذه الوسيلَةَ لترفع من شأن حضارتهم, وتزيدَ لبنَةً في صرحهم الشَّاهق, الذي بعدَ أن ترقاه يُلقونك من أعاليه, ويرمونَ فوقَ رأسَكَ لبِنَتَك!

لأنَّها في نظرهم مما يشين بناءهم حتَّى ولو دمغت دعواهم وأظهرتَ على زينَةِ اللَّبِنَةِ بَيِّنَتَك!!

ولكن لنبحث عن السِرِّ في ذلك المنع من الفرح بلغة القوم لدرجَة التَّكلُّم بها افتخارا, إنَّها عند الأستاذ بصرف النَّظر عن تشويهها للهويَّة وانتقاصها من الانتماء, ذاتُ خلفيَّةٍ تُعَدُّ بوابَةً إلى التَّقليد, وبوابَةٌ إلى انهيارِ الاستقلال الفكري, وكم رأينا و أخبرنا التَّاريخ, بتبَنِّي كثيرين لأفكار لم يقتنعوا بها في نفسها إلاَّ بتعظيمهم أهلَها, وانبهارهم بأصحابها فيجارونهم في اللِّسان, ويتابعونهم في النطق والكلام, فإذا بالموافقة الإنبهاريَّة في النُّطق تؤدي للموافَقَة في المنطِق, والمواءمة في الكلام, تؤدِّي إلى المواءَمَة في الأفكار والأفهام.

ولا عجب من موافقة الباحث غيره من الآخرين لأجل اقتناعه بالحجَّة والبرهان؛ ولكنَّ العجَبَ في موافقتهم لمجرَّد الانبهار, فهو يرمي بذلك عقله عند عقولهم, ويترك فهمه لفهومهم, وذلك لا يعني في رحاب العلم؛ إلاَّ سقوط أركان النَّقد العلمي, وتحطُّمك مبانيه, وانتقاضه من أساسه, وما شيء من ذلك بمحمودٍ أو مستساغ, و"ما هكذا تُورَدُ الإبل", لأنَّه تقليد رخيص مُمِل, فيه ما فيه من معاني التَّبعِيَّة والإمَّعِيَّة والضَّياع, وركوبِ الأسِرَّة للتَّمَدُّد والرُّقود, ونشر الخمول وتجميد النَّشاط وإبعاد الصَّبر على ضراوَةِ البحث , وترك الاعتماد على النَّفس الذي هو أساس الحياة الاستقلاليَّة, وتعطيل العقل وتجفيف الفهم وإصابةَ الإنتاج الفكري بالكَسَاد, وتحطيمَ آليات النَّظر والاجتهاد, والتَّرويج للانحطاط, وكسر المعيار.

كُلُّ ذلكَ هو القتلُ المُحْكَم للنَّقد والمُحاكَمَة والاختبار, والقضاء المبرَم على ملَكَةِ الابتكار, والإجهازُ على سِرِّ النُّبوغ والتَّفوُّق, فيميناً إنَّ التَّقليد عِلَّةُ العِلَل, وهو -حقًّا- الرَّجعِيَّةُ العظمى, والآفَةُ الكبرى.

من هنا ما فتئ الفُطناءُ يُنَبِّهونَ كُلَّ عاقل فضلا عن باحث إلى أنَّ من دقائق الموضوعِيَّة أن نفطِنَ للتَّفريق بينَ تفوُّق الغرب تكنولوجيًّا, وتفوُّقهم أدبيًّا, وأنَّه ليس من شرط البراعة العلميَّة في دنيا الصِّناعة أن تستلزم المستوى نفسه في سوق الأدب, لهذا اغتَرَّ كثيرٌ من الأدباء فعجِلُوا إلى الاعتقاد بأفكار الآخر في المجال الأدبي اللِّسانيِّ والفَنِيِّ الإبداعي, لأجل تفوُّقه

الصِّناعي, وهو الوهم القاضي بنقل صورة التكنولوجيا إلى صورة الأدب, ناسين أنَّ الصُّورتين ولوكانتا في مستوى واحدٍ إلاَّ أنَّ الثَّقافَة والأدب شيء والعلم شيء آخر, فالأخير يمكنُ نقلُه بلا غضاضَة بل الغضاضَةُ في عدم نقله, أمَّا الثَّقافَة فليست تُنقَلُ على علاَّتها ما لم تُحَقَّق وتدَقَّق وتُنقَد قبل أن تعتَضَد, لكونها متَّصِلَة بماهِيَة الأمَّة وتكوينها, وبطابعها الخاص الذي ينطِلِقُ من الهويَّة ويعود إليها, إذ الأدب جزء من الثَّقافَة وليس علما مجَرَّدا كالهندَسَة وعم الحساب, فهو من مكوِّنات اللَّوحة الشَّخصِيَّة للأمَّة التي تجعل لها تميُّزا واستقلاليَّةً بينَ الأُمَم, ومحالٌ أن يجعلَ العاقل في بطاقته الشَّخصِيَّة عناوين غيره !

لذا؛ كُلَّما ذاب فردٌ من أفراد الأمَّة الواحدة في أمَّةٍ مغايِرَة, بدأت الاستقلاليَّة تنهار وبدأ النَّقدُ يذوب, وهو الخطرُ الذي ليسَ بالهزل ولو عند الشَّخص الواحد بمفرَدِه, إنَّه خطَرٌ معناه تفَتُّت الجهاز المناعي, وأخطر شيء هنا وأنكى منه الذَّوبان الجماعي.

وإذن؛ فالنَّقد المشارُ إليه من مسايرة المتشدِّق بلغة الآخر لأساليب تلك اللُّغة التي ينبهرُ بها هوى وتشَهِّيا, مكمنُ الشَّيء الأخطر الذي يرومُ النَّنبيه عليه هو الاقتناع اللُّغوي الفكري الذَّي يكون على حساب اللُّغَة في حدِّ ذاتها, وعلى أساس التَّضحِيَّة بالاستقلاليَّة الفكريَّة التي هي أهمُّ بكثير من الأفكار نفسِها, والتَّي لا يقوم الفكر الصَّحيحُ إلاَّ بها عند عامَّة العقلاء بله الفلاسفة, سواء كانوا مفكِّين ونقادا في الأدب والثَّقافَة وفي العلم.

ومعلومٌ أنَّ أصلَ التَّقليد هو المسايَرَة, وأنَّ أصلَ النَّقد المغايَرة, أمَّا التَّقليد فمجارٍ مسايرٌ ليس بقائد, وهو مع ذلك يقلِبُ القواعد, ويأتي الأصلَ يجعله فرعا, ويُحيلُ الأساس هامشا, فتمسي أقوال العلماء وأفكار الباحثين مستَدَلاً بها , وهي في الحقيقة من يحتاج إلى دليل, فإذا صارت الفِكَرُ مقبولَةً بلا بحثٍ ولا فتشٍ ولا عناء, متلقاةً بالمدح والثَّناء, مكتسيَةً صفَة الصِّحَة وجلبابَ الصَّواب بلا حُجَّةٍ ولا برهان, بل لمجَرَّدِ أنَّها صدرت من فلان الفاضل الكبير , الذي نعرفُه بين الغربيين في العلم طويل القامَة غيرَ قصير !, وأصبحت الأقاويل هي الدَّليل, وغدا القائل هو الدَّلائل, وثقُلَت كِفَّةُ آرائه بلا جحان, وتحوَّل الموزون إلى ميزان, فقد قُتِلَت الحقائق وجمدَت الحقيقة وزهقَت روحها.

من هنا تدرك النَّظر البعيد للأستاذ كنُّون في طرحه بعض الآراء, ومنعه من بعض الأشياء,

وتنبُّهه لأبعاد القضايا اليسيرة التي تبدو في أوَّل الأمر هيِّنة, ثُمَّ يَظهرُ للمنقِّب النَّاقد أنَّها لا تهدِمُ لبنَة, بل تهدِمُ أسًّا وأساسا!!

فلزم المنع من التشَدُّق بلغة الآخر مَنعًا يفيد في النَّقد بصفة عامَّة, وفي النَّقد الأدبي على وجه الخصوص.

هذا من ناحية الخلُقية النقدية، أما من الناحية الفنية فإنَّ اختيارات الأستاذ كنون في باب الشعر والنثر نافذة مطلة على أذواقه قبل أخلاقه، وعلى مناهجه خلال مباهجه، فالمرء إن ابتهج بشيء سمعه أو قرأه دل ذلك على فنيته في الاختيار، ومنهجيته في الانتقاء، وأوضح للناظر مادة الإعجاب، وما دعا إليها من أسباب، وفتح له إلى منهجه الذوقي أبوابا بعد أبواب.

وصدق الشاعر إذ قال:

قد عرفناك باختيارك إذ كا ** ن دليلا على اللبيب اختيارُه.

ومثال ذلك من أبو تمام، فإنَّ المنهج النقدي، والذائقة الفنية التي اختار وَفقَها قصائد حماسته وأبياتها, أشبه ما تكون بالمنهج الكنوني في تذوقة الذي على أساسه الفني انتقى قصائد كتابه النبوغ وأبياته، ومقاماته وخطبه وملحه وطرفه أي منظومه ومنثوره جميعا مما سماه المنتخبات الأدبية، تلك التي انتخبها انتخابا، وقسمها أبوابا، فلقد سار في عمليَّة الاختيار والانتقاء على منهج ذوقي رفيع كان له بمنزلة الغربال النقدي الذي استعمله أبو تمام واستطاع به استخراج عيون الأبيات والقصائد والمقطوعات في تأليفه العظيم "الحماسة"، حتَّى إنَّ من أرادَ بعدَهُ أن يعمل عمله ويتفوَّق عليه نالته الخيبة ورافقه الإخفاقُ فكان من المحرومين.

فمنهجه ذاك هو بعينه ما سار على مثله عبد الله كنُّون في كتابه " النبوغ المغربي" , بل لقد أضاف إلى حقل الأدب مساحَةً جعلها حماسَةً للخطب كما كانت من قبل حماسة الشعر, وهذا فنٌّ جميل وإبداعٌ فائق اقتضاه زمانه وساعدته عليه ظروفه المجتمعة في قضيَّة جهل المشارقة بتراث المغاربة الزاخر بروائعه في شتى حقول الأدب العربي, وبالإضافَة إلى

ذلك فقد جمع الناس من قديم الأمثال التي تقال في مناسَبة ما لغرض مُعيَّن , لكنَّ جمعَها على أساس من الاختيار لا على أساس من الإحاطَة والإكثار لم يوجد , وفيما عمله عبد الله كنون من جمعه إيَّاها بلطف عنايَةٍ وحُسنِ انتقاء كيما يُظهر لإخوان المشرق وللآخر أيضا عرائس شموع النُّصوص في هذه الرقعة الفسيحة من العالم العربي كان فاتحا باب حماسَة الأمثال إن صَحَّ التعبير , ويا لها من حماسات , ذلك أنَّ أخواتها معها من مقامات وحكمٍ مضَمَّنَةً في كتابٍ واحد هو " النبوغ المغربي" لعمري هو الإبداع في طريقة التَّأليف من جهة حتَّى لكأنَّك ترى مَتحفا يشمَلُ أنواع التحف الفنِيَّة على اختلاف أنواعها وأشكالها ومعادِنها المكوِّنة لهيأتها التي صارت بها تحفةً من التُّحف, ومن جهةٍ أخرى ذلك عينُ الإبداع في الإضافَة إلى السَّابقين الذين اقتصروا على الشعر غالبا في حماساتهم دونما سواه من الفُنون الأدَبِيَّة.

ولعَلَّ الذي دفع بالأستاذ كنون إلى سُلوك هذا النَّهج هو:

أوَّلا: ما رآه من تزَهُّد الأدباء عامَّة في أدب المغاربة إلى درجةٍ قاربت حيِّز الاحتقار بل دخلته إن لم نَقُل ولجت فيه, حتَّى من بعض أهل المغرب أنفُسِهم !

ثانيا: لأنَّ الأستاذ كان مشتغلا بتاريخ الأدب معطيا لشأنه وأحواله اهتماما بالغا, وحريٌّ بالذي ينتبه للتَّاريخ في قضِيَّة من القضايا أو حقلٍ من الحقول أو ما شئت من الفنون والعلوم أن يظفر بما لم يظفر به من ليس كذلك , إذ التَّاريخ مهمٌّ في النَّقد كما سبَقَ بيانُه , فالعمليَّة النَّقديَّة وملكةُ النَّاقد تتقوى كُلَّما غدا صاحِبُها مكثرا من العلوم متفنِّنا فيها, ولا يخفى أنَّ الإنسان لا يُفَكِّر إلاَّ من خلال المعلومات, فكلَّما ازداد علما وتنوَّعت معارفه اتسعت دائرَةُ تفكيره وانتعشت طريقةُ رؤيَته للأشياء بتعدد زوايا النَّظر, وبذلك تتطوَّرُ ذائقته الفنِيَّة كتطوُّر ذوق للطَّعام أو المشروب كلَّما أضيفَ إليهما مادَّةٌ من المواد المغذِيَّة, فالمرء أبدًا يفكِّرُ في نطاق ما يعلمه, وتلك قضِيَّة أثبتها الواقع قبل أن تبرهن عليها الفلسفَة ويتناولُها أهل الشَّأن بالإيجاب , على أنَّه ما أَقَلَّ الذين جمعوا بين التَّأريخ للأدب وبين النَّقد لتتوسَّع نظرتُهم النَّقدِيَّة في هذا الزَّمان.

المنهج التاريخي اللغوي في إطاره التراثي:

لم يكن الأستاذ كنون ينظر إلى التراث العربي بين تراث كُلِّ أمَّة, كما ينظر مشجِّعوا كُرَة القدم لا يهُمُّهُم إلاَّ انتصارُ فريقِهِم كيفما كان الأمر !, كلاَّ, بل كان ينظُرُ إليه على أنَّه إنتاجٌ مهما كان إنَّما هو بشري, فلا بُدَّ أن يعتريه ما يعتري البشر من نقائص, بيدَ أنَّ هذا النَّقص لا يُحيلُ الإنسان حيواناً, حتَّى ولو قيل إنَّه أليف, فكيف بالمفترس, فما لأولئك الذين يخافون من الالتفات إلى التُّراث العربي كأنَّه سبُعٌ يأكُلُهم !, لكن طالما كرَّر الأستاذ أنَّ من لا ماضِيَ له ينظُرُه؛ لا مستقبلَ له ينتَظِرُه.

إنَّ اضطلاع الأستاذ بمعرفة التاريخ أتاح له السياحة في رحاب الأدب بوحي من تلك المعرفة، فقد لزمته ولزمها حتى ظهرت صبغتها على آدابه، وتبدت آثارها في رؤيته النقدية، بحيث خرج منهجه وفيه من التاريخ جينات، ومن المادة التاريخية مكوِّنات.

إنها المواد المنصهرة في كيانه المعرفي تختلط وتنمزج وتتفاعل مع غيرها من المواد مشكلة في الأخير المنهج الكنوني الذي هو مزيج زوايا في النظر، وآراء وفِكَر، معطيةً في نهاية استقرارها وختام تشكُّلها؛ لونها المُبَيَّن، ووسمها المُعَيَّن، وبصمتها الظاهرة.

ومن تجليات هذا المنهج في مادته العلمية لدى الأستاذ، أنه قام ببحثٍ مؤصَّلٍ دقيق ([246]) فكرَّ بالنَّقد لبعض المستشرقين الخائضين في القضايا الفكريَّة المُتَعَلِّقَة باللُّغَة, فإنَّ "المستعرب الفرنسي الشهير جورج كولان الذي كانت سلطات الحماية الفرنسية ترجع إليه وتستشيره في المسألة اللغوية بالمغرب، قد كتب هذا المستعرب في الأربعينيات بحثًا عالج فيه مشكلة اللغة في المغرب واستبعد ما كان يطالب به الشباب المغربي المثقف من نشر الفصحى واعتبر إحلال الفصحى محل الدارجة أمرًا عسيرًا واقترح - فيما اقترح - حلَّين:

أحدهما " تعميم الدارجة التي يفهمها الجميع واتخاذها كلغة للثقافة".

والآخر هو "تعميم اللغة الفرنسية في المغرب وجعلها وسيلة للثقافة وحدها".

وقد أثار هذا البحث ردودًا في الصحافة المغربية والمصرية، ورد عليه الأستاذ المرحوم عبد الله كنون ردًا جميلاً دافع فيه عن الفصحى وانتقد ما ذهب إليه كولان من أن عامية المغرب هي أبعد عن الفصحى من عامية مصر والشام والعراق وقرر أنها من أقرب

---

246 - يُنظَر "التَّعاشيب" من ص 119 إلى ص 135.

اللهجات إلى الفصحى لكثرة ما تشتمل عليه من التراكيب الصحيحة والكلمات الفصيحة، وساق طائفة من هذه الكلمات. وختم رده بأن بحث كولان المذكور أملته عليه السياسة وأنه كشف فيه عن نوايا الاستعمار الذي كان يعمل جاهدا على إضعاف اللغة العربية وإهمالها"([247]).

بيد أنَّه لا يفهَمُ من هذا أنَّ التُّراث الشَّعبي بطابعه الخاص, وأدبيَّاته المميَّزة إلاَّ شيئا ملغى في الفكر الكنوني من ساحة الإبداع, بحيث لا عبرة به ولا التفات إليه, كلاَّ؛ إنَّ الأستاذ قد فرَّق تفريقا تطبيقيًّا فيما أبداه من أعمال و أصدَره من بحوث؛ بينَ الإضرار بالفصحى لأجل العامِيَّة, أو الاعتناء باللَّهجات على حساب الفصحى لتغدو هي الضَّحِيَّة وكبش الفداء, وبينَ رسمِ خطَّين لكليهما بحيث لا يتعارضان ولا تقطع إحداهما سبيل الأخرى, فالنَّظر إليهما يكون بعينين لا بعين واحدة, حتَّى وإن كان لجناب الفصحى الحضوة والتَّقديم, فإنَّ تكريم الفاضل لا يعني الإجحاف بحق المفضول, فهذا هو الرَّأي الذي اقتَضَتهُ راجحات العقول.

من هنا كان "الباعث على الاعتراض الذي كان لدى الوطنيين المغاربة على تعليم اللهجات ودراستها هو الخوف على اللغة العربية الفصحى مما يضارها وينافسها فإذا انتفى هذا السبب فلا بأس من الالتفات إلى اللهجات والاعتناء بتراثها؛ لأن في هذا إغناء للفصحى وثراء للهوية. ومن هنا وجدنا الأستاذ المرحوم محمد الفاسي .. يخرج بعد الاستقلال أعمالا متعددة في الأدبيات العامية واللهجات العربية والأمازيغية كالأمثال العامية والحكايات الشعبية والأزجال المغربية التي تعرف بالملحون، وقد توج هذه الأعمال بإخراج معلمة الملحون التي نشرتها أكاديمية المملكة المغربية في عدة أجزاء .

كما أن الأستاذ "المرحوم عبد الله كنون.. قدم.. بحثًا عنوانه: عاميتنا والمعجمية ([248])، سرد فيه طائفة من ألفاظ العامية المغربية التي توجد - كما ينطقها المغاربة - في المعاجم العربية القديمة وقد رتبها على حروف الهجاء" ([249]).

---

[247] - أ. د: محمد بن شريفة "حول معاجم اللغة العامية المغربية -عرض تاريخي-", مجَلَّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة, صفر 1422هـ - مايو 2001م, العدد: (91).

[248] -يُنظر عبد الله كنُّون "خل وبقل" من ص59 إلى ص 87.

[249] - أ. د: محمد بن شريفة "حول معاجم اللغة العامية المغربية -عرض تاريخي-", مجَلَّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة, صفر 1422هـ - مايو 2001م, العدد: (91).

فهذا؛ من وضع الأشياء في مواضعها, واستقاء المياه من منابعها, إذ لا يمنع الخوف من استعمال شيء فيما يضُر؛ من استعماله فيما ينفع, خصوصا إن كان للمستعمل ثقَةٌ تُمَكِّنُه من جلب المنفعة ودرء الفساد, وهو الرَّأي الذي يزكِّيه الرَّشاد وتُمليه الحكمَة, والذي يلتقى بالإضافة إلى ذلك بآراء أهل الوسطِيَّة في الفكر والمعرفة, وفي هذا الصَّدد يقول الأستاذ عبد الملك مرتاض مُبَيِّنا قبل أن يستدرك:

"إِن البحث في لهجة من اللهجات العاميَّة، لا يُعَدُّ بالضرورة دعوة إِليها، ولا إِغراءً بإِحياءِ ما اندثر منها، ولا دفعًا إِلى استعمالها في الكتابة " ثم يستدرك قائلاً: " وإِن كنا نؤثر أن لا يربأَ الكتَّاب عن استخدام الأَلفاظ الفصيحة المستعملة في العامية للتقريب بينها وبين الفصحى " ([250]).

وهذا من النَّتائج الطَّبيعِيَّة التي تستفاد من بحث كنُّون عن الألفاظ العامِيَّة الفصيحة, لأنَّ كونها فصيحة يعني لا حرج على الأقل من استعمالها في الكتابة, فكيف إذا كان توظيفُها في المزبور, وإحلالُها بينَ السُّطور يَدُلُّ أوضَح الدِّلالة على عربيَّتها وأنَّها عن اللَّحن بمعزل, ذلك ما يكون فيه الغناء عن الإشارة إلى أنَّها من الفصحى, فكيف إذا نبَّه عليها الكتَّاب في الهوامش, إنَّ ذلك لن يعدَّ إلاَّ من قبيل الكلمات التي هي من الفصحى العالية فيستعملها أهل البيان في تعبيراتهم كيما يَدُلُّوا القرَّاء عليها ويفيئوا بألسنتهم إلى أفضَل موئل, ويرتقوا بعربيَّتهم نحو أعلى منزل.

بل؛ قد تحدث الأستاذ عن الفصحى وما لاقته في مختلف البلاد الإسلامِيَّة قائلاً: "وهي وإِن لم تنهزم قط في هذا الصراع الطويل، فقد خلَّف ندوبًا اتسعت كثيرًا في لغة التخاطب حتى نشأَت عنها هذه اللغات أَو اللهجات العامية على الصحيح المستعملة في كل قطر من الأَقطار العربية بما بينها من تقارب أَو تباعد.

أَما لغة الكتابة فقد قيَّض لها في كل زمان ومكان من يردّ خطأَها إِلى الصواب ..." إلى أَن يُتَمِّمَ موضِّحا: "سلسلة المؤلفات الموضوعة في هذا الغرض من درة الغواص في أَوهام الخواص للحريري، إِلى لغة الجرائد لليازجي، وغيرهما"؛ قائلا:

---

[250] ـ د. عبد المالك مرتاض " العاميَّة الجزائريَّة وصلتها بالفصحى" نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر, سنة 1981م, بواسطة "العامية عاميّات والوالجون حمآتها: أنماط" د. عدنان الخطيب، نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد: 66، بدايةً من ص29.

"غير أَن هذه المؤلفات إِن كانت ترد خطأً الاستعمال في المفردات والتراكيب إِلى صوابه... فإن غرضنا من هذا البحث هو - على العكس - محاولة رد بعض المفردات وربما التراكيب أيضًا التي فشا استعمالها في العامية المغربية - وقد يظن أَنها خطأً - إِلى أَصلها من الصواب والتنبيه على وجه ذلك" ([251]).

وليس وحده من رمى إلى عكس غرض الحريري, فقد سبقه إلى ذلك محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلي الحلبي حين ألَّف كتابه "بحر العوام فيما أصاب فيه العوام",وردَّ فيه على ما أورَدَهُ الحريري في دُرَّة الغوَّاص.

إنَّ من المنهج القويم في نقد الألفاظ النظر إلى تاريخها كيما تعرف المعاني الطارئة عليها والحقول التي مَرَّت بها, بحيثُ لو سألنا قائلين؛ إلى أيِّ مدى يحتاجُ الناقد الأدبيُّ إلى العلم بتاريخ الأدب في عمليَّة النَّقد؟ لكانت الحصيلة المعرفية التي امتلكها الاستاذ كنون هي الجواب.

و"لعلَّ أهَمَّ ما ينبغي علينا أن نُمَحِّصَه حركة الكلمات. هذه الحركَة كانت تظهر بوضوحٍ أكثَر في حديث المفسِّرين. لا شَكَّ أنَّ مفهومَ التَّأصيل لم يكُن يتحاشَى هذه الحركَة, ولكنَّه يعتبِرُها من بعض الوجوه حافِلَةً بالخَطَر. لاحظ المتحدِّثون في أصول التَّفسير أنَّ حركَة الكلِمَة قد تكون قرينَة الرِّيح العاصف, كان سلطان الفكر قائما على القياس. في جوِّ التَّفسير القرآني خاصَّة لا يحول التَّأصيل دونَ الإصغاء إلى حيويَّة الكلِمَة" ([252]).

ثم إنَّ من تلك الالفاظ التي يتحتم النظر إليها تغيُّر دلالاتها في التاريخ لفظ الرَّجعيَّة مبينا أنَّه تطوَّر عبر الزَّمن وصار كُلَّ مَرَّة يكبُرُ معناه ويتضَخَّم من القصد به إلى فئةٍ من الناس ينتمون إلى السَّلَف, إلى القصد به إلى الحضارة العربيَّة الإسلامِيَّة بوجهٍ عام, بحيثُ صارَ يُطلَقُ من أهل الحضارة الغازيَة الأروبِيَّة إذ تصِمُ كُلَّ من أراد الرجوع بالمسلمين إلى عهد حضارتهم الزاهرة في القديم و بدعوتهم إلى العودة إلى مفاهيم الدين في عصر النبوَّة الأنور قبل قرون, صاروا يصفونه بالرَّجعِيَّة لا من الرجوع بل من الانحطاط والتخلف والمهانة

[251] - عبد الله كنون "عاميَّتنا المعجمية" بحث منشور في Tamuda, تطوان, السنة الثانية للفصل الأول, سنة 1954م, ص34، بواسطة "العامية عاميّات والوالجون حمآتها: أنماط" د. عدنان الخطيب، نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد: 66، بدايةً من ص29.

[252] - د. مصطفى ناصف "النَّقد العربي: نحو نظريَّة ثانِيَة",نشر عالم المعرفة, مارس 2000, ص 59 .

والجاهليَّة والتقوقع والانحصار وضيق العقل وما إليهما من المعاني المترادِفَة المتحالِفَة المركَّبَة التي تصُبُّ في معنى سَلبيٍّ عامٍ واحدٍ يجمعُها.

وتلك فائدَةُ التاريخ في معرفَة الألفاظ ومن ثَمَّة نقدُها, إذا لم تستعمل في موضعها, فيجحف المستعمل لها إجحافا إذ يوردها في غير مواردها من حاقِّ مقاماتها التي بها تليق, وهيَ مهمَّة الناقد الذي لا يساعده في أكثَر ذلك شيء هاهنا غير التاريخ.

لقد " كانت هذه الأمَّةُ خليقَةً أن تعمَدَ إلى هذه الألفاظ المستحدَثَة, فتعرفُ تاريخَ مجيئها إلى استعمال أهل اللِّسان العربي, ومَن أوَّلُ مَن استعمَلَها ؟ ولمَ استعمَلَها ؟ وفي أيِّ غرَضٍ كانت تقال ؟ وأيُّ زيادَةٍ لَحِقَت معناها الأوَّل ؟ وذلكَ لا يتمُّ إلاَّ بتَتَبُّع الصُّحُف والكُتب,واستخراجُ المواضع التي ذُكِرَت فيها مؤرَّخَةً. وإذا فعلنا ذلكَ عرفنا مصادِرَ هذا اللَّفظ,وحدَّدنا معانِيَه في زمَنٍ بعدَ زمَن, وأدركنا أَثَرَ استعماله في تجلِيَة المعاني, أو زيادَتِها غموضا وفسادا" ([253]).

المنهج النفسي:

الناقد كالطبيب ولا سيَّما إذا كان طبيبا نفسانيا متمرِّنا ذا خبراتٍ متعدداتٍ وتجارب, وله في عمليَّته النقدية الطبيَّة نفسِيَة مشرقة غير محرقة تحيط بها الأضواء الأهداف و محاسن المشارب, فهو حينئذٍ لا يصفُ الدَّواء حتَّى يُشَخِّصَ الدَّاء, وتراثُنا اقتصَر عَمَلُ النُقَّادِ فيه على بيان النقص وإظهار الخطأ دون إعطاء ما يكمل النَّقص ويصلح الخطأ, خلافا للقاعدَة النَّقديَّة البارعَة, القويمَةِ الرَّائعَة التي أرساها النابغة في سوق عكاظ وأعطانا نموذَجا حيًّا منها لمَّا نقد حسَّان بنَ ثابت رضي الله عنه قبل الإسلام: حيث بيَّن له الغلط وأشار عليه بما يصلحه, وقدَّم له ما يسُدُّ الخلل من جميل اللَّفظ وبارع الكلمات حتَّى لا يبقى نقصٌ في معنى, ولا يدنو شرفٌ في بيت من القصيد.

والمنهج النَّفسي يعتمد "دراسة دخائل النفس لا تعني تشخيص "المرض" لدى الفنان من أجل

253- "أباطيل وأسمار"لمحمود محمد شاكر, مكتبة الخانجي, القاهرة, ط3 سنة 1426هـ/2005م, (ص400).

التحليل النفسي ذاته؛ وإنَّما هي وسيلة لفهم طبيعة المنابع التي فاض الشعر عنها" ([254]).
إنَّ رواد المدرسة النفسية يرون أن الإبداع الأدبي تعبير مباشر عن شخصية الأديب، فهو وسيلة تساعد على الكشف عن شخصيته ومعرفة حياته معرفة شاملة ودقيقة، ولكن منهج هؤلاء الرواد أكثر فائدة لعلم النفس من فائدته للأدب والنقد.

وفي هذا الإطار وبخصوص الكلام في مضمار علم النفس المستوحى من التجارب، فإننا نبين أن الأستاذ لم يعتمده اعتمادا بل اعتمده اعتضادا في المنهج التكاملي الذي سيجيء الحديث عنه، ولئن كان قبله وفق رؤيته الشخصية المدللة، إلاَّ أن إخضاع الأدب والإبداع والفن شعرا ورواية إلى سطوة المنهج التجريبي لا يسوغ ولا يجوز، لهذا نحن نتكلم عنه في موقعه المناسب هاهنا دون أن نعده منهجا يقابل المناهج الأخرى في الأدب فيمسي صنوا لها، إن التجربة العلمية الصناعية في دنيا التكنولوجيا لا تطبق على الأدب بحال وإلا فنحن نهزل والناس جادون، ولست أمثلها إلا بتقسيم العصور الأدبية بين عصر نهضة وعصر انحطاط عند بعض الغربيين من المستشرقين الباحثين في ثقافتنا بفكرٍ أجنبي عنها وعقل عدو لها معارضة وتمحلا، ومشاكسة في أحيان شتى وتطفلا، لست أمثل لذلك سوى بجعل أحد الأدباء الأعاجم مراحل تاريخنا الأدبي إلى "مرحلة ذهبية وفضية وبرونزية وحديدية" فما هذه المهزلة، إنَّه والحق أقول؛ لكلام يضحك الثكلى لتفاهته، فضلا عن تجاهله مرونة الأدب لمرونة النفس الإنسانية التي أوحت به ولم تكن لتخرج من مرحلة إلى مرحلة كخروج قطعة نقدية ذهبية كانت أو حديدية من جيب صاحبها غير تاركة وراءها شيئا من عناصرها وجزءا من أجزائها فإذا بمن خرجت من جيبه قد أمسى فقيرا بعد غنى، أيمثل للمراحل فتقاس أشياء مرنة معنوية على قطع جامدة تنتقل برمتها فتلحق بها المعنويات ضرب لازب، وإنها لعجائب.

وبعد فالمنهج التجريبي وإخضاع الأدب الروحي لجموديته قد انتقده الأستاذ كنون، ونحن ندلف هاهنا ببيان ذلك في عجالة.

---

[254]- إحسان عباس "بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره" دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 4، سنة 1978م، ص 3-4.

نقد المنهج التجريبي البحت:

من طغيان المادَّة أنَّها تسلِبُ الفكر حُجَّتَه, وتُعطِّلُ دورَته, وترميه في بحر الرُّكود, فلا يعود بعدَها إلاَّ فكرا عامِيًّا لا يقرر غير ما يرى, ولا يقتنع سوى بما تبصرُه العين المُجَرَّدة, والتجربَة الملموسَة المحَدَّدة, ويكونُ حينها عقلا منعوتا بالقِلَّة والضَّعف والقُصور, مَثَلُه مَثَلُ العوام من البشر الذين جاءت الحكمَة من قديم لتقول موضِّحَةً حالَهُم, وناقِدَةُ إيَّاهُم: "العوام عقولهُم في عُيُونِهم" !

وبرُغم ما أبدعت فيه الحضارة الغربيَّة وما قَدَّمته للثَّقافَة العربِيَّة في مجال الأدب والنَّقد إلاَّ أنَّها من وجهَةٍ أخرى لم تعدو أن تكون أحد نتائج الأفكار التي يجبُ غربلتُها ونخلُها ووضعها في القالب المناسب لما يتواءم وماهِيتنا, ويتلاءم مع جنسيَّتنا الثَّقافِيَّة, إذ العلم عام والثَّقافَة خاَصَّة , والعلم لا هويَّة له, والثَّقافَة هيَ الهوِيَّة, وهي المقوِّمات وهي الشَّخصِيَّة بما فيها من لغة ودين وتاريخ ومثلٍ عليا وأخلاق وسلوكات وأفكار و ومبادئ ومفاهيم, بيدَ أنَّ من ضعف الأمَّة العربيَّة في حسن الاستفادة من الغرب, وتهلهُلِ عزيمتها في نقد ما يصلُها من العالم الآخر, وانحراف منهجِيَّتها أَن تحوَّلَ تركيزها من محاولة تصفيَة ما يردُها إلى محاولَة الاجتهاد في تطبيق أفكار الأمَّم المتقَدِّمَة على منتوجها الفكري الأدبي بجميع أجناسه, وإذا بوادي الاهتمام –على قلَّة مائه- يتغيَّرُ مجراه ليصُبَّ في غير ما ينبغي له, بل وما يجبُ عليه, فبدَلَ وَضعِ الجهد في الغربلة حتَّى لا يبقى السَّميذ مختلطا بالتراب, راح الكثيرُ مِنَّا يضع الماء مباشَرَة على المادَّتين ليعجنهما عجنا, ويُقَدِّمَهُما على أنَّهما في دائرَة الإشباع والإبداع فنَّا , وهما بحالتهما هذه لا الملح يَقبَلان, ولا هُما يصلُحان, فربَّ نهشَةِ طاعِمٍ التقت بحبَّات تراب فَكُسِرَت سِنُّه, فأينَ النَّقدُ إذن وأينَ فَنُّه؟!

إنَّ العاقل لا يزرع بذوره في أرضِيَّةٍ لا تُلائمُها, ولا يطعم جسده حتَّى يستيقن من صلاحِيَّة الغذاء, خوفا من المرض, فكيفَ يملأُ فكره بما فيه داء, كأنَّما الدَّاء من الوجود انقَرض, فالأخذ بالعبرة والاعتبار من أساسيات النَّقد في الآداب والفلسفات والأفكار, ولأمرٍ ما قال تعالى:{ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}[عبس:24], ينظر إلى حاله ومآله وكيف يصير, فما بالُك بالطَّعام الفكري الذي فائدَتُه أكبر, في الوقت الذي مضَرَّتُه أخطَر, على نحو ما قال ابن باديس إبَّان الاحتلال الفرنسي: "إنَّ ما نلاقيه من الجهل أكثر ممَّا نلاقيه من الموت" !!

لقد وضَّح هذا الأمر الأستاذ كنُّون جَيِّدا, إذ سرت العدوى في سلبيات الأمور من الغرب إلى الأمَّة العربيَّة فتأثَّرت تأثُّرا واضحا , وتأخَّرت تأخُّرا فادِحا , غيرَ أنَّ "ما ملكَ عليها لُبَّها, وجَرَّدَها مِن خصائصِها؛ هذه المنهجِيَّة العلمِيَّة المزعومة التي تتنَكَّرُ لكُلِّ ما لا يَقَعُ تَحتَ الحِسِّ, ولا يخضَع للتجربَة العلمِيَّة, ولو كان حقيقَةَ الحقائق" ([255]).

فهذا هو المنهج الذي انتقده لأجل مغالاته في الاعتداد بالمادَّة وبالظَّاهر لدرَجَة إهمال ما وراءَهما من حقائق, و هو ما جَلاَّه صراحَةً الأستاذ في كَرِّه بالنَّقد على المذهب الظَّاهري الذي لم يجد لنفسه الرَّواج في الأمَّة, فالأستاذ ينظرُ إلى المنهج التجريبي بمفهومه الواسع علمِيًّا فيما هو من الصِّناعيات, وأدَبِيًّا إذا ما سُلِّط على البحث في الكلام شعرا ونثرا معوِّلا على الظَّاهر فقط, ذلك هو المنهج الذي أصلُه النَّزعَةُ المادِيَّة, فتجِدُه يقصي الرُّوح ويجعل الملموس أساسا في الدِّراسَة والنَّظر مهملا ما عداه من ثوابت لا يراها البصر وإن لم تخطِئها عين البصيرَة !

فيرى الأستاذ كنُّون أنَّ الباحث عن الحقيقة الجادِّ في طَلَبِها يكفيه أنَّ الأمَّة على مَرِّ تاريخها الطَّويل لم تحظَ بالانتشار بينها غير المذاهب التي تأخذ بالنَّظر والقياس؛ واصفا المذهب الظَّاهري بـ : "المذهب المتَحَجِّر ... الذي لم يحظَ بالقبول في عصرٍ من العصور, فكيفَ يطمَعُ في أن يَحُلَّ محَلَّ المذاهب الأخرى في هذا العصر الذي يطبَعُه الرَّأيُ الحُرُّ والبحث

[255] - عبد الله كنون "جولات في الفكر الإسلامي", ص5 .

العلمي"([256]).

فلا جرَمَ أن المقتصرين في نظرهم إلى الظواهر هم من أصحاب "اليد القصيرة" التي تتناول ما تمسكه, وما بَعُدَ عن عينها أو خفيَ على نظرها لا تُدركُه , وليتها تكتفي بجهلها إيَّاه بل توغل في الخطَأ حتَّى تنفيه, وبذلك تجعل النَّفيَ علماً, عكس ما هو مقرَّرٌ في القواعد والعقول, من أنَّ : "عدم العلمِ بالشَّيء ليسَ دليلا على العلم بالعدَم".

وفي سياق متَّصِل بنتائج المنهج التجريبي المادي بروز ذلك النظرية البنوية التي نستشِفُّ من كلام الأستاذ كنون في مجموعه أنَّه ينكر منها ما يُنكر كشأن عامَّة المتحررين من النُقَّاد والأدباء, ويكفي في ذلك قول العلماء القدامى: " مَنْ طَلَبَ المعاني في المَباني فقد هَلَك".

وهذا تنويةٌ بوجوب تحكيم الحال في الحكم على النَّصِ و المقال بالبلاغة أو الركاكة أو تحديد وجهٍ من أوجه معانيه لتَصِحَّ الأحكام , و إشارَةٌ إلى لزُومِ الأخذِ بالسِّياق لفهم الكلام .

المنهج الجمالي التكاملي:

إنَّ المعيار النقدي الجامع هو المنهج التَّكاملي الجمالي, الذي يبدأ من الحرف وينتهي بالصورة, ويجمع إلى عمله كلَّ ما احتاج إليه بله ما دعت إليه الضَّرورة، موظفا غيره من المناهج نسقا وسياقا، تعاونا ووفاقا، مرادفا بين المنهج الفني الخلقي وبين المنهج النفسي التأثيري، قاطفا ثمار المنهج التاريخي ليغذي بها المنهج التكاملي تغذية روحية جمالية.

إنَّ الاهتمام بالقضايا الجمالية والفنيَّة غالبا ما توفر في المناهج التي تعتمد فحص (الكلمات على الصَّفحة). وقراءة النص الأدبي قراءة أسلوبيَّة تحليليَّة لغوية موضوعيَّة, تكشف عن العلاقات وتضيء جوانب العمل الأدبي من الدَّاخل, إضاءة تكشف عن معناه من الحقيقي, متجاوزة الاتجاهات النَّقدِيَة التي كانت سائدة –آنذاك- من مثل النَّقد الاجتماعي والتاريخي والنَّفسي .. ألخ. ومن هنا شكَّلت الاتجاهات الأسلوبيَّة والألسُنِيَّة التي تعتمد

256 - المرجع نفسه, ص 6 .

(التَّحليل اللَّفظي) و(مفهوم المعادل الموضوعي) و(النَّقد الجديد) مناخا عامًّا انضوى تحت اسم (النَّقد الموضوعي)" ([257]).

فهذا النَّقد اللُّغوي التحليلي هو تقريبا ما عناه الأستاذ شاكر بل لقد عنى ما هو أعمق وأدق, حيث ان النقاد يختلفون على الصورة البيانية وهي مركبة من ألفاظ ويختلفون على اللفظ وهو مركب من حروف، فإذا أردنا التحليل الدقيق والنقد الواعي العميق وجب علينا البدء بالحرفن لانه اللبنة التي يقوم عليها والأساس الذي يبنى على أكتافه صرح البيان، وتنجز من مادته أي صورة بلاغية أو فعل بياني.

إنَّ عدَّ الكلام فعلا في حدِّ ذاته وليس مجرَّد قولٍ يقابلُه الفعل, هو نتاج محاضراتٍ ألقاها ج.ل. أوستين الفيلسوف الإنجليزي في جامعة هارفرد سنة 1955م، عُرفت بالنَّظريَّة الأوستينِيَّة, "نظريَّة الأعمال الكلامِيَّة" = speech acts المتعلِّقَة بتَداوليَّة اللُّغَة في حقل الفلسفَة التحليليَّة, وأساسُها اكتشاف نوع خاصٍّ من الملفوظات هي الملفوظات الإنجازيَّة التي لها خاصِيَّة القدرة على تحقيق الفعل, ومحاولة الاعتداد بها والانتباه لها, ويضرب أوستين مثالا على ذلك, فأن تقول: "أعدكم بالحضور" فهذا واقعيًّا إنجاز عمل, عمل الوعد, لكن يمكن أن يتِمَّ الوعد بطرُقٍ أخرى كأن تكتفي بقولك "سآتي", فبجانب الإنشائيَّات الصَّريحة انتهى إلى الاعتراف بوجود إنشائيَّات ضمنِيَّة أو أولِيَّة" ([258])، ولا شَكَّ أنَّ "الكلام" يتمثَّل في تبليغ الغير بعض المعلومات عن الشَّيء الذي يتمُّ الكلام في شَأنه, لكنَّه يتمَثَّلُ أيضا في "فعل" أي محاولة التَّأثير في المخاطب, بل في العالم المحيط, عن طريق ألفاظ إنجازيَّة هي من قبيل الإنشائيات الصريحة في أحداث الفعل بالقول, وليست التي تُحدِثُ الفعلَ ضِمنِيًّا.

بيدَ أنَّ نظرَةً عُجلى في التُّراث العربي تفيدُك بما أنتجته هذه النَّظريَّة الأوستينِيَّة وزيادَة , وبأجود البيان وأحسن التَّدقيق والإفادَة؛ مِمَّا يشمَلُها سِحرُ البيان, ذلك المؤثِّر في المخاطب السَّالب للبِّه الماسك لزمام مشاعره وقلبه, والمتسَلِّط بالتغيير والتحوير والتطوير على قناعاته, في ناحِيَة المفاهيم والمشاعر والأحاسيس التي يسكُبُها الكلام البليغ في نفسه وفؤاده

---

257 - محمد عزَّام "النقد الموضوعي في النقد الأدبي" منشورات اتحاد الكتَّاب العرب, سنة 1999م, ص5.

258 - باتريك شارودو و دومينيك منغنو "معجم تحليل الخطاب", ترجمة عبد القادر المهيري وحمَّادي صمُّود, دار سيناترا, تونس, سنة 2008م, (ص20-21).

ويطرحُها وقَّادَةً محرِّكَةً لضميره.

وقد أشار شارودو إلى أنَّ أعمال اللُّغة تتأسس على أربعة مبادئ هي: مبدأ الغيريَّة أي التَّفاعل الخطابي بين الباث والمتلقِّي, ومبادئ التَّأثير, والتَّعديل والإفادَة ([259]).

وكان حسنا أن اعترفَت هذه النَّظريَّة بأنَّ تجديدها يقتصر على انتباهها لأمر الألفاظ الإنجازيَّة المحققة للفعل القولي, وإن كان القول في اللغة العربيَّة يطلق على العمل, بدون حاجَةٍ إلى هذا التَّصنيف, وذلك حين قالت:

"أن يُمكِنَ للمرء إنجازُ فعل بواسِطَة اللُّغَة فهذه ليست فكرَةً جديدَة" ([260]).

فالقَضِيَّة التي أتت بها اصطلاحِيَّةٌ أكثَر منها إبداعُ معان, فقديما قال الجاحظ:"المعاني مطروحة في طريق", ولكن يؤخذ عليه أنَّ قوله هذا ليس بالمطَّرد الذي يعني الصِحَّة المطلَقة, فهو صواب بيدَ أنَّه ليس على إطلاقه,فاستخراج النظريَّات العلميَّة واستنباط المعاني والصُّور البيانيَّة التي لم يقلها قائل كمثل ما سبق به المتنبي عامَّة الشعراء من إبداع صورٍ خيالِيَّة تعبيريَّة لم يقلها أحدٌ قبلَه, ذلك كلُّه غير مطروحٍ في طريق, لأنَّ أجزاء الفكرة حتما هي مطروحةٌ في طريق, لكنَّ تنسيقَها وترتيبَها والتَّأليف بينها على مستوى الفكر فحسب, وإقامتها تصحيحا وتنقيحا في حيِّز المعاني بصرف النَّظر عن الألفاظ هذا التَّأليف هو عمَلٌ خاصٌ ودقيق, تتصَرَّفُ فيه الأنظار بالتقليب والتنميق, وتصنعُه أيدي القريحة وليس مطروحا في طريق, فأجزاء الصورة قد يلتقيها المرء عند سيره في ساحة الأفكار معروضَةً جاهزة, أمَّا أن يجدها مؤلَّفة منسَّقَة على نظام معيَّنٍ ورسم محدَّدٍ فهيَ الجائزة التي لا سبيل إلى أن يطمع بها إلاَّ أن يجتهد وينصَب, ويُعنِتَ الفكر ويَتعَب, لينال غرضَه قصدًا لا اتفاقا, وعمدا دون مصادَفَة.

---

259 المرجع نفسه؛ ص 35 - 36 .

260- المرجع نفسه؛ ص 20 .

غير أنَّ قمة البيان آتية من القرآن، والذي ألمح في حروف سوره المقطعة، أنَّه مؤلف من مجرد حروف ولكن من ذا يستطيع أن يتكلم مثله، رغم أن الحروف موجودة في كل الطرق، فكأن القرآن يقول لنا في "ألم" ها هي الألف واللاَّم والميم حالة بكل لسان ومرتحلة معه بل جاثمة فيه قائمة على رأس لسانه وحافة بيانه فمن يقدر أن يتناولها وهي طوع راحتيه، أو يطلق العنان لها ليضرب كل حرف منها بجناحيه!

وإذن؛ فالحروف هي المطروحة في طريق، ولن تصل منها إلى المعاني إلا إذا ربطتها في كلمات ثم ربطت الكلمات في جملة ثم ربطت الجملة في جمل لتكون نصا، فأين الطريق حينئذ، إنها طرق لا طريق!

وهكذا فالحروف أشياء ممثوثة يحملها كل لافظ، أمَّا المعاني فليست ألقاء مجردة يحوزها كل لاقط، بل القرآن ذكر الحروف ولم يذكر حتى الكلمات التي هي المعاني الصغرى إن صح التعبير، لانه معلوم أن العرب على اختلاف لهجاتهم كانوا يعرفون كل الحروف العربية وينطقون بها، لكن مادتهم اللغوية من حيث الكلمات يزيد بعضهم على بعض فيها، ويتفاوتون في معرفة مفردات اللغة بوجه عام، ويجهل من كان في هذه القبيلة قدرا من مفردات القبيلة الأخرى، والعكس صحيح، فإذا كان هذا في المعاني الصغرى كما أسلفت؛ فكيف بالمعاني الكبرى التي بيَّنت.

إن من اتخاذ المنهج التكاملي في الرؤية أن كتب الأستاذ كنون كتابه معارك وضمَّنه الرد على المستشرقين في تهمهم وشبهاتهم عن القرآن الكريم, ومقوِّمات لغة الحجاج وأسلوبه وطريقة عرضِه , وكيفيَّة نقد الخصم قرضه, بين التلاعب باللغة واستعمال "الأحكام القيمِيَّة (= الذاتِيَّة, الانفعاليَّة)" ([261])، والأحكام الواقعيَّة باستعمال اللغة الطبيعيَّة الخالية من المرواغة، والتي يقصد بها التأثير وتصبغ بصبغة الحجاج، بل هناك من يعتقد أنَّ التَّأثير في اللغة جوهري، وهذه "نظريَّة الحجاج في اللُّغة" = (L'argumentation dans la langue), التي وضَع أُسُسَها اللغوي الفرنسي أزفالد ديكرو (O. Ducrot) ... تنطلق .. من الفكرة الشَّائعة التي مؤدَّاها: "أنَّنا نتكَلَّمُ عامَّةً بقصد التَّأثير", وهيَ تحاول أن تُبَيِّن أنَّ

[261]- باتريك شارودو و دومينيك منغنو "معجم تحليل الخطاب", ترجمة عبد القادر المهيري وحمَّادي صمُّود, دار سيناترا, تونس, سنة 2008م, ص 581 - 582 .

اللغة تحملُ, بصفةٍ ذاتيَّة وجوهريَّة؛ وظيفَة حجاجِيَّة" ([262]).

لكنَّ المتعَرِّضين لأسلوب القرآن إشادة وبيانا كيف يستخرجون جمالياته وليس في جعبتهم سوى المنهج التاريخي، فأي شيء يوظفونه منه في ذلك، وإذا لم يكن الإعجاز التأثيري إلا لونا واحدا من ألوان الجمال في القرآن، فحتى متى يظهر المتمسكون بمجرد المنهج الفني التأثيري بقية الالوان الجمالية، وقل ذلك في كافة المناهج، وأنت فأخبرني أين تضع المنهج النفسي في حقل دراسة البيان القرآني وقائله هو الخالق الحكيم، اللهم إلا إذا تغيرت وجهة هذا المنهج فطبقتها على شخصيات الكتاب العزيز ومقول قولها وما دار بينها من حوار، فثبت بهذا العرض الوجيز أنَّ الناقد يتحتم عليه المنهج التكاملي وإلا كانت رؤيته قاصرة في الحياة, لأن المنهج مقياس وخليق بالذي يصحح إحدى مقاييس الأدب أن يكون قد صحح مقياسا للحياة التي يعيشها روحا وجسدا، وإبداعا ونقدا، والقرىن بعد هو المقياس الأكبر الذي تعرض عليه جميع المقاييس، فما فما قبل منها فذلك وإلا كانت مطروحة في طريق!

من هنا فإننا نسأل: هل المعاني الإعجازية في القرآن الكريم مطروحة؟

ولا شك في -جوابنا - أن المطروح هو من يرى هذا الرأي، وأنَّ المعاني المطروحة هي تلك التي لم ترق إلى أن تكون في رحاب الإعجاز، على أننا أثبتنا آنفا أنها ربما توفرت لأحد دون آخر كما تتوفر اللفظة المفردة لهذا دون ذلك على اختلاف لهجات قبائل العرب، وهي حينئذٍ أحرى؛ بعدم الوفرة.

مع العلم أنَّنا نقِرُّ بوجود مفاهيمَ وقضايا في النَّص لم يُرد صاحِبُ النَّص قولَها ولكنَّ كلامه دَلَّ عليها, ذلك عندَ تمعنِنا في دراسَتِها وتدَبُّرِها, فهذا القرآن الكريم أمر قارئه بتدبره لأنه يدرك بالتدبر مالا يُدركُه بدونه, فتكونُ لنا تلك الدراسة بالنظر الدَّقيق في كلام القائل أداةً لاستنطاقِ عقله الباطن الذي يَدُلُّ عليه نَصُّه, من خبايا نفسيَّته وعقليَّته ومنزلته وحاله, على نحوٍ من علم الفراسَة الذي برع فيه الأوائل أيَما براعة حيث وصلوا إلى درجَة العلم بشخصيَّة الكاتب من خلال رسم حروفه ونوع خطِّه وشكل كتابَته وهكذا , فهذه المعاني الإضافيَّة أو

---

[262] - د. أبو بكر العزاوي "اللغة والحجاج" , دار العمدة, المغرب,ط 1, سنة1426هـ-2006م, ص 8 .

الإيضائيَّة إن صحَّ التَّعبير؛ لا تتعلَّقُ بمعاني النَّص الذاتِيَّة مباشَرَةً على نحو ما قال المتنبي في إرشاده قارئ شعره إلى صديقه ابن جني معلِّلا " هو أعلَمُ بشعري مِنِّي" , وعلى نحو ما قال الجرجاني فيما سَمَّاه بـ " معنى المعنى" ؛ لأنَّ معنى المعنى هو لازمُ المعنى , أمَّا هذه المعاني المذكورة آنفا فتلزمُ أوَّلا عن النَّص كوحدَةٍ متكامِلَة, لأنَّ في رَدِّ الكلام بعضَه على بعض معانٍ لا تستفاد من مجَرَّد أجزائه, كما قال عبد الرحمن بن مهدي" لمَّا نظرتُ "الرسالة" للشَّافعي أذهلتني؛ لأنَّني رأيتُ كلام رجُلٍ عاقلٍ فصيح", لهذا أعلن تلميذه المزني قائلا: "قرأتُ "الرِّسالَة" خمس مئة مرَّة, ما من مَرَّةٍ منها إلاَّ واستَفَدتُ فائدَةً جديدَةً لم أستفدها في الأخرى", ثُمَّ إنَّ تلك المعاني المستخرَجة هِيَ ثانيًا تأتي وراء معنى المعنى, أي أنَّها لازم معنى المعنى في الكثير من الأحيان .

هذا؛ و نُنَبِّهُ إلى أنَّ لازم المعنى قد يكون حقا كما قد يكون باطلا, وربَّما عادَ على ملزومه -وهو النَّص- بالإبطال, فالنَّصُّ أصلُه واللازم فرعٌ بالنسبَةِ إليه , ومعلوم في قواعد العقل والأصول " أنَّ الفرع لا يعودُ على أصله بالإبطال" وإلاَّ أصبح نوعا من أنواع التدليس والدَّجل والضلال , و هو ما يُضَيِّق دائرة التَّأويل الذي أبعدت فيه النُّجعة كثير من الأفهام.

ولقد قسَّم الأديب محمود شاكر في -تضاعيفِ قولِه وفيما يستفاد من مجموع كلامِه- ما يدخُلُ في غير نطاقِ النَّص أصالَةً إلى قسمين:

الأوَّل: ما تدُلُّ عليه الألفاظ والتراكيب من معانٍ كامنةٍ تحتَها , قال إنَّ "ظهورَها من تحت بناء (الألفاظ والتراكيب) ليسَ من اليُسْرِ بالمكان الذي يجعَلُها قريبَةَ المتناوَلِ لكُلِّ قارئ من القرَّاء, أو صديقٍ مِنَ الأصدِقاء" ([263]), فهيَ بعيدَةُ لاسيما عن المتعجِّل أو المعتاد على القراءة السَّطحِيَّة من الذين لا يتعمَّقون ولا يحاولون الغوص ولا يُجَرِّبونه, فالصُّورة المأخوذة

---

263 - "أباطيل وأسمار" محمود محمد شاكر, مكتبة الخانجي, القاهرة, ط3 سنة 1426هـ-2005م, ص 391 .

والمعاني المستخرجَة هيَ هاهنا مِن "طريقِ الكتابَةِ وَحدَها" ([264]).

الثاني: أمَّا الذي يستفاد من غير نصِّ الخطاب وألفاظ الكتابة وتراكيبِها من الصُّور الباطِنَة والمعاني الكامِنَة بالنَّظر إلى وجوه أخرى في النَّص كونه مكتوبا بشكلٍ من الأشكال , أو رصدِهِ على أنَّه وحدَةٌ متكامِلَة مجموعَة فهو يعطي نظرا آخر ومعانِيَ ليست توجَدُ في معاني الكلمات ولا لوازم هذه المعاني, إذ هيَ تكتشَفُ بأمورٍ أخرى غير دلالات الألفاظ , وبوسائلَ " يُستَدَلُّ بها على (الصُّورَة الباطِنَة) التي يهتدي إليها من يهتدي مِن طولِ تجربَتِه وتنبُّهِهِ إلى ما يغفُلُ عنه غيرُه. فبعضُ هذه الوسائل يحتاجُ إلى خبرَة, كالخبير الذي يقرأُ خطَّكَ, فيعرفُ ما يَدُلُّ عليه الخَطُّ مِن مكوِّنات الشَّخصِيَّة, فهذا بحثٌ آخر" ([265]) , وهو يدُلُّ دلالَةً قاطِعَةً على أنَّ المؤلِّفَ حيٌّ على كُلِّ حالٍ, خلافا لنظريَّة دوسوسير في قتله للكتاب على حساب اللُّغة[266].

إنَّ للنَّص منطوق ومفهوم, كمَّا قرَّره الأصولوليُّون, ومن البدائه أنَّ المفهوم إذا تعارض مع المنطوق يقدَّم المنطوق بلا ريب, أمَّا التَّوسُّع في المفاهيم واللَّوازم إلى درجة أن يتناقَض النَّصُ مع نفسه فغير سائغ البتَّة, ممَّا يعني أنَّه لا مانع من ذلك إذا كان للمفهوم وجه صائب في كلام الكاتب, بحيثُ يدُلُّ على معنى قريب أو بعيد يقولُهع الكاتبُ ضمنِيًّا وإن لم ينطِقه, فمثلا حدثَ يوما, مع تصاعد موجة العنصريَّة في أوروبا ضدَّ الملوَّنين كما يقال؛ أن رُمِيَ أحدُ اللأَّعبين بحبَّةِ موز بغيَةَ استفزازه كأنَّما يرمون قردا, ليذَكِّروه "بلونه الدَّاكن, فأكلَها, وقد أثارَ سُلُوكُه هذا موجةً مِنَ التَّعاطُفِ معه .. [كونه] ردَّ بشجاعَةٍ وقوَّةٍ على العُنصُرِيَّة في الرِّياضَة. إنَّ حادِثَة الموز استفزَّت صديقي الذي يسخَرُ منكُلِّ شيء, فخاطبني سائلا: "ألم أَقُل لك إنَّ البشريَّة تَنفُضُ يَدَها من نظَرِيَّة "داروين" التِّي تُرجِعُ أصلَنا إلى القِرَدَة ؟, فالقومُ الذينَ

264 - المرجع نفسه.

265 - المرجع نفسه, ص 393 .

266 - ومن تناقضِه الذي لا يبدو إلاَّ بعدَ الدِّراسَة أنَّ الغربيين يعتقدونَ أنَّ الإنسان هوواضعُ اللُّغَة ,فهيَ فرعٌ بالنسبَة إليه لكونه مصدرا أصليًّا وربَّما كُلِيًّا في إنتاجِها ,ومن بديهَةِ العقل أنَّ الفرع لا يعودُ على الأصل بالإبطلال, وما دامت نظرية موت المؤلف تعود على أصلها بالإبطال فهي مثله في البطلان, بل هي التي تستحقُ الموت, ذلك حتَّى لا يَقتُلَ مولودٌ والِدَه!!
ولو أنَّهم يعتقدون كون اللغة توقيفيَّة لهان الخطب, ولكنَّ التَّناقُضَ داءٌ عريقٌ في الأمم والشعوب, ومعلومٌ أنَّ الذي أنشَأَ نظريَّة دي سوسير إنَّما هو العقل و" العقل محلُّ الخطأ كما أنَّ الشعور محلُّ الغفلَة" كما يقول الرَّافعي عليه الرَّحمة في"وحي القلم".

يقذِفُونَ غيرَهُم بالموز يقولونَ ضمنِيًّا إنَّهُم ليسوا مِمَّن تشمَلُهُم نظريَّة داروين! "([267]).

وهذا استلزامٌ صحيح يقتضيه كلام القوم وإن لم يلتزموه مناقضينَ أنفُسَهُم, في حين لا يصِحُّ أن تُعَدَّ "هذه الموزة رمزا كالتَّحِيَّة النَّازِيَّة مثلا, إنَّها نفايَة سقطت في الأرض فالتَقَطَها اللاَّعب" ([268]), على حدِّ قول الفيلسوف مائيل لو غاريك.

لأنَّها حينئذٍ تأويلٌ يُحاول التَّنَصُّل من الخَطَّأ, والهروب من الحقيقَة.

وهذا غي دي موباسان ألَّفَ مجموعَةً قصَصِيَّة أو شعريَّة سمَّاها "اليَدَ اليُسرى"

فإذن؛ وقد جاء شاعرٌ من الشعراء قائلا:

.............** هاتِ اليَد اليُسرى.

كيف يمكننا أن نعرف أنه عنى المجموعة القصصية أو عنى ظاهر ما احتواه لفظه، إنَّ المعلومات الخارجة عن إطار النَّص والدَّاخِلَة في عموم ثقافَة الناقد, إذا ما هو ربط بينَ علمه بما كتب موباسان وعلمه باتفاق نحلة هذا الشاعر مع موباسان استطاع أن يدرك أنَّ قصدَه باليد اليسرى ليست هيَ الجارحة إنَّما هي ما كان أَخرجَ للناس من قصص وشعريات حملت العنوان نفسَه.

وتلك هيَ الكنايَة على نحو ما قال الشاعر العربي :

.... *** ولو اتى لهم به حبيب.

ولم يكن يقصد المحب إنَّما قصد حبيبا الشاعر البارع, وذلك يستفاد من السِّياق الثَّقافي الذي يجعل الناقد مدركا لعلاقات الألفاظ بدلالاتها, اعتمادا على التَّاريخ, وبالتَّالي فالثَّقافَة تدخُلُ في النَّقد بما يعلمه الناقد عن المنتَقَد, لا بسائر ثقافته التي ليست لها إسقاطات صحيحة على النَّص المعالج وصاحبه, ولا معلومات كافيةٌ رجيحة عن ذلك كُلِّه, من هنا؛ قامت الحياة

---

[267] نصر الدِّين لعياضي "مذاق الموز" مقالة ضمن عنوان جامع "عتبات الكلام", جريدَة الخبر, الإثنين 11 شعبان 1435هـ/ 9 حزيران (جوان) 2014م, العدد: 7458 , ص 25 .

[268] المرجع نفسه.

"على ما تواضَع عليه النَّاسُ من دلالات لُغويَّة يتِمُّ التَّفاهُم بناءً عليها, ولو انتفى ذلك وأصبحَ كُلٌّ واحِدٍ يفهَمُ معانِيَ النُّصوص بحسب تأويله الخاصِّ الذي يقتضيه تكوينُه الثَّقافي؛ فإنَّ النَّتيجَة ألاَّ يُدركَ أحدٌ مدلولَ خطابِ الآخر؛ فينعَدِمُ التَّواصُل" ([269]).

إذ لولا علمه بحياة الشاعر وما يعرفه من شخصيات معاصرة ومتقدِّمَة و بأنَّ هناك شاعرٌ يقالُ له حبيب وأنَّه يمكن أن يقصده لعلاقةٍ بينهما ولوجودِ رابطَةٍ دلالِيَّة تستدعي انصرافَ المعنى إلى حبيب كونه متفوِّقا في الشعر بارعا في قرضه , فالناس يرفضون ولو أتى لهم به من كان على مثل هذه الحال؛ و هي التي تجسَّدت في حبيب الشاعر, فكانَ خليقا أن يُذكَرَ لأنَّه مثالٌ مناسبٌ لائقٌ كُلَّ اللِّياقَةِ لأن يتمَثَّل به ويتوَصَّل إلى المعنى المراد من خلاله في التَّعبير.

كما أن في جزئيات المعاني الدائرة في النص ما يعطي معاني لا تستفاد إلا من ذلك الدوران، فلقد شرح بعض كبار الأدباء في عصرنا أبياتا للشاغعر الأعشى ففصَّلها وحللها ليقول في خلال الشرح: "ثم تأمَّل الشوق الذي جعله رأس الشطر الثاني من البيت الأول كيف صيَّرَه قرار المعنى في البيت الذي يليه: "قطعوا معهد الخليط فشاقوا" .. وهكذا لو راقبت حركة أفراد المعاني داخل الشعر لوجدت بابا آخر من أبواب الفهم لم نلتفت إليه بعد"([270]).

فأين اللسانيات إذن من هذا الفهم واستجلائه، لا جرم أنها غير قائمة بفنائه، وأنها لا تخفف عنه من عنائه !

وبعد فإننا نكمل صورة ما أدلينا به في هذا البيان وهذا السؤال، بسؤالين آخرين، هما:

أولا: ما منهج الأستاذ كنون في تحقيق النصوص العلمية والأدبية؟

فنقول؛ إنَّه مارس مهنَة التحقيق ممارسَةً طويلَة الأمد, كثيرة العدد, فزادته حنكةً وتضَلُّعا, بحيثُ صار رغم وعورة الطَّريق في دنيا الحصول على المخطوطات, وقراءتها قراءَةً

[269]- عيسات قدور سعد "النفس الرائق في ضبط الفائق"، ص 76 .

[270]- د. محمد محمد أبو موسى "دراسة في البلاغة والشعر" مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط 1، سنة 1411هـ/1991م، ص 339 .

فاحصَةً تأمُّلِيَّة, بنظرةٍ مدَقَّقَةٍ علميَّة؛ إلاَّ أنَّه تجاوز القناطر المعترضَة, والعقبات الهائلة المناهِضَة؛ لكأنَّما أوتيَ جناحان يُحَلِّقُ بهما في تخطِّي الدَّواهي الخَطَئِيَّة النَّاجمة عن الاشتغال بتحقيق النُّصوص, لاسيما إذا كانت المخطوطَة وحيدة فريدة, وكانت مليئةً بالأخطاء الشَّديدة !

إنَّ أساطين النُّقاد من أهل الكتابة والتحقيق قد شهدوا بأنَّ تلك محنة لا تعادلها سواها, وقلَّ من اجتازها بسلامَةٍ وتخطَّاها, يقول الطَّاهر أحمد مكي: "ليس أصعب من تحقيق كتاب مخطوطته وحيدة، ونصه مليء بالأخطاء"([271]). ويعترف الدكتور إحسان عبَّاس بصعوبة ما هو أَقَلَّ من هذه الحقيقة فيذكر في تحقيقه لديوان الأعمى التَّطيلي:

"وقد بذلت جهدا كثيرا متواصلا لكي أقدم للقارئ... نصا صحيحا، ولكن حين كانت تنفرد النسخة (د)، فقد كان بلوغ الصحة والضبط يبدو أمرا بالغ العسر" ([272]).

إنَّها عوادي خطيرة في وجه المحقِّق إذا هاجمته لم يتمنَّ غير النَّجاة من بشاعتِها, ولم تطمح نفسُه طرفَةَ عينٍ إلى محمدَةٍ يتلَقَّاها جرَّاء نجاحه في مدافعتها, إذ الخوف من الوقوع في الجُناح بتحريف النَّص, تعودُ على جَناحِه العلميِّ بالقَص, وترمي به في وديان المغامرة التي يعزُّ فيها الظَّفر, ولَأَن يُمسِيَ المرء لا عليه ولا له خيرٌ من تورُّطِه فيما لا تُحمَدُ عقباه, فكيفَ إذا كان سلوكه لذلك الطَّريق لا بُدَّ منه, تلك هي الفاجعة إذن, وقديما قال أهل الأصول: "درء المفسَدة مقدَّمٌ على جلب المصلَحة".

ورغم ذلك كُلِّه فقد تجَشَّم الأستاذ مرَّاتٍ رُكوب هذا الخطر, ثُمَّ قام منذرا من الدُّخول في بدايته, مبَصِّرا بعِظَمِ وعورَته, مخبرا عن النَّتيجَة التي انتهى إليها هو؛ في مغامرته, قائلا: "إن نشر كتاب ما على أصل واحد مملوء بالأخطاء، مغامرة كبيرة لا يرتضيها العلم ولا قواعد النشر والتحقيق. ولكن إذا لم يكن هناك أمل في وجود نسخة ثانية للكتاب، وكان الاعتقاد جازما بأن هذا الأصل هو الوحيد الذي أفلت من عوادي الزمن، فما العمل إذن؟ وقد سبق أن امتحنت بمثل هذه المغامرة مرتين... فسلم الله ومر الامتحان برفق. فلم ينكر

---

271 - "طوق الحمامة في الألفة والألاف" ابن حزم الأندلسي, ضبط نصه وحرر هوامشه أ- د.الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، 1975م, ص8.

272 - الأعمى التطيلي "الديوان" ت: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م, ص: غ.

النقد النزيه منهما شيئا([273]).

والضمير في "منهما" يعود على مجموعة "رسائل سعدية" و"ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث" في تحقيقه لهما.

إنَّ من منهجِيَّة كنُّون في التحقيق أن يخرج النَّص صحيحا سليما كما كتبه مؤلِّفُه, أو الاكتفاء بمقاربته لنصِّه الأصلي عندما لا يمكنُ غيرُ ذلك, خلافا لمن أنِفَ من هذه المقاربة ومنعها, وانطلاقا من رأي الأستاذ الذي نلتمِسُ فيه السَّعَة وبُعدَ النَّظر, وجدناه يقول عن عمله في "مناهل الصَّفا":

"وقد كان عملنا في تحقيق هذا الكتاب أننا حرصنا على أن نقدم منه نصا صحيحا أقرب ما يكون إلى الأصل الذي كتبه المؤلف"([274]).

ثُمَّ إنَّ منهجيَّة العمل في التحقيق لدى الأستاذ تقوم على جمع النسخ ودراستها وترتيبها, والتمييز بين أفضلها, ونسبتها إلى أصحابها ومعرفة تاريخ نسخها وشكل الخط ونوع الورق وتحديد عنوان المخطوط, وقراءته بشكل مدقق مضبوط, لتصحيح نصِّه وإكمال سقطه, وترقيم مسائله وشرح غريبه, وتخريج آياته وشعره وأخباره, مع وصفه والتَّقديم له ووضع فهارسه.

ثانيا: ما هو المنهج التفسيري عند الأستاذ كنون؟

في تفسيره قام منهجه على توضيح الآيات وشرح معانيها بالجمع بين مدرسَة الرواية ومدرسَة الدراية, كي يتلاءم الأثر مع النَّظر, فهو يقول: "ويجِبُ تقديم الآيَة بما يوافق العقل والنَّقل" ([275]), وهذه هي المنهجيَّة المحكمة التي يذهبُ إليها أهل التعديل.

وهو مع ذلك لا يغرق في ذكر الإشارات البيانيَة, ولا يعرِّج على المصطلحات البلاغية التي تقف دون فهم القارئ , بيدَ أنَّه يتذوَّقُ البلاغة ويدرك أسرار الإعجاز ويعبِّر عن ذلك بعبارات مختلفة, ولا يتوسَّع في الإعجاز العلمي إلاَّ بالقدر المجلِّي لحقائق القرآنِ, وينبِّه على القراءات القرآنية لماما, يذكر الشَّاذ منها أحيانا, ثُمَّ لن تجده يخالف عقيدة السَّلف الذين

---

273 - "مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا" أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد الله كنون، 1964م, ص 8-9.

274 - المرجع نفسه, ص 13.

275 عبد الله كنون "تفسير سور المفصَّل" ص7.

علَّمهم الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وسَلَّم, وذلك بالأخذ بظواهر النُّصوص العقدِيَّة كما أخذوا, دون تأويل أو تحريف للمعاني البيِّنَةِ البادِيَة, والمعارف الإيمانِيَة الهادية ([276]), بل بتقريرها والاستدلال لها وحسن عرضها.

وقد بيَّنا فيما سبق بالبيِّنة والمثال أنَّ منهجِيَة الاختصار والتوضيح وتيسير العبارة وجعل الأدب علما ينفع, ويخدم المجتمع؛ كان همَّا يراودُ الأستاذ في قلبه وجَنانَه, ويُلِحُ على لُبِّه ووِجدانه، قل ذلك في الآداب، وفي تفسير نصوص الكتاب ([277]).

عبد الله كنون ناقد ماهر وأديب لطيف، يحب توصيل معرفته إلى كل قارئ، فهو في كتابه العظيم "النبوغ المغربي" يبين أنَّ المنتخبات الأدبية قد ضم بعضها إلى بعض في الطبعة الثانية قائلا: "نؤلف منها مجموعة نفيسة حاوية لأهمِّ ما صدر عن أدباء العصور المختلفة من بديع النظم والنثر. وها نحن أولاءِ نقدِّمُ للقارئ الأديب تلك الآثار والمنتخبات البديعة، مقسمين لها على قسمين، قسم النثور .. وقسم المنظوم ..، مُبوِّبين كلَّ قسم أبوابا بحسب أغراضه وفنونه، غير متعرضين بشرح أو بيان إلاَّ للغريب والغامض الذي لا يسهُلُ فهمه على كلِّ النَّاس، وذلك رغبَةً في الإيجاز وعدم التَّشويش على المُطالعين" ([278]).

ثُمَّ إنَّ "هناك خصيصةٌ أخرى تظهرُ في العمل التفسيري للأستاذ عبد الله كنُّون, وهو حرصُه على ربط التَّفسير ما أمكن بالواقع المعيش للمسلم المعاصر عقيدَةً وسُلوكا وتوعِيَة, ومعالجةً للعديد ممَّا يتخبَّطُ فيه من مشاكل من خلال القرآن بطريقة ذكِيَّةٍ وموفَّقَة, ومن ثَمَّ كان منهجه في التفسير موفَّقا إلى حدٍّ بعيد" ([279]).

ثم نأتي هنا فيما أتيناه إلى خصيصة من الخصائص الموهومة في الثقافة على وجه العموم، وفي الثقافة النقدية على الخصوص، مبينين ذلك في أمرين:

---

[276]- إبراهيم الوافي "الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري", ص 369/366.
[277]- المرجع نفسه, ص 336.
[278]- عبد الله كنون "النبوغ المغربي في الأدب العربي"، ج 2/ ص 325 .
[279] -إبراهيم الوافي "الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري", ص 368.

الأول: الأستاذ كنُّون والنَّقد الثقافي:

إنَّ النَّقد الثَّقافي من نتائج العولمة ولم يبرز عند العرب إلاَّ بعدما صاغته الدوائر الغربيَّة في دراساتها وحددت مفهومه ومصطلحاته, ونصَّت على آلياته وأدواته, بناء على ما يُسَمَّى بـ "الثَّقافة العالمِيَّة" التي لزم عنها إزالة الفوارق بين الأجناس المعرفيَّة والعلوم الإنسانِيَة وإذابة الحدود بين آداب الأمم, والقضاء على الهويَّات الوطنِيَّة والفكريَّة إلى حدِّ مسخها, وهو النَّقد المتبني " للبعد اليوتوبي" على حد تعبير بعض النَّاس, لأنَّه يذهب مذهب أهل الإدماج الثَّقافي واللُّغوي الأدبي القائم على التمازج والتزاوج والتعدد والاختلاط والتعويم, والذي ذهب الكثير من النُقَّاد الغربيين إلى توحيد مصطلحه مع "مصطلحات أخرى مثل نقد ما بعد البنيوية ونقد وما بعد الحداثة ، فإنّ الساحة العربية لم تمتلك زمام النقد الثقافي بعد، لا لأسباب تتعلق بإمكانية النقد العربي على المتابعة والمواصلة، بل المسألة تتعلق بإجراءات وحيثيات النقد الثقافي وشموليته ، وتأثره بطروحات ما بعد الحداثة، والتفكيكية والدراسات الاجتماعية والثقافية والنسوية والكولونيالية والعولمة ونحو ذلك ، والنماذج العربية التي حاولت الحديث عن النقد الثقافي لم تستطع الخروج عن التوصيف والعرض وبيان الآراء ثم تحديد الرهانات والمزالق وصيغ الاختلاف والتطابق مرة - كما في نموذج عبد الله إبراهيم-، أو محاولة التبني والتأثر المبالغ فيه ، ودعوة الإندماج ومسايرة ركب الحضارة والدخول في مشاريع عولمة الخطاب وتمرير قيم الانبهار -كما في نموذج عبد الله الغذامي -" ([280]).

فإنكار الأستاذ كنون علميًا وواقعيًا لما يُسَمَّى بـ "الثَّقافة العالمِيَّة" نستشفُّه منه عن طريق دلالة الاستلزام أنَّه لا يقبل بالنَّقد الثَّقافي ولا بإفرازاته من قصيدة النَّثر وغيرها, بيدَ أنَّه لا يعارض كُلَّ ما فيه أوَّلا, ولا يرفضه إذا كان النَّقد الثَّقافي إنَّما يعني الدراسات النَّسَقِيَة عند بعض النُقَّاد كما أفاده الأستاذ عبد القادر فيدوح, فكنُّون هاهنا لا يمكن أن يقف موقفا سلبيا مغايرا لما يُسَمَّى "النَّسَق" لأنَّه موضوع تمَّ طرقه منذ القدم بما لا مشاحة فيه ولا عوج.

[280] - د.محمد سالم سعد الله "النقد الثقافي أزمة منهج أو محنة عمل" مقالة منشورة في موقعه.

فالثَّقافة تتغيَّر و أصلُها الأوَّل هو الدِّين, أمَّا العلم فثابت, هذا من جهة, ومن جهة أُخرى فالثَّقافَة كما يقول الأديب العملاق والمفكِّر العبقري عبَّاس محمود العقَّاد هيَ أن تعرفَ شيئا عن كُلِّ شيء, والعلم هو التَّخَصُّص بأن تعرفَ كُلَّ شيء عن شيء.

وإذا علمنا تبعية الثقافة للهوية والديانة استيقنا بأذنا لن نصل إلى ثقافة تجمع كل البشر إلا إذا دخلوا جميعا في دين واحد، أو انسلخوا كلهم من جميع الأديان، و هو ما يروج له أبناء ماسون من إذابة كل الفوارق الإيديولوجية العقدية بين البشر وإقصائها تحت غطاء ما يسمى "الثقافة العالمية" الأديب النابغة محمود شاكر([281]).

الثاني: فن القول ودراسة النصوص بين اللسانيات الغربية والبلاغة العربية:

وقد ألمع الأستاذ حمادي صمو إلى أنَّ سبب القصور اليوم في استخراج علم بلاغة مستحدث يكمن في "غياب جدلية التراث والحداثة، في هذه المؤلفات [الحديثة] وتصديها لدراسة التفكير البلاغي، في الغالب، من منظور أحادي البُعد، يقع على هامش النقاش الجوهري المطروح، اليوم، في أغلب التيارات النقدية الحديثة والدَّائر حول إمكانية إعادَة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات اللُّغوية المنهجية الجديدة ولا سيما مكتسبات اللسانيات أو عدم إمكانية ذلك، وبالتالي الإقرار بموت البلاغة وقيام الأسلوبية بديلا عنها" ! ([282]).

فالأستاذ صمو في كلامه هذا يحسب أن النقاش بريء كل البراءة لكنه لرجاحة عقله ولو على العموم قد اختار من آراء الفكر الأصيل ما يقيمه على بعض الجادة حين بيَّن أن بحثه في هذا الإطار لتغذية ذاك النقاش تحيط به صعوبات وتعترضه مخاطر، فهو "مهدَّدٌ بالوقوع في ضرب من الاستيلاب الثقافي .. إن لم نوفَّق إلى استخدام أجهزتنا المفهومية استخداما يحترم خصائص التراث والسياق التاريخي الذي يتنزَّلُ فيه والأسس المعرفية "الابستمولوجية" القائم عليها لاسيَّما أَنَّ المفاهيم التي نتوَسَّلُ بها مفاهيم [غربية] شبَّت في منابت أخرى وتولَّدت عن تيارات فكرية وايديولوجية ورؤية للعالم تختلف عمَّا هو موجود عندنا ...

[281]- ينظر؛ محمود محمد شاكر "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" دار المدني بجدة ، مكتبة الخانجي بمصر 1407 – 1987م.

[282]- حمادي صمو "التفكير البلاغي عند العرب أُسُسُه وتطوُّرُه إلى القرن السَّادس –مشروع قراءة-" منشورات الجامعة طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، سنة 1981م، ص 11 .

واجتنابا للمزالق التزمنا الحذر في استخدام هذه المفاهيم. واكتفينا في الغالب، بالاستنارة بها لاستكشاف غوامض التراث، وتجنبنا تسليطها عليه وحمله على المعاصرة قسرا" ([283]).

وإذن؛ كيف يتلقي كل الالتقاء هذا الاختلاف بين اللسانيات الغربية والتراث العربي، في نمط التفكير وطبيعة القضايا والمناخ الزمني وطريقة المعالجة؟!!، فضلا عن إحلال اللسانيات والأسلوبية على الخصوص محل البلاغة العربية التي وصل الحال بها إلى اليوم، لعمري إنَّ هذا لشيء عجاب، وإنَّه لاختلاق مبين.

بل هو في الحقيقة –كما يقول الأديب العملاق شيخ البلاغيين في العصر الحاضر محمد محمد أبو موسى-: "الاختلال الذي أقام حياتنا العلمية على مقتبسات غير منظمة، وغير متلائمة، ثم الإصرار على أن تكون هذه الأخلاط المبتسرة والغامضة بديلا لفكر حي منظم متكامل ومتشارب، وتلاحقت أجيال العلماء على تصفيته، وصقله، وبسطه، وإزهاره، كما هو الحال في الأمم كلها، وفي التاريخ كله قبل أن ياتي هذا الزمن الغامض بعقول مُستَرَكَّةٍ ضيعفة تُتقن التمثيل أكثر مما تتقن المعرفة، وكلُّ ما في جعبتها مقتبساتٌ مبهمة استلت من هنا ومن هناك، ثم تراها مصرة على أن تضرب بهذه المبهمات أصولا من حقائق اللغة"([284]).

283- المرجع نفسه، ص 11-12 .

284- محمد محمد أبو موسى "دراسة في البلاغة والشعر" مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط 1، 1411هـ/1991م، ص 3 .

المبحث الثالث : منهجه الروائي وأسلوبه في الرواية:

نتكلم هاهنا في البدء عن المذهب ومرتكزاته لنعرج بعدُ على القصة والرواية.

1) المذهب الأدبي و على ماذا يرتكز ؟

إنَّ المذهب يعالج قضيَّتين أساسيَّتين دائما هما :

أوَّلا: الناحية الفنيَّة وما تكون عليه الهيئة الصِّياغية لطابع البيان في الرواية , وما تنتمي إليه من حيث الأساليب والتراكيب التعبيريَّة, بالإضافة إلى آليات الترتيب المشكِّلة للهيكل الروائي بمختلف تفاصيله .

ثانيا: الناحيَّة الفكريَّة التي تكون بمكانة المورد الثَّرِّ الذي ينهل منه الكاتب عائدا إلى مرجعيَّة كوَّنها و خلفيَّة اعتقاديَّة يتترَّسُ بها من وراء القلم مُحمَّلا بشتَّى الآراء و التَّصوُّرات التي يؤمن بها من خلال ما يعتَزُّ به و يدعو إليه من المعارف و الثَّقافات .

و لذلك لمَّا كتب الأستاذ إدريس النَّاقوري عن حال الرِّواية المغربيَّة ومآلها معالجا ما يعترضُها و يعتورها من مشاكل حَصَرَ المعالجة في الأساسين السَّابقين المُشار إليهما فسَمَّى دراسته : " الرواية المغربيَّة , مدخل إلى مشكلاتها الفنِّيَّة والفكريَّة" .

فللرواية فنيات، و"ليست الأحداث التي يتم نقلها هي التي تهم، إنما الكيفية التي بها أطلعنا السارد على تلك الأحداث" ([285])، لأن "السرد في معظم الوقت هو العنصر المهيمن في بناء المؤلفات النثرية" ([286]).

بيد أنَّ الكيفية السردية في الرواية تتمتع بفنيات ونغمات وأوتار، وهي تتشبع كالهوادج المُحَمَّلَة، بكثير من الأفكار، والمباهج التي تُضرب حول تقنياتها العديدُ من الأسوار حتى لا تداهمها المزالق الأدبية والبوائق الخطابية والأخطار، بيد أنَّ من منهج الأستاذ عبد الله كنون أنَّه لا يقف الموقف السَّلبي أو يأخذ بالرَّأي المسبق عن قضِيَة فكريَة أو أدبيَّة ظهرت في

[285]- تزفيطان تودوروف "مقولات السرد الأدبي" ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صفا، دارسة ضمن دراسات لكتاب آخرين مجموعة في كتاب"طرائق تحليل السرد الأدبي" منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط 1، سنة 1992م، ص 41 .

[286]- المرجع نفسه.

زمانه, أي أنَّه لم يكن ينظر إلى أدب عصره بصفَةٍ عامَة نظرَةً دونِيَة قائمة على الأحكام المطلَقَة التي تجعل كُلَّ المستجَدّات في الإهدار و في ساحَة البوار ضربة لازب, كلاَّ, إنَّما راح الأستاذ يعمل ناقديَته الفذَّة في كُلِّ ما كان وما قد يكون, وما قد تكوَّن لساعته, إذ الزَّمن لا أثَر له في ماهيات الأشياء إنَّما العبرة بما فيها من حقائق و فنيَات وإبداع, فإن احتوت شيئا من ذلك فبها ونعمت, وإلاَّ جاءها النَّقد تعديلا أو تبديلا, وأتاها هادما أو مقوِّما, بحسب ما يقتضيه حالها ويقوم عليه أساسُها من الحقِّ والصَّواب, قبولا وردًّا.

ومع هذا؛ فإنَّ الحكم الإجمالي على العصر الذي عاش فيه الأستاذ لم يكن بالدَّرجة المرضِيَة, والحق يقال, ولم يكن عصر الرواية ثم الرواية ثم الرواية بكل حال، لكن زمنه كان خيرا من العقود التي جاءت بعده, فتاهت عندما تماهت, وذابت عندما آبت إلى التحويم في العوالم الأدبيَة ولاسيما الروائية عند الأمم, فلا استفادت من خبراتها كما ينبغي, ولا جعلت من نفسها لأبنائها مضرب مثلٍ فيما تبتغي.

إنَّ الأدب المعاصر قد سيطرت عليه الرواية، وصار يشهدُ حالةً من النُّضج تتخلَّلُها حالاتٌ كنوباتٍ من الرُّكود أو اختلال المفاهيم, وتجدد الكثير من المعلومات والتعاليم, في مضمونه العام, وحتَّى في شكله على الدَّوام, ذلك أنَّ الرُّقي يحتاجُ إلى المثابرة بعدَ أيِّ سُقوط يكون, وأنَّ المعاصرة والتَّقَدُّم لا ينفكَّان عن الانتقاء للسبيل الناجع الذي لا يهون, ولكنَّ من يعمل ويسير في درب العطاء, لابُدَّ أن تعترضَه العقباتُ الكأداء, وهو يتجاوزها بعلمه, ويتزوَّدُ لها بمواصلة الإبداع بصبره وحِلمه.

من هنا كانت ملامح الصُّورة في عالم التجريد تكادُ تتبَدَّى, وفي ثباتها ووحدة مجالها لا تخرُج عن المسار أو تتعدَّى, إلاَّ أنَّ الإعلام المعاصر في ظل العولمة وما بعدها من أدبيات أيديولوجية, وأيديولوجيات أدبية قد طغت على السَّاحة بمختلف ألوانها, فدخلت في سراديب التوجيه المنظَّم بما يخدُمُ أدبا واحدا هو أدب المسيطرين إعلاميا على منتجات الواقع في دنيا الأدب, *كذلك الأمر في الدنيا لمن غلب* .

وبالتالي نشهدُ اليوم انحسارا للأدبيات الوطنيَّة المعاصرة, بعد أن كانت ثَرَّة متكاثرة, ومتعاضدة متضافرة, بل أكثر من ذلك نرى أنَّ الأدبَ الحي المعبِّر عن هويَّة الأمَّة وثقافتها

ودينها قد راحَ يمشي القهقرى؛ فلماذا يا ترى؟

لقد حار من دار في الزوايا المغلقة من الأدباء الكبار حين لم يجد ما به يعبِّرُ عن نفسه, وما يجعلُه يستطلع ماضيه وأمسه, أو يثيرُه متفائلا ناظرا إلى غذه ورمسه, وماتت الأبواق التي منها يرسل صوته, فهو إلى الآن في صومعته يبكي حظَّه ويشهدُ بعينيه موته؟

لأنَّ الإعلام المعاصر وجَّه الأدب إلى حيثُ يبغي, و طرد من لا يوافق أهواءه و نظراته

إلى الأشياء في عالم الأفكار, ولم يعُد بدٌّ من أن يُعاني الأدب المعاصر الذي يرادُ بترهُ من التراث الغابر من شيئين هما علَّتين فما هما؟

إنَّهما الجاهل المتَطَفِّل المغرور!, والكاتب المُتَكَسِّبُ المأجور!!

لكن النقد يكشف الستار عن كل ذلك ويجليه أعظم الجلاء، عندما يركن إلى موضوعيَّة المؤكدة التي تقوم على البناء, بتركيز وتعليق, و بتمييز وتحقيق, "إذ لولا النَّقد لماتت العلوم" كما هو معلوم.

ومن هنا نرفُضَ عُقدَةَ الرَّفض !, التي عشَّشَت فينا و في أفكارنا طويلا, و لم نعد نَعْدِم من يجَدِّدُها تضليلا و تعليلا بأيِّ دِعايَةٍ أو دعوةٍ أو سبب ؟!

ومن هنا نعرفَ منَّا ويعرِفَ أدبُنا من نفسه موضع الأقدام, وتعرف الرواية على الخصوص كيف أصبحت هي الواجهة التي تأتي دائما في الأمام، استبانة و إبانة للأفهام, كيما تبقى الزوايا دونَ تداخُل مُبعدٍ عنِ التَّبَصُّر, و تستمِرَّ المرايا في سلامةٍ دونَ تكسُّرٍ.

إنَّ الرواية وهي نفسها القصة الطويلة، لكن الأديب الناقد دي يبوس يفرق بين الرواية والقصة بجعله القصة هي مجرد تقرير عن الحياة بينما يجعل الرواية هي حضور الحياة في حد ذاتها، ليتسخرج من ذاك أن الحدث في القصة جرى في الماضي لكنه في الرواية يجري حاضرا ([287])، ويبدو أن هذا الفرق وجيه وإن كان شكليا غير جوهري.

أمَّا القصة الصغيرة والتي تعني الأقصوصة فهي كواقعة من وقائع رواية وجزء من

287ـ ميشيل رايمون "بصدد التمييز بين الرواية والقصة" ترجمة حسن بحراوي، دارسة ضمن دراسات لكتاب آخرين مجموعة في كتاب"طرائق تحليل السرد الأدبي" منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط 1، سنة 1992م، ص 178 .

أحداثها، بيد أنَّ الأدباء يدرجونهما معا في قالب الفن القصصي ولم نسمع أحدهم يقول الفن الأقصوصي، من هنا نتناولهما لدى كنون في إطار القصَّة الجامع.

نقد القِصَّة وتطوره عند كنُّون:

إنَّ من أحسن الموضوعات التي هي ميدان رحبٌ ذو مجالات متعددة لدراسة الأسلوب؛ موضوع القصَّة, لاسيما إذا كانت خاضعة لأصولٍ يتركب منها النص وليست مجرَّد سردٍ غير خاضع لضوابط وتقنيات, وفي هذا الإطار فإنَّ التعويل على طرق القضيَّة الأسلوبيَّة في مفهومها الاصطلاحي الحديث؛ يقتضي بيان السمات الخاصَّة والصِّفات المقتنَصَة من أيِّ نص حكائي, ربَّما احتوى قدرا كبيرا منها و اشتمل على جملَةِ خصائص تميزه عن غيره من النصوص, التي مهما تداخلت أو عالجت موضوعا واحدا فإنَّها تبقى منفردةً بما يفصلها عن مثيلاتها, فلكل نص جيناته المكونة إياه, وخلاياه اللصيقة بماهيته, المشكلة لهويَّته المعيَّنة, ذلك على نحو ما يجده الباحث في الخليَّة الوراثيَّة في علم دراسة الأحياء والكائنات, إذ النص ما هو إلاَّ مولودٌ حيٌّ ناتج عن القريحة, فهو وإن تشابه مع صِنوِه كتشابه الإنسان مع أخيه في صفاته البشريَّة العضويَّة, بيد أنَّه مختلف عنه بملامح تجعله غير متداخل شكلا مع فلان من الناس, لأنَّه "طبعةُ إبهامٍ لا تتكرَّر, فإنَّها العلامة الفارقة بين كاتب وكاتب" ([288]), وبصمَةُ إصبعٍ لا تتساوى وإن تشابَهت, وكذلك شأنُ نص ونص إذ الأسلوب هو الكاتب لا الرَّجُل كما قيل، وبين التعبيرين فرق لغوي ضيئل، لكنَّ آثاره كانت كبيرة حتى جَرَّت إحدى غبيات فرنسا إلى أن زعمت لها أوهامها قائلةً باعتراض على ذاك القِيل؛ " إنَّني حين أتناول القلم وأكتب، لا أكون ذكرا ولا أنثى" !!

أهمِيَّة القصَّة عند الأستاذ كنُّون:

وللقِصَّة دورٌ بارز تفهيما وتعليما وكتابة, وهِيَ في التَّدوين والتَّأثير على المخاطَبين بالمنزلة السَّامقة, فلا جرم أن اعتنى بها العلماء من قديم الزمان وهيَ الأمر الذي تناوله كتَّابُ كُلِّ أمَّةٍ من الأمم, إذ لكلِّ قومٍ أيامهم التي تطوي تحتها تاريخَهم في فصوله وصفحاته, فلا غرو أن كان المؤرخ لا يستطيع الاستغناء عنها إذ هي منطلَقُه في تسجيل الحوادث ,

---

288 - سلام خيَّاط "أقرأ: صناعة الكتابة وأسرار اللُّغَة" طبع شركة رياض الريِّس للكتب والنَّشر, بيروت, لبنان, ط1, كانون الثاني (يناير) 1999م, ص111.

وقد اشتملت أشعار أهل الجاهليَّة على قدر كبير من القَصَص وكانت لهم فيها فنِيَّاتُهم الخاصَّة, التي تُستجلى عن طريق الموازنة بين قصائد شعرائها, إذ للموازنة النفع العظيم في تعيين الفروق وتوضيح السمات والخصائص وإظهار الفوائد؛ ولمَّا جاء القرآن كانت معارضته إيَّاهم في كلِّ أساليب القول وفنونه, فتنوَّعت أساليبه, وأدهشت القوم براعته, لا سيما في فنِّ القصِّ والسَّرد للوقائع والأحداث بتقنيَّة فريدَةٍ ذهبت بالقوم في مذاهب العجب, حتَّى بلغت مستوى خلب ألبابهم, فما استطاعوا لها وقوفا, وما أطاقوا مجاراتها, ذلك أنَّ القصَّة القرآنِيَّة احتوت على ميزات وطريقةٍ أسلوبِيَّة نادرة في فنِّ الحَكِي والإخبَار, جامعةً بين استخلاص العبرة وتسجيل الحدَث وجودَة السَّبك والتدوين الفائق.

فقد غدت القِصَّة القرآنيَّة بخصائصها البلاغية ومميِّزاتها الأسلوبيَّة هي الميزان العام الذي تقاس عليه القصص والروايات, والمرآة الكبرى التي تستجلى فيها محاسن الصُّور الحكائيَّة في المؤلَّفات, والخطوط العريضَة التي تُبنى عليها القِصَّة الطَّويلَة والقصيرة في إطارها المنهجي توصُّلا إلى البيان الرَّائع والتأثير البارع على القرَّاء.

على أنَّ الرَّمز والخيال بمفهومهما العصري, يتيحان فرصَةً للقول والسَّرد لدى النَّص البشري في الرِّوايَة الأدبيَّة عند الكتَّاب, وهما الأمران اللذان لا يعترض عليهما معترض يدري أنَّ الخطوط العريضة لا تتناقض مع ما يُتاخمها ويسير معها إلى غاية واحدة, إنَّما يكون تناقضها مع ما يُهاجمها ولا يمضي بخطواتها إلاَّ رجوعا نحو بدايَةٍ تدور الأرجُلُ فيها دورةً عيِيَّةً ركيكةً شارِدَة, ثُمَّ لا تنتهي إلاَّ حيثُ هيَ في مساحَتها تلك, أو باحَتها هناك؛ ساقِطَةً جامدَة!!

بين الشعر والرواية عند الأستاذ كنون:

وكلام البشر لا تكون البلاغة العالية سوى بإزائه وهذا رأي القدماء ومحققيهم وقد جهر به عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" جاعلا الشعر معدن البلاغة والمعول عليه فيها([289])، فمن هذه الحيثية يفوق الشعر الرواية، غير أن مزاياها عليه تكسبها انفرادية

[289]- ينظر د. محمد محمد أبو موسى "دراسة في البلاغة والشعر" مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط 1، سنة 1411هـ/1991م، ص 17 .

عجيبة في تلوين الحياة الأدبية بأصباغ الفن والتأثير على الفكر والثقافة وأساليب التعبير، فكل منهما ما يفوق به الآخر، ثم لا تضرب مزية في هذا على مزية في تلك، وتلك هي حقائق الفن الإبداعي حينما تجتمع ولا تمتنع، وتأخذ الواحدة بزمام الأخرى، وتكمل بعضها بعضا، خلافا للرأي الذي أدلى به الأستاذ عباس محمود العقاد في يوم من أيامه عندما فضل الشعر على الرواية في إحدى مقالاته فرد عليه الروائي الشهير نجيب محفوظ عاكسا الرأي ومناقضا الرؤية، قائلا: "في منتصف الأربعينات كتبت مقالا أردُ فيه عليه [أي على العقاد] ونُشِرَ في مجلة الرسالة، كان حول الفن الروائي الذي قلل العقاد من شأنه لحساب الشعر"([290]).

بيد أن الأستاذ عبد الله كنون لم يفضل هذا على ذاك، وإنما احتفظ لكل منهما بمزاياه، مع أن عصره لم يكن عصر الرواية كما هو الآن، بل أصبحت اليوم الشكل المعمم للثقافة في العام كله، لظروف وأسباب كان الإعلام الفكري أولها، لاسيما وقد أصبحت تعكس نفسها في المسلسلات والأفلام، ممَّا يسمى اليوم بـ "الفن السَّابع"، وأمست تؤثر على مدارك الناس وعقولهم وأفكارهم وتوجهاتهم، بل أصبحت عن طريق تصويرها في التلفزيونات من أكبر أدوات البرمجة لعقول المشاهدين إلى حيث يريد المبرمجون، وإلى حيث يسيرون ويتوجهون، فيسوقون أساليب التفكير كما يسوق الراعي غنمه !

فمن هنا حُقَّ لمن يفضل الرواية من هذه الوجهة على الشعر أن يعدَّها في الواجهة الأدبية، لكون العصر هو عصرها، بيد أنها رغم ذلك لم تضرب على الشعر ولم تقضي عليه حتى يختفي، فلا زال الأدب به يحتفي و يتباهى، وعلى كل حال فلن يحتفل أحد برواية إلا بقدر ما فيها من شاعرية نثرية، وتألق تعبيري، ورشاقة بيانية.

وكذلك كانت الرواية التاريخية التي كتبها الأستاذ كنون بعنوان "حارس الكنيسة"، فلله دره أن جاءت متقنة، وأقبلت سليمة غير مثخنة، وهي إلى هذا متوسطة الحجم، جميلة الوسم، ليست بالطويلة المملة أخبارها، ولا بالقصيرة التي سرعان ما تسدل أستارها.

---

[290]- جمال الغيطاني "المجالس المحفوظية" دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 1، سنة 1426هـ/2006م، ص 41 .

الخـــــاتمة

في هذا البحث حاولنا الكشف عن جهود الأستاذ عبد الله كنون في النقد المغاربي, مبينين موقعه من التراث والحداثة من ناحية , ومن الكتابات الأدبيَّة من ناحية أخرى على وجه العموم, والكتابات النَّقديَّة على وجه التحديد.

كما وضحنا أنه فنَّد بجهوده لا سيَّما كتابه "النبوغ المغربي" ما كان سائدا من اعتقاد أنَّ النَّقد في المغرب العربي هو مجَرَّدُ صورةٌ مشرقيَّةٌ شاحبة!

وقد عرضنا على وجهٍ سريع لما يَتَّصل بسبب من الأسباب ويرتبط برابطةٍ من الرَّوابط بالأدب وثقافته ونقده, مثلَ أثَر الطَّبيعَة والبيئة في الأدباء, وموقف الحُكَّام وتأثيراتهم وظيفَةً وسياسَة, والأثر الدِّيني ومنزلة الشِّعر والكتابَة, مقامَةً ومقالَةً وخطابَة, وهي المنابر التي أطلَ منها وظهر فيها الأستاذ كنُّون رحمه الله تعالى شامخا بلا توانٍ ولا تذبذبٍ ولا خضوع.

إننا عند الكلام على القضايا النقدية وآرائه فيها ومذهبه إزاءها, رتبناها بتسلسلٍ منطقي معرفي حسب اجتهادنا من جهة, وعلى وَفقِ ما يقتضيه المقام من جهة ثانيَة, محاولين إزالة السِّتار عن الشَّيء الجديد الذي أتى به في عالم النقد الأدبي, حتَّى يتبَيَّنَ للدارسين إلى أيِّ مدى استَقَلَّ عن غيرِه من المشارقة, كاشفين عن تجلِيات فكره النقدي وفيما ظهرت آثاره شعرا ونثرا, وبلاغة وأسلوبا, وقديما وجديدا، وفنا وإبداعا، ومذاهب وتجليات، وتطوير وتوجيهات, وردٍّ ونقدٍ وبيانات، ومعايير العملية النقدية، والمتعة الفكرية الوردية التي توخيناها في تطرية البحث، وعدم تعريته من بلل المطر وحرمان القارئ من قطرات الندى ونسيم الصَّبا في خلال تهاطل المباحث في فصولها.

هذا؛ وقد ذكرنا أهم المرجعيات العلميَّة والمدوَّنات النقدية التي تأثر بها عبد الله كنون, والتي أسهمت في تكوين فكره, وصقل نظره, وجعله رائدا حتى في ميدان الصحافة الذي علينا عليه بعض الضوء، وذكرنا الصّحف الّتي عمل فيها الأستاذ, والصّحف الّتي أنشأها, بل سلطنا الأنوار على المقامات التي تبوَّأها في التوظيف والتأليف، وفي السياسة والكياسة، وفي الحكم وفي القضاء، وفي التدريس وفي الإدارة، دون أن نهمل المفاخر والأوسمة

العلمية التي حازها، والمجامع الأدبية واللغوية التي تشرف بعضويتها.

كشفنا عن الآليات والمعايير التي ينقد بها النصوص، وعن الشعر ومذاهبه فيه، ومواهبه في رحابه.

ولم نغفل عن بيان استقلاليته ورفضه لإخضاع الأدب العربي لمقاييس أجنبية عنه، ورفضه للتقليد لأنه قائم على الاستنساخ والجمود، مع تعزيزه الحيوية والاجتهاد.

لقد قاوم التبشير دينيا, وقاوم الاستشراق والتَّغريب دينيا وأدبيًّا معا كما بيناه في صفحات الرسالة، التي عرفتنا كيف تطورت أفكاره النَّقدية من خلال أعماله, وأدركنا بواسطتها وزنه الثَّقيل بين نقَّاد عصره وأدبائه, وإلى أيِّ مدرسَةٍ كان انتماؤه.

ثُمَّ إنَّنا بيَنَّا في ثنايا كُلِّ الفصول كيف آمن الأستاذ بأنّ التّعليم والتّربية هما أساس بناء الإنسان الّذي سوف يبني الوطن ويطوّره, وكيف ترجم هذا الإيمان إلى عمل, من خلال نشر كتب التّراث, والمساعدة على إنشاء المطابع, وعرضنا لبعض الأفكار النَّقدِيَة التي حملَها تيَّار التَّغريب برموزه ودعاته, والنتاج الأدبي النقدي الذي عارض به الأستاذ هذا التَيَّار وواجه به موجاته, ومقدار تصدِّيه للمستشرقين في البلاد العربيّة وأعمالهم وبحوثُهم المتعلِّقَة بالنَّقد فكرا وثقافَةً وأدبا, وإلى أيِّ مدى دمغ مذاهبهم وآراءهم, وفضح أهواءهم وأهدافهم.

وبالجملة فقد قمنا بتقرير لدور الأستاذ في الأدب والنَّقد، من مفهوم النَّقد عنده وآلياته ومجالاته, وطريقة تعامله مع النصوص فهما وتحليلا, نسقا وسياقا, تحريًّا وتعمُّقا؛ إلى خدمته اللُّغة, وهي الثروة المتنوعة التي استمدّها من فهمه الدِّيني الواسع وإدراكه الأدبي الشَّاسع, والتَّاريخيِّ الرائع, بحنكة وذكاء, وفطنةٍ ودهاء, ونباهةٍ لما تعمله السياسة في الأفكار, من مكر اللَّيل والنهار, وكيف تعاون مع رجال الفكر والنَّقد في المشرق والمغرب, إبَّان عصرِه عصرِ التَّحديات والوجهات من أجل خدمة الهوية اللغوية والنَّقد والأدب, وذلك على الخصوص من سائر حقول المعرفة.

وإن كانت لنا من كلمة مختصرةٍ مضبوطةٍ تحمل تقييما له على حسب عناوين فصول الرسالة برمَّتها؛ فإنَّنا نقول؛ إنَّ مصادر معرفته الكثيرة جدا كانت مثمرة باسقة، وجهوده الفيَّاضَة في النَّقد كانت متدفِّقَةً موفَّقة، وأفكاره النقدية الأصيلة وأدبياته الخطابية الجميلة تكللت بالنجاح، ومعاييره المنهجية في الرؤية والنظر اكتست من الجمال وطول البال بأفضل الحُلل.

والحق أنَّ العلامة عليّاً الطنطاوي لئن كان أديب الفقهاء وفقيه الأدباء بالمشرق, فإنَّ عبد الله هو أديب فقهاء المغرب, وفقيه أدبائه، وهو قريب الشَّبَه بالعلامة البشير الإبراهيمي، وإن كان الإبراهيمي في تفرده لا يُشبه أحدا.

والحاصل أنَّ الأستاذ رحمه الله تعالى كان مكتبَةً متحرِّكَةً نشيطة, تمشي بحيَويَّةٍ وثبات على وجه البسيطة, منتفعةً ونافعة, ومتحدِّثَةً وسامعة, غير متعاليَةٍ على الحق, ولا مستكبرةٍ على الخلق, تستفيد من التِّلميذ, وتمنح فوائدها للأساتيذ, في قوَّةٍ واضحة, وسماحَةٍ طافحة, دون نقدٍ بائر, ولا هوى جائر يحيد بصاحِبِه عن الموضوعِيَّة والإنصاف.

بيد أن من محاسن المرء أن تعد أخطاؤه، و من كبا ثم انتصر فكأنه ما هُزم، ومن محامد الرجل أن تعدَّ معايبه، وبناءا على هذا التقرير؛ ها أنذا أُخاطب الأستاذ كنُّون [الطويل]:

ففي حيِّــز الإبــداع شمسٌ تألَّقت ** وفي حيِّز الإمتــاع شعرٌ مع النَّثر.
برئت من الخسران في كل موطن ** وتعدادُ ما تكبُو وسامٌ على النَّصر.

وهو بعدُ في كبواته كسائر من يكبو وينجو، وكعامَّةِ مَن يخطئ ويصيب من بني البشر, وما من أحدٍ إلاَّ و يتعبُ في مسيرة الفكر لا سيَّما إذا كان ذا سير متواصل, ومن تعِبَ فقد غُلِب, ولو على تأخُّرٍ في الوصول إلى المراد بضياع وقته وتوقُّف جهوده, ومن غلب – ولو في هذا النوَّع من الانهزام!- فكأنَّما تعَثَّرت رجلاه, وربَّما ولَّى أدراجه وعاد إلى مأواه, فيا ويلاه!!

هذا في مجرَّد ما يصيب الإنسان من الضَّنى والإرهاق في قطع مسافَةٍ ليست فيها المنغِّصات سوى طول الطَّريق, فكيفَ إذا كان السَّبيل ممدودا على أشواك تحل فيه و تتنوَّع

بين جنباته, ونيرانٍ تبرُزُ فجأةً وتَشِبُّ شُبُوبا عندَ منعرجاته, وليس لسالكه من سحاب مطير, ولا قمر منير, ولا نجوم تهدي, سوى الظُّلمَة تحيطُ به من كُلِّ جهاته, ذلك هو ما كان من الاستعمار البهيم, ودرجة التعليم العقيم, وأحوال الزَّمان الفاسد الدَّميم, الذي لولا عناية ربِّ البريَّة لما كان لهذه الأمَّة العربيَّة شأن يذكر, أو خبر يسطر, وقد تداعت أصوات الباطل لإخراسها, وإطفاء نبراسها, وتكالبت عليها ذئابُ الشَّر لافتراسها, وإفساد أعراسِها, فأقبلت لا تلوي على غير ذلك من كُلِّ حدب وصوب.

إنَّني هاهنا لستُ متخَصِّصا في البكاء على الأمجاد, ولا في كيل المدح والثَّناء للأعلام من الأجواد, إنَّما هيَ الحقيقة يُجَلِّيها القلم, ويصَدِّقُها التَّاريخ, فلا يضيفُ الأدبُ إليها إلاَّ تهذيب التعبير, وتنقيح الألفاظ دون تغيير ولا اشتباه.

وكل ما أتمناه، هو أن توضع الأعمال الكاملة للأستاذ كنون.

وعسى أن يكون فيما كتبته ما "يدفع الدارسين إلى الخوض في المباحث اللغوية والنقدية عند [كتَّابنا] الكبار الذين لم يشتهروا بالشعر وحده، بل عُرفوا بالعلم الغزير والآراء السديدة في اللغة والأدب والاجتماع والسياسة وغيرها" ([291]).

وأحب قبل أن أضع القلم أن أُثبِت هاهنا قصيدةً شعرية نظمتها فيه، لعلَّها تكون تكفيرا عن تقصيري في الحديث عنه، فأقول [البسيط]:

لله درُّك !

عاشَ الحَياةَ مقيـماً هــــامَ أُمَّته ** كيما تفـوقَ بطـولٍ مـستوى السُّحُبِ.

وهَبَّ يسعى إلـى الأمجـادِ مُكنَتَهُ ** وفي سبيـل العُـلا يعتَــزُّ بالكَــرَبِ.

أزهـــارُهُ ذَبُلَت ألـــوانـه شَحُبَت ** والجِدُّ يرمـي خِــيارَ النَّاسَ بالشِّيَبِ.

وإن تكُن حَنِيَت أعــــــوادُ قامَته ** فإنَّ في الهَمِّ معنىً ليـسَ في التَّعَـب!

في ساحَة المجد أعداءٌ له خشعوا ** وقد أتـى لهُمـــوا بأعـجَبِ العَجَــبِ.

[291]- أحمد مطلوب "دراسات بلاغية ونقدية" دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، بدون، ص 274.

فنَّـــان يــزدانُ بالإبـــداع مقـــدِرَةً ** يسقي العِدى بالهدى في نقده الأدبي.

يَجلوا العُلومَ وروح الشِعـر تنفَحُه ** هَجْـواً وشَجْـواً ويُبقينا مـع الكُتُــب.

يا طالب الأَدَبِ الموفـــور تَنمِيَــةً ** هذا المثال لنا في المغرب العــربي.

وحقًّا فقد مضى عنَّا الأستاذ عبد الله كنُّون كما يمضي الحلم السَّعيد, فما يُبقي لقلوبنا سوى مسَرَّة الذكرى وحنين الفؤاد.

وبعد فلست أدَّعي في هذا البحث كمالا, لا حالا ولا مآلا, فإنَّ جهدي على حسب بشريَّتي التَّابعة للنُّقصان تبعِيَّة المنقوص للنَّاقص, والظِلِّ للشَّاخص, فما ثَمَّ, إلاَّ ما نظُنُّه قد تَم, والأمر أوَّلا وأخيرا؛ كما قال الشَّاعر:

إذا تَمَّ أمرٌ بدا نقصُه ** تَرَقَّب زوالا إذا قيلَ تَم.

وأسألُ الله تعالى ألاَّ أكونَ متطَفِّلا في رحاب العلم والأدب.

قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم بن أحمد الوافي:

"عبد الله كنون العالم المصلح" نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث, الرباط, المغرب, ط 1, سنة: 1434هـ-2013م.

"الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري" مطبعة النجاح الجديدة, الدار البيضاء, المغرب, ط 1, سنة: 1420هـ/1999م

- ابن ماجة:

"سنن ابن ماجة", ت: محمد فؤاد عبد الباقي, دار الفكر, بدون.

- أبو بكر العزاوي:

"اللغة والحجاج" , دار العمدة, المغرب,ط 1, سنة1426هـ-2006م.

- أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني:

"وَا مُحَمَّدَاهُ {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}" دار العفاني، مصر, ط 1، سنة 1427 هـ - 2006م.

- أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي:

"موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية" نشر المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش – المغرب, ط 1, بدون.

- أبو القاسم سعد الله

" أفكار جامحة" , طبعة دار عالم المعرفة سنة 2011 م.

"تجارب في الأدب والرحلة" عالم المعرفة, باب الزوار, الجزائر, ط3, 1430هـ/ 2009م,محمد بولوز "تربية ملكَة الاجتهاد", مجموعة الصنوبر,الرباط, بدون,

- الأعمى التطيلي "الديوان" ت: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

- أبو فهر محمود محمد شاكر:

"أباطيل وأسمار", مكتبة الخانجي, القاهرة, ط3 , سنة 1426هـ-2005م.

"اعصفي يا رياح وقصائد أخرى" جمع وتحقيق د. فهر محمود شاكر, شرح وتقديم د. عادل سليمان جمال, مطبعة المدني, مصر, ط 1, 1422هـ/2001م.

- أحمد الشايب:

"الدراسة الأدبية في المغرب الأستاذ عبد الله كنون نموذجا" منشورات مدرسة الملك فهد للعليا للترجمة بطنجة، مطابع سبارطيل، ط 1، سنة 1991م.

- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (728هـ):

"الإيمان" ت: محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، ط 5، سنة 1416هـ/1996م.

"الفتوى الحموية الكبرى" نشر المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، ط 3، السنة 1398هـ

- أحمد مطلوب:

"دراسات بلاغية ونقدية" دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، بدون.
- أحمد محمد شاكر "جمهرة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر – مع أهم تعقبات الشيخ على دائرة المعارف الإسلامية"جمعها وعلَّق عليها واعتنى بها عبد الرحمن بن عبد العزيز بن حماد العقل, دار الرياض, جيزة, مصر, ط1, 1426هـ/2005م.
- أنور الجندي:
"الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا" الدَّار القومِيَة, ط./1965م باتريك شارودو ودومينيك منغنو "معجم تحليل الخطاب", ترجمة عبد القادر المهيري وحمَّادي صمُّود, دار سيناترا, تونس, سنة 2008م.
- بكر بن عبد الله أبو زيد (المتوفى: 1429هـ): "طبقات النَّسَّابين" بدون.

"فقه النوازل", نشر مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى - 1416 هـ، 1996م
"معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ" نشر دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 3، سنة: 1417 هـ -1996م
- تزفيطان تودوروف:
"مقولات السرد الأدبي" ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صفا، دارسة ضمن دراسات لكتاب آخرين مجموعة في كتاب"طرائق تحليل السرد الأدبي" منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط 1، سنة 1992م.
- جمال الغيطاني:
"المجالس المحفوظية" دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 1، سنة 1426هـ/2006م.
- حسين جمعة "المسبار في النَّقد الأدبي: دراسة في نقد النَّقد للأدب القديم وللتَّناص", منشورات اتحاد الكتاب العرب, دمشق, سورية, 2003م.
- الخطيب البغدادي:
"الكفاية في علم الروايَة" ص283. الكفاية في علم الرواية، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن - 1357هـ.
- خير الدين الزّركلي "الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين" دار العلم للملايين – بيروت, ط5, سنة 1980م.

- سيد قطب:
"النقد الأدبي أصوله ومناهجه" دار الشروق، القاهرة، مدينة نصر، مصر، ط 8، 1424هـ /2003م - زكي مبارك: "ديوانه"- السلام - ج 5 - فبراير - 1934م.
- محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف "تَكملَة مُعجم المُؤلفين" وَفيات (1397-1415هـ) = (1977- 1995م) نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان, ط 1, سنة: 1418 هـ - 1997م.
- عبد الحميد بن باديس:

"مجالس التَّذكير من كلام الحكيم الخبير" للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس, الطبعة الأولى من مطبوعاَت وزارة الشؤون الدِّينيَّة ـ الجزائر ـ 1402 هـ ـ 1982م.

- عبد الله الركيبي:
"أحاديث في الأدب والثقافَة" دار الكتاب العربي، بدون.
- عبد الملك مرتاض "العاميَّة الجزائريَّة وصلتها بالفصحى" نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر, سنة 1981م

عبد الله كنُّون:

"أحاديث عن الأدَب المغربي الحديث" دار الثَّقافة, الدار البيضاء, المغرب, ط 4, 1405هـ/1984م.

"أشداء وأنداء" مطبعة البوغاز, طنجة- المغرب, سنة 1986م.
"جولات في الفكر الإسلامي" مطبعة الشويخ, تطوان, المغرب, 1400هـ/1980م.
" النبوغ المغربي في الأدب العربي" ط 2, بدون.
"ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة" قدم له واعتنى به د. محمد بن عزوز، دار ابن حزم- بيروت، ط 1، 1430هـ/2010م.
"شرح مقصورة المكودي" بدون.
"شرح الشمقمقية" دار الكتاب اللبناني، بيروت ، لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط 5، سنة 1979م.
- عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ت:محمود شاكر, ط
- علي الطَّنطاوي " فكرٌ ومباحث" طبع دار المنارة للنَّشر والتَّوزيع , جدَّة ؛ السَّعوديَّة , الطَّبعَة الأولى 1426 هـ - 2005 م .

- عمار طالبي:

"ابن باديس حياته وآثاره", دار المغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان, الطبعة الثانية, سنة 1403 هـ ـــ 1983 م.

- عيسات قدور سعد:

"أعولي يا جراح" ديوان شعري, غير منشور.

"بين الأدب والأصول: النَّفس الرَّائق في ضبط الفائق", غير منشور.

- مالك بن نبي:

" الظَّاهرة القرآنيَّة ", طبع دار الفكر بيروت , لبنان, الطَّبعة الخامسة سنة 1420 هـ ــــ 2000 م.

- محمد بن إسماعيل البخاري:
"الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه المسَمَّى صحيح البخاري" ت: محمد زهير بن ناصر الناصر, دار طوق النجاة, ط 1, سنة: 1422هـ.
- محمد تقي الدين الهلالي:

"الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة" مكتبة الصَّحابة, الإمارات- الشَّارقة, ومكتبة التَّابعين, القاهرة- عين شمس, ط 1, سنة 1424هـ/2003م.
- محمد البشير الإبراهيمي "آثار محمد البشير الإبراهيمي" جمع وتقديم: نجله أحمد طالب الإبراهيمي, نشر دار الغرب الإسلامي, بيروت, لبنان, ط 1, سنة: 1997م.
- محمد صالح المنجد "بدعة إعادَة فهم النَّص" مجموعة زاد, بدون.
- محمد الطَّاهر بن عاشور:
"أليس الصُّبحُ بقريب: التعليم العربي الإسلامي دراسة
تاريخيَّة وآراء إصلاحِيَّة" نشر مشترك بين دار السَّلام, القاهرة- مصر, ودار سُحنون, تونس, ط 2, سنة 1458هـ/2007م.
- محمد فريد وجدي "دائرة معارف القرن العشرون – الرابع عشر –العشرين", دار الفكر, بيروت- لبنان, بدون, (264/5).
- محمد الهادي الحسَنِي:
"قضايا وآراء", نشر الشُّروق للإعلام والنَّشر, القبَّة, الجزائر, ط 1, سنة 2013م.
- محمد عزَّام "النقد الموضوعي في النقد الأدبي" منشورات اتحاد الكتَّاب العرب, سنة 1999م.
- محمد محمد أبو موسى:
"دراسة في البلاغة والشعر" مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط 1، سنة 1411هـ/1991م.
- محمد ناصر الدين الألباني:
"إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل" نشرالمكتب الإسلامي – بيروت, ط 2, 1405هـ - 1985م.
- محمود الطناحي:

"الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم" الطبعة الأولى 1406هـ.

- محمود سالم محمد:
"المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي" نشر دار الفكر – دمشق, ط1, سنة: 1417هـ.
- مرتضى الزَّبيدي, محمد بن محمد بن عبد الرزَّاق الحسيني, أبو الفيض:

"تاج العروس من جواهر القاموس" تحقيق عبد الستار فراج وآخرين، الحكومة الكويتية 1960 - 2001م.

- مسلم ابن الحجاج النيسابوري:
"الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم", تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, دار إحياء التراث العربي – بيروت, بدون.
- مشيل فوكو "الكلمات والأشياء", ترجمة:مصاع صفدي,د.سالميفوت, آخرين, نشر مركز الإنماء القومي,سنة 1990م.- مصطفى درواش:
" تشكل الذات واللغة في مفاهيم النقد المنهجي" بدون.

- مصطفى صادق الرَّافعي:
"وحي القلم" نشر المكتبة العصريَّة, صيدا, بيروت, سنة 2002م.
- مصطفى ناصف:
"النَّقد العربي: نحو نظريَّة ثانِيَة",نشر عالم المعرفة, مارس 2000م.
- ميشيل رايمون:

"بصدد التمييز بين الرواية والقصة" ترجمة حسن بحراوي، دارسة ضمن دراسات لكتاب آخرين مجموعة في كتاب"طرائق تحليل السرد الأدبي" منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط 1، سنة 1992م

المجلات والجرائد:

- جريدة الخبر, الجزائرية، العدد: 7458 .
- جريدة الشروق, الجزائرية، العدد:4380.

- جريدة العلم، 01-01-2010م.
- مجلة البحوث الإسلامية نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – الرياض, السَّعوديَّة, بدون.
- مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة, نشر عمادة البحث العلمي, 1423هـ/ 2002م, العدد 7 .
- مجلة المناهل، تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الرباط- المغرب، العدد السادس، السنة الثالثة، رجب 1396هـ/ يوليوز 1976م.
- مجلَّة المورد, تصدر عن دار الشؤون الثَّقافيَة العامَّة, الأعظمِيَّة, العراق, سنة 1425هـ/ 2004م, العدد 2.

- مجلة الموقف الأدبي - مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب, بدمشق -العدد 413 , أيلول 2005 م.
- مجَلَّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة, العددان: 66 و 93.

مواقع:

- ملتقى أهل الحديث: www.ahlalhdeeth.com

- منتديات واتا الحضارية: www.wata.cc/forums/showthread

- موقع المحجة: www.mahaja.com

- موقع المجلس العلمي لعمالة طنجة: www.majlisilmi-tanger.ma

- موقع اتحاد كتاب المغرب: www.uemnet.free.fr

الفهـــــــرس